مكتبة الأسرة
مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٦

الأعمال الإبداعية

أيام الإنسان السبعة

عبد الحكيم قاسم

الهيئة المصرية العامة للكتاب



أيام الإنسان السبعة

مهرجان القراءة للجميع ٩٦
مكتبة الأسرة
برعاية السيدة سوزان مبارك
(الأعمال الإبداعية)

أيام الإنسان السبعة
عبدالحكيم قاسم

لوحة الغلاف
للفنان جمال قطب

تصميم الغلاف
الانجاز الطباعى والفنى
محمود الهندى

المشرف العام
د. سمير سرحان

الجهات المشتركة:
جمعية الرعاية المتكاملة المركزية
وزارة الثقافة
وزارة الإعلام
وزارة التعليم
وزارة الحكم المحلى
المجلس الأعلى للشباب والرياضة
التنفيذ: هيئة الكتاب

أيام الإنسان السبعة

عبدالحكيم قاسم

على سبيل التقديم...

لأن المعرفة أهم من الثروة وأهم من القوة فى عالمنا المعاصر وهي الركيزة الأساسية فى بناء المجتمعات لمواكبة عصر المعلومات.. من هنا كان مهرجان القراءة للجميع دلالة على الرغبة الطموحة فى تنمية عالم القراءة لدى الأسرة المصرية أطفالاً وشباباً ورجالاً ونساءً..

وكان صدور مكتبة الأسرة ضمن مهرجان القراءة للجميع منذ عام ١٩٩٤ إضافة بالغة الأهمية لهذا المهرجان كأضخم مشروع نشر لروائع الأدب العربى من أعمال فكرية وإبداعية وأيضاً تراث الإنسانية الذى شكل مسيرة الحضارة الإنسانية مما يعتبر مواجهة حقيقية للأفكار المدمرة.

هكذا كانت مكتبة الأسرة نافذة مضيئة لشباب هذه الأمة على منافذ الثقافة الحقيقية فى الشرق والغرب وعلى ما أنتجته عبقرية هذه الأمة عبر مسيرتها التنويرية والحضارية..

إن مئات العناوين وملايين النسخ من أهم منابع الفكر والثقافة والإبداع التى تطرحها مكتبة الأسرة فى الأسواق بأسعار رمزية أثبتت التجربة أن الأيدى تتخاطفها وتنتظرها فى منافذ البيع ولدى باعة الصحف لهو مظهر حضارى رائع يشهد للمواطن المصرى بالجدية اللازمة والرغبة الأكيدة فى الإسهام فى ركب الحضارة الإنسانية على أن يأخذ مكانه اللائق بين الأمم فى عالم أصبحت السيادة فيه لمن يملك المعرفة وليس لمن يملك القوة.

د. سمير سرحان

الحضـــرة

طول عمر الولد عبد العزيز وهو يحب صـــلاة المغرب ، فهى تأتى فى وقت يكون فيه النهار رقيقا ، الشـــمس غاربة والأضواء لينة ، وربما حزينة قليلا ، والأب الحـــاج كريم يقول فى وقار وترتيل :

ــ المغرب جوهرة فالتقطوها ..

فاذا لم تبادر بالصلاة ضاعت مسحة الضوء الشفيفة النـدية من الأفق وكبس الظلام ..

ويفرغ الأب من صلاة المغرب ، وينهض ليجلس فى مكانه من الأريكة فى شرفة الدوار على جبينـــه تراب من أثر الســـجود ، وفمه مشغول بالتسابيح ، كم هو طيب وحبيب ومهيب ذلك الأب الحاج كريم .

لا يجلس أحد فى مكانه من الأريكة أبدا حتى ولو كان غائبا ، ولو فعل فانما يكون متوترا متدلى الساقين ، منحنيا الى الأمام واضعا كفيه على ركبتيه .. ذلك دوار الحاج كريم عن أبيه ، يقوم على رأس حارة كلها آله وعصبته ، وهـــو رئيسهم وهم محبوه وطائعوه ومباهون به .

يطوى الولد عبد العزيز الحصير الأبيض ويقيمه فى ركن . ثم يلبد فى جوار أبيه كقطة صغيرة ، صغيرة ودودة ، وجســـده النحيل مشبع بالشوق الى مباهج المساء .

ما أبأس النهار ، حينما تنعقد وقدة الشمس ويصل ضوؤها الى كل ركن قاسيا وحازما وينتصب الرجال فى الحقول صارمين دؤوبين وتسعى النساء بقلل الماء وصرر الأرغفة صامتات ، حينئذ لا يكون ثمة مكان للكلمات العذاب ولا للحكايا ، تلك وقتها صدر المســاء .

ما أعذب الحاج كريم فى الأماسى ، ولـكنه فى النهار رهيب ، يتناول مقود بهيمتيه فى يد قاسية ، ويسوط ظهريهما ، ويفجر سلاح المحراث باطن الأرض والبهيمتان تتلويان تحت النير والرغوة البيضاء تتساقط من خطميهما على الأرض المتشققة ، وحوله العيال والرجال جهمون منهمكون لا يلوون على شيء .

الدور فى النهار كئيبة غارقة فى الضوء والغبار ، والشوارع ساكنة ، وقلب عبد العزيز ثقيل لـكن الدور الآن شفيفة يترقرق عليها بهاء الشفق ..

يلبد الولد فى جنب أبيه يستمع للتسابيح ، كلمات مبهمة لا يدرك سرها ، لـكنها مفاتيح تفجر فى خياله تصورات هائلة عن رجال ليسوا كالرجال ، ربما هم نحاف يرتدون أكثر الثياب رثاثة، لـكنهم يقفون فى أركان الدنيا ، أو يسيرون تطوى المسافات الشاسعة تحت أقدامهم كالبسط ، ويمدون ايديهم فيمنحون البرء للمرضى ويملؤون الضروع باللبن والمخازن بالحبوب .. يحيون بين الناس لا تستطيع تمييزهم ، ثم يموتون فيولد النور وتبنى القباب فى المدائن ، وتمتلىء الطرقات بالناس كأسراب النمل حاملين زادهم الى موالد الشيوخ .

يلبد الولد فى جنب أبيه يسمع للصوت العميق الذى يخرج من قلب الحاج كريم وهو يرتجف بالنشوة والترقب لمباهج ذلك المســاء .

وحينما يفرغ الأب من تسابيحه يكوم مسبحته ويضعها فى جيبه ويخبط بكفه على باطن قدمه الراقدة تحت ساقه المثنية ، ويتنهد هاتفا باسم السلطان ، وجهه أسمر سمين متناسق الملامح وعيناه البنيتان طائران يغيبان فى الآفاق الوردية من شفق المساء. فى هذه اللحظة يتوقع عبد العزيز أن يأمره أبوه باحضار المصباح ، ففى هذه الليلة يأتى كل شيء فى أوانه .. ويعود الولد باللمبة الـكبيرة ، ملمعة الزجاجة عامرة بالـكيروسين ، ويضيئها الأب بعود ثقاب ويحملها الولد الى ردهة الدوار الـكبيرة ويعتلى كرسيا حتى يصل بها الى الفانوس الـكبير المدلى من السقف ويغلق عليها بابه ، وينتشر على الحيطان المبيضة نور الفانوس الأصفر الكابى ، تصحو النقوش والزخرفات وتتكحل بقطرات لامعة من الضوء ، وترتسم على الأرضية المبلطة دائرة كبيرة من الظلال تروح وتجىء متارجحة مع اهتزاز الفانوس .

وما تكاد دائرة الظلال تهدأ مستقرة تحت الفانوس ومستطيل الضوء الأصفر خارج من باب الصالة ، وقاسم الشرفة الى ضفتين معتمتين ، ثم منحدر الى الطريق ، حتى يبدأ الناس يدبون عائدين من المسجد اثر صلاة العشاء متكسرين كأشباح واهنة وفى افواههم بقايا تسابيح، يمرون بشرفة الدوار يقرأون السلام مخافتين ، ثم يمضون تبتلعهم عتمة الحارة ، ثمة فى الدور الـكئيبة تنتظرهم الغرف المظلمة والنوم الى الصباح ، اما أصحاب الحاج كريم فأمامهم مباهج المساء .

ـ السلام عليكم .

ـ عليكم السلام ورحمة الله .

عاصفة صغيرة من الود والضحك الرائق ثم يصعد الرجل الدرجات القليلة الى الشرفة ويسلم على الحاج كريم ويجلس الى

جواره على الدكة ، ويداعب رقبة الولد النحيلة ويحس عبد العزيز ببرودة اليد التى مازالت رطبة بالوضوء .

ورغم الظلام يرى عبد العزيز التماعة الشوق فى عيون ابيه وهو يقول :

ــ تصلى انشاء الله فى الحرم الشريف يا شيخ احمد .

ويرد هذا داعيا بخشوع :

ــ وانت معانا انشاء الله يا عم الحاج .

وفى كل حين ينحرف رجل من الطريق المار بجوار الشرفة ثم يصعد الدرجات القليلة الى حيث ينتهى به المجلس ثم يكون السلام والكلمات القليلة والتحيات الطيبات حتى يلتئم شمل الصحاب ..

فى كل مساء يلتئم شمل هؤلاء الصحاب ، عملوا طول النهار فى الأرض حتى تشققت ايديهم وصاحوا وصرخوا فى الأولاد والنساء وساطوا البهائم وعميت عيونهم بالغضب العارم ، وفى المساء لبسوا الجلاليب المغسولة وصلوا العشاء جماعة فى المسجد الجامع وقالوا من قلوبهم آمين خلف الامام ثم جاءوا الى الدوار .

هم الآن طيبون حكماء ينظرون الى كد اليوم بوداعة ويبتسمون نادمين على عصفهم الغاضب بالنساء والولدان والبهائم ، لكنها قسوة الحياة وخشونة النهار ، وذلك السر الكبير المبهم الكامن فى صدر الأرض المفعم بالخصوبة وهم يدبون فوقها حيارى مهمومين غاضبين فى وقدة النهار .

لذلك خلق الله المساء واخفى الشمس فى طيات المجهول لميقات معلوم، ولو كانت الدنيا نهارا دائما وكدا لاينقطع ، لانقلب الناس الى شياطين وما عرفوا الله .. لابد من هداة كل مساء ، يدهشون

فيها لعجائب النهار المدبر ويبتسمون لخشونته ويتساءلون ملحفين عن سر النماء والذبول .

والحاج كريم سيد المزارعين ، الأرض امراته المطاوعة وهو ربها القاسى :

ــ ان مكانش سلاحك فى قلب الأرض .. مافيش من وراها رجا ... !

ويبهرون ويبتسمون ، لكنهم يؤمنون ..

لابد من هداة كل مساء يحكون فيها ويبسطون قلوبهم كالأكف المعطاءة يدور الكلام وتتفتح الحكايا ، ففى كل صدر قلب ، وفى كل قلب همه الفريد وهو فى رحلة الحياة يرى ويسمع ويتألم أو يرضى ، وفى المساء يأتى الى مجتمع الاخوان .

كل وجه من هذه الوجوه مطبوع فى خيال الولد عبد العزيز بتفاصيله الدقيقة لا يختلط بمن عداه ، ولكل مزاج عرفه وألفه وتعلق به وأحبه .

أحمد بدوى أول القادمين الى جلسة المساء ، الشاب الذكى ، قارىء الكتب للاخوان ، وجهه المستدير الطفلى المتورد الوجنات الضيق العيون ، المبتسم دائما .. وعلى خليل الدقيق المحاذر صاحب دكان البقالة ، وآخر من يأتى الى مجلس الاخوان ، فانه يتأنى فى صلاته ويتم اركانها ، أكرش نحيل الكتفين والذراعين هضيم الوجه شاحب لا يتكلم الا قليلا ولا يطلق الضحك ، انما يبتسم فى هدوء ، والدماء القليلة تشوب شحوب وجنتيه .. ومحمد كامل الطويل الأسمر ، العريض المنكبين ، قائد المرتلين والذاكرين فى الليالى الذى وخط الشيب رأسه ولم يعقب بعد خلفا ...

والعراقى الأطرش الذى لا يسمع ولا يتكلم وكل صلته بالحياة عينان حادتان سريعتان يعرف بهما الكلمات وهى تتكور على الشفاه ويجيب بكلمات مهشمة تثير الضحك أكثر مما تدل على شىء .. !

ومحمد العايق الدقيق الجرم ، ذو اليدين الناصعتين ، الأنيق الفائح دائما بالعطر ، زير النساء وزوج اللصة روايح .

وعمر فرهود الجمال ، فى النهار يصاحب جمله الهائل ، يشبك مقوده فى ذراعه ويناوله الطعام بلا انقطاع ، وفى الأذكار يطير لبه ويتناثر الرغاء من فمه ويمسك بهالرجال حتى يهدأ ، وفى المولد يحمل صحاحير الزاد على جمله الى المدينة .

وسليم الشركسى النجار ، ثمالة أسرة أتلف ادمغتهـا جنون غريب ، يجلس ساكنا لايتكلم ، انما يعلق على ما يقال ساخطا ، أو يضحك راضيا .

كثيرون هم كل منهم عالم بذاته عالم حبيب ينتظره الولد عبد العزيز كل مساء يشرب حديثهم بنهم لا يهدأ شىء ما يجمعهم فى مودة وثيقة عميقة وهموم اليوم حينما تطرح فى جلسة المساء تقودهم فى درب واحد نحو الزمن القديم والصور الضبابية عن الأيام الطيبات الثرية بالخير ، وعن الرجال الذين قالوا أحكم الكلمات وأكلوا أخشن الطعام وملكوا قوة الهيبة تمنح البرء للمرضى تملأ الضروع باللبن والمخازن بالحبوب، وتقودهم نحو البلاد البعيدة ، هنالك الصحاب وحكايات اللقاءات المتباعدة العامرة بالحب العظيم ، وهنالك الأماكن الغريبة والمزارات المهولة التى تستحق أن تشد اليها الرحال مقابر الأولياء والصالحين فى المدائن الكبيرة .. حينئذ يتخلق وراء عالم الحياة اليومية المحدود ، عالم آخر رائع لا نهائى يفجر الأشواق ويزحم القلوب بالوجد .

كل مساء سفر فى عالم غريب ، وبطل رحلة المساء هو الحاج كريم ، الأب الكبير ، سافر كثيرا وسمع كثيرا وحينما يشرع فى الكلام ، فان عيناه تسبحان فى الفضاء المضاء بالضوء الأصفر الباهت ، وتطل النقوش من الحيطان بعيونها البراقة .. يتنهد صافقا باطن قدمه اليسرى الراقدة على فخذه اليمنى وهو متربع فى مكانه من الأريكة ..

ــ والله يا رجاله .. وحق من أماته ..

تخشع القلوب وتطرق الرؤوس ويحكى الحاج كريم عن رجل من أصحابه أو عن شيخ من شيوخه أو عن حاكم نطق فى حضرته بالحق لم يخش شيئا ، وفى نهاية الحديث تمصمص الشفاه ، وتهينم بالكلمات الغريبة .. لقد حاز الحاج محمد والد الحاج كريم أطيانا شاسعة وبهائم وخيلا ، ثم عصفت الأزمة والوفاء للاخوان بكل شىء .. وقتها كان الحاج كريم شابا غضا يدور على صهوة فرسه كالأمير .. ما الناس الا حراس ما لا يملكون ، وغاية الحياة ما بعد الحياة ، عالم ضبابى مسحور رائق يشعل الوجد ، والحاج كريم يضىء مصباحه كل مساء للاخوان ويضىء المجلس بالكلام الطيب ... ما أسعد من فتح قلبه للمودة والصفاء ، وفدادينه القليلة كثيرة ببركة الله .

ويحكى احمد بدوى عن ولديه الصغيرين ، لو كانا قد عاشا لبلغا الآن عمر عبد العزيز ، فى ذلك اليوم لم يكن وجه أحمد بدوى مبتسما ، كان غارقا فى الدموع ، ولم تكن قامته القصيرة مكينة كما هى دائما ، كان واهنا متهدما ، يسنده من الجانبين اثنان من الصحاب .

حينما يتذكر عبد العزيز هذه الايام يغرق فى الحزن والسكون أيام الوباء .. كانت أياما رهيبة .. جاء العم الشاب الى الحاج كريم ..

ـ الموت بيعدى على السطوح من دار لدار يا حج كريم ..
عاوزين نحمل عيالنا وحالنا ونطير ..

أشقاء الحاج كريم وعياله مرعوبين ينظرون اليه .. وهو لايتخلى أبدا عن جلبابه الكشميرى الكبير ولا عن عمامته ، يجوب الدور ـ يمسح القيء والبراز بكفيه ، ويحمل فرائس الوباء على كتفه الى العربات ، والناس مجفلون متباعدون خوف العدوى ، والعربات تحمل المصابين وتطلق زمارتها مبارحة القرية بناس لا يعودون ، موتى بلا مقابر ، يلقى بهم فى حفر تردم بالجير الحى .

وكان صباح العيد الكبير حزينا ، الشمس ذهبية والشوارع مكنوسة ومرشوشة والقرية يلفها الخوف والسكون ، وجاء احمد بدوى وفى يديه ولداه الصغيران أربعة اقدام صغيرة بيضاء، فى شباشب جديدة حمراء ، وفى المساء ماتا .. يا لله .

يحكى أحمد بدوى عن ولديه .. ويحكى محمد كامل عن امراته «صديقة» الطويلة السمراء الواسعة العينين ، تمشى كسيرة مثقلة بالذنب ، لم يأت الى الدوار شيخ أو مجذوب الا وسأله محمد كامل ، والا أوصاه الشيخ بدعاء يقوله اذا أتى امراته ، ويحكى محمد كامل ـ ذليل الصوت ـ انه لم يغفل الدعاء أبدا ، فى المساء فى ظلام الغرفة حينما يأتى صديقه وجهه الأسمر القاتم ووجنتيه الذابلتين ينكس راسه .. ربما .. كل شيء بميقات .

فى كل قلب همه الفريد ، لكن القلوب قد يسيطر عليها لون من الميل الرقيق ، حينئذ يعذب صوت أحمد بدوى وهو يحكى عن تلك التى احبها ، وعرفت حبهما أشجار الجميز على الترعة الطويلة .. لكن أباها زوجها فى قرية بعيدة .. سكت مقهورا ولكنها قالت له أن تزوج فاطمة واستوص بها خيرا ، هو الآن يحب امراته البيضاء ذات الشال الكحلى ، يحبها فهى طيبة مطاوعة ، ويذكر

صاحبته بالخير .. لكن مابال القلوب تعصى أحيانا ـ كالحمر النكدة ـ وتأبى أن تنقاد فى طريق الوقار والكلم الصالح ، وتتشوق للهذر والكلام الفاضح، فتميل الدفة ناحية العايق ،حينئذ تبتسم شفتاه عن أسنان أهلكتها الكيوف ، وعيناه اللتان ربما أضر بهما الدخان المتصاعد من الجوزة ، تلتهب الجلسة بالضحك وراء حكاية عن زوجته اللصة روايح وعشيقته الجازية ليست حراما معاشرته للجازية فلقد وهبت نفسها له ـ على خليل يشحب من مهاترات العايق ـ لكن الجازية وهبته على أى حال ـ كنزا من اللحم الأبيض والعيون المكحولة ، يوازى كنزا وهبته له روايح من كل شيء يمكن أن يسرق وينقل ، تدور الجازية وراءه فى الموالد ، فى دهليز ضيق مظلم ، ضبطهما الحاج كريم فزعق فيه فهب من فوقها مذعورا يعدل عمامته ، ونظر اليه الحاج كريم وهو يتميز غيظا :

ـ سايب الناس وداير تلعب يابن الكلب .

وسوى العايق ثيابه ملهوجا :

ـ حاضر يا عم ..

وانطلق يقدم للناس الطعام والقهوة ، ويبادر الى ما يحتاج الى اصلاح من كلوبات .. يحكى العايق ، ويطرق الحاج كريم تعففا ، ويكتم ضحكه فيهزه الضحك المكتوم هزا ، ويتقافز الولد عبد العزيز فى مكانه من السرور .

العايق ليست له أرض فيما عدا قيراطين على حافة السكة ، يرتدى جلبابا ناصعا مثل الباشا ويضع على رأسه شمسية غالية ويذهب كل عصر ليتفقد «الأرض» والقرية كلها تضحك ، وهو ليس فلاحا ، انما هو فراش يضيء الكلوبات فى المآتم والأفراح ، وامراته تسرق له كل شيء ، يأكل كل يوم لحما ودجاجا وبطا

مسروقا ، ويتعطر ويلبس أفخر الثياب ولا يأبه لأحد ، يمتلىء قلب عبد العزيز ضحكا وهو يتذكر العايق واقفا وسط المأتم نحيفا دقيق الحجم يرتدى قفطانا لامعا من الشاهى وفى يده ابريق القهوة ـ لايسميه ابريقا ـ بل يقول عليه « سلاحا » يرفع يده الى أعلى بالسلاح ويده الأخرى ممدودة بالفنجال وينزل سيل القهوة قاطعا هذه المسافة الطويلة لكنه لا يخطىء أبدا طريقه الى الفنجال .. وبكل أنفة وكبرياء يمد يده للناس واحدا وراء الآخر بالقهوة من شرب شرب ، ومن رفض بايماءة من رأسه تجاوزه بحركة رشيقة من يده ، يطير بها الفنجال الى الشخص التالى دون ان تنسكب منه قطرة واحدة .. هكذا هو يمشى وسط أكبر المآتم منتشيا كالديك ومتجهما ينظر الى الكلوبات كانه شاويش الداورية الذى يمر على الخفراء الساهرين .

الولد عبد العزيز ، يحب العايق ونكاته وسخرياته بالشركس وفرهود الناس يقولون عليه كلاما كثيرا فامرأته لصة وهو يأكل ويلبس من الحرام ، الكلام يصك قلب عبد العزيز حينما يأتى على خليل الى الحاج كريم .. على خليل لا يتكلم الا قليلا ، ويعرف الناس العناء على وجهه قبل ان ينطق ينكس رأسه وتزداد أكتافه هزالا ، يحل الصمت وتنصرف الى ناحيته كل العيون وتربت عليه عيون الحاج كريم بحنان :

ـ يا عم الحاج .. العايق كل عيشته حرام .

ـ يا على .. بيعوص ايده جاز وينور لنا لمبة فى فرحنا وميتمنا ..

ـ عيشته حرام ..

ـ ربنا سايعه فى ملكه .. وفى طريقه .. ما اقدرش اطرده .

لكن على خليل يلح :

ـ عيشته حرام فى حرام ..

ويكتسب وجهه صفرة خوف يعرفها عبد العزيز فى وجه على خليل حينما يجلس مستمعا الى الواعظ ، ذلك العملاق الهائل الذى يقف وسط جمع الفلاحين يصرخ بأعلى صوته ويقول اشياء مرعبة عن نار الجحيم وعن الكاذبين والسارقين والزانين .. صفرة وجه على خليل وهو يتكلم تخيف عبد العزيز فلم يحب هذا الواعظ ابدا ، ربما أحب حمارته أكثر ، تلك الحمارة الدقيقةالحجم البيضاء ، كان عبد العزيز يظنها طفلة فى الحمير لكنه عرف انها عجوز وهكذا ، ومع ذلك ظل يكره أن يرى جرم الواعظ الهائل يثقلها حتى ليكاد يكسر ظهرها .. يأمره أبوه فيقتادها رفيقا بها الى الزريبة هناك تقف ساكنة تتنهد الى جوار حمارتهم الضخمة السمراء ويتصور عبد العزيز ان الحمارتين ستغرقان فى حديث ودود بعد خروجه .

يظل الحاج كريم يحاور على خليل حتى يذهب خوفه ، ويعيد البهجة الواهنة الى وجهه ، ويفرح عبد العزيز بدفاع الحاج كريم عن محمد العايق .. ذلك الرجل الأبيض الدقيق الجرم الطفلى الحجم كحمارة الواعظ تماما .. كم يمتلىء قلبه اشفاقا عليهما الحمارة النحيلة والعايق الخطاء ..

وقد يطير العبث بكل وقار فيقف العراقى الأطرش وسط الحلبة بلحيته وعمامته ومسبحته الخشبية الكبيرة الحبات ويحكى ..

... كيف يحكى العراقى الأطرش ..؟ لغة خاصة به ، كلمات مهمشة تكمل معانيها حركات قردية بيديه وجسده ، وتلعيب لملامح وجهه ، وصيحات وهمسات وقيام وقعود .

لكن يالله .. لقد كان العراقى الأطرش ذئبا يلبد طول النهار

فوق جميزتهم على رأس الحقل لا يكلم أحدا ، حائر العينين مكشرا منفردا ، لا علاقة له الا بأمه العجوز السوداء المكرمشة الوجه ، ثم سقط مريضا ، وجلس القرفصاء على ظهر الفرن فى الغرفة المظلمة فى قاع الدار، لاتبرئه أحجبة الكاتبين ولا وصفات العارفين، الى أن هبط القرية شيخ سبقته شهرة عريضة فى معالجة الأرواح التى تعمر الأجساد وجاءت به الأم الى ابنها ، ومكث الشيخ فى الدار شهورا ، قال ان العراقى قد عمل له عملا عويصا مكتوبا على ذرات الردة ، وان الردة التى كتب عليها قد نثرت على أركان الدنيا الأربع، وانه لا سبيل الى افساد هذا العمل الا اذا جمعت الردة المشئومة وأحرقت، وان ذلك عمل شاق سوف يقوم به أعوان الشيخ وخدامه من الجن الصالحين .. وفى كل صباح كان يأتى بقليل من الردة ليقول هذا جمع من العراق ، هذا جمع من الحجاز ، والأيام تمر ، وهو جالس متربعا على ظهر الفرن لا يفطر الا بالفطير والعسل ، ولا يتغذى الا باللحم والطبيخ ، وفى كل آن يطلق بخورا ويكتب أوراقا تكلف مبالغ كبيرة ، وعلم الحاج كريم بالأمر ، فاخذ عباءته وعصاه — وعلى جانبيه اثنان من الاخوان — وقصد دار العراقى الاطرش ، قلب للشيخ بخوره وكسر آنيته وضربه وطرده من البلد والعراقى ينظر مذهولا ثم يضحك اخيرا ويأخذ الحاج كريم الى الدوار .. ثم الى الطريق ..

ليلتها جلس على الحصير مع المرتلين لا يدرى ماذا يدور حوله ثم بدأ يغمض عينيه ويحرك رأسه يمينا ويسارا مقلدا الدراويش على غير ايقاع وهو يهينم بأصوات غريبة .

ليلتها ضحك عبد العزيز من قلبه على العراقى ، لكن العراقى أصبح شيئا آخر يتكلم ، هى كلمات مهشمة لكنها تفيد بعض المعنى ، وأصبح يعمل فى مشتل مصلحة البساتين ، واشترى دراجة وهام بهذه الدراجة حبا ، يزينها ، ويربط فيها الشرائط والأوراق

الحمراء والخضراء ، واذا تلف فيها شىء حزن وجاء للحاج كريم :

ــ الأكله عيانه يابا ..

فهو يدعو الحاج كريم أباه ، يحبه ويجلس بين يديه ضاحكا يكاد يطير فرحا ، وهام بالاخوان والطريق حبا ، بل انه أطلق لحيته واشترى لنفسه عمامة حمراء ، وحزاما احمر يدور حول خاصرته ويقسم عرض صدره من اليمين الى اليسار ومكتوب عليه بالنسيج الأخضر « لا اله الا الله محمد رسول الله » وهو يهيم بالشموع والبيارق والرايات يشترى منها مايستطيع ، وفى صباح العيد يزين المسجد ، وفى غبشة الصباح المبكر ترى المسجد غارقا فى ضوء الشموع ، فى كل مكان مناديل ملونة ورايات ، والعراقى يكاد يجن سرورا ، طائرا فى صحن الجامع ، يقبل الناس ، ويصيح مناديا المدد على السلطان .

يقف العراقى وسط الحلبة يحكى حكاية يومه فى العمل بطريقته الخاصة يقلد كل الناس ، يضحك الاخوان على المفتش ، وعلى كل من صادفه ، واغاظه أو سره .

وهكذا ، فى كل مساء امسية يطفأ بعدها المصباح ويعود الناس الى الدور .. لكن الليلة ليست كغيرها من الليالى ، انها ليلة جمعة ، وليلتا الجمعة والاثنين من الأسبوع ليلتان مباركتان تقرأ فيهما دلائل الخيرات وبردة البوصيرى وتكون حضرة مباركة .

فبعد أن يجتمع شمل الاخوان يتركون الشرفة الى الصالة الكبيرة حيث الفانوس الكبير وحيث الدكتان الهائلتان متقابلتان الى جوار الحائطين ، يجلس الحاج كريم فى مكانه من الدكة ، ويبتسم لأحد الجالسين :

ــ افرش الحصر يا بنى ..

ــ حاضر يا عم الحاج .

وتفرش الحصر البيضاء الناصعة على أرض الصالة المبلطة .. شمعية البياض هذه الحصر ، تقسم صفاءها أحجبـــة ومربعات ملونة بالأحمر والأخضر ، حصر جميلة صنعها الرجل الصالح سيد من محلة منوف .. كسير العينين لا يكاد يرى ، كسير الصوت ، لا يكاد همسه يسمع لـكن بيديه خشونة وصلابة غريبـــة كأنهما اظلاف ، ربمـــا ذلك من كثرة ما تد كان الســمار على الخيطان فى مهنة الحصـــير ..

اذا ما أعجبته تحفة من الحصير ، مصلى أو مفرش دكه طواها وحملها على خاصرته — على طريقة أهل مهنته — وجاء بهـا من قريته الى الحاجكريم ، طريق طويل ، يقطعه مارا بالناس والحقول والقرى ، تؤنسه التراتيل والتسابيح ، يقرىء الناس السلام حتى العيال الذين يلعبون بالتراب .. وحينما يصل ويضع حمله يجلس صغيرا ساكنا كحمامة لايصدر منه الا صوت حسوات القهوة من الفنجان المزركش الـكبير .. ثم ينهض منصرفا .. ويعتـــرض الحاج كريم :

— ريقنا ما اتبل من لقاك يا شيخ سيد .
— ارادة ربنا ..
— لقمـــه .. !
— مافيش نصيب ..

ويحزن الولد عبد العزيز لأن هذا الضيف الرقيق لن يشارك أباه طعامه ، وحينما يصافح يتساءل الولد .. ترى هـل تـكمن ارادة الله فى صلابة هذه اليد العربية ..؟

فرشت الحصر التى صنعها الرجل الصالح سيد من محـلة منوف على أرض الصالة المبلطة ، وشقتها من منتصفها تماما ارائك صغيرة واطئة وضعت عليها مصابيح الـكيروسين الصغيرة وشموع العراقى ، وأوان صغيرة فيها جمرات متقدة نثر عليهـا البخور ،

فانطلقت سحائبه وعطره واصطف الدراويش جالسين فى صفين الى هذه الارائك الصغيرة الواطئة وفى كل حين يفتح باب الدوار ويدلف ريفى يقرىء السلام ويتلفت محاذرا ثم يخلع نعله ويجلس حيث انتهى به الصف ، حتى اذا ما آن الأوان جىء بالصنـــدوق الـكبير من الغرفة الداخلية ، ذلك الصندوق الذى تحفظ به نسخ دلائل الخيرات وبردة البوصيرى وكذلك الوسيلة .. وثمة فى ذلك الصندوق أيضا كتب أخرى مهولة ..

يرقبه عبد العزيز محمولا على كتف احــد الدراويش حتى يستقر على الحصير عند راس الصف من الجالسين .. يا له .. قد ينصرف الناس الى كد اليوم فى الحقول ، وتصبح الشـــوارع ساكنة قليلة العابرين ، ويثقل الفراغ قلبه .. فيتسلل الى الغرفة الداخلية حيث ذلك الصندوق الـكبير يجذب غطاءه فينزلق كاشفا عن اكداس من الـكتب صفراء الأوراق منمنمة الـكتابة ، يتجاسر وهو خائف مرتعب ، ويخرج من الصندوق كتابا يبســـطه أمام عينيه ويتأمل تلك النمنمات المرصوصـــة فى داب لا يـكل ملء صفحات وصفحات ، يتأمل هذه الـكتابة ولا يفلح فى اســتكناه سرها ، انه يذهب الى المدرسة وله كتبه ، صغيرة مرحة كبـيرة الـكلمات تحكى حـكايات لطيفة عن اولاد نظيفى الثياب وبنـات صغيرات ذوات ضفائر وشرائط ، لـكن هذه الـكتابة الغريبة هى همه الـكبير ، لا تبوح له الا بالنذر اليسير من حرف أو كلمـــة لا تكون معنى .. كيف اذن تتحول هذه الصحائف الصـــفراء الى سحر يحلق فى سماء مجلس الاخوان ، حينما يجلس الحاج كريم متربعا فى مكانه من الأريكة خابطا بكفه باطن قدمه اليسرى الراقد على فخذه اليمنى ..

— المصابيح يا شيخ احمد يا بدوى .. نور المجلس بمنـــاقب الصالحين ..

ويؤتى لأحمد بدوى بكتاب مناقب الصالحين ويقرأ مـرتلا مترنما ، تتفجر الصور الضبابية ، وتتحرك فىأربع اركان المعمورة رجال ليسوا كالرجال ، تدق المسامير فى الأطراف ، وتجلدالظهور بالسياط ، لكن شيئا غريبا يظل بعيدا عن العذاب لا يدمى .. وحينما تدمع عيون الحاج كريم ، فان قلب عبد العـزيز ينفطر فى محاولة لاصطياد السر الخرافى .. الخبز الأسمر الخشن، والملح الأجاج ، والماء العكر ، والأثمال البالية وعيون كالطيور الغـريبة لاتحط على مكان .. رجال ليسوا كالرجـال ، ليست السـيقان كالسيقان ، انما هى مؤشرات تطوى تحتها المسـافات الشاسعة كالبسط ، وليست الأيدى كالأيدى ، انما هى مؤشرات لتقـدير المـقادير ..

يتجاسر عبد العزيز على الصندوق ويستخرج من جوفه مزيدا يتأمل اغلفته ، فان بعضها يحمل رسوما يعـرف منها محتـوى المجلدات ..

تلك بلا شك هى سيرة الهلالية ، وذلك الرسم على الغلاف هو الحسن بن الربيع وأبا زيد ودياب بن غانم فى مجلس العـرب ، لكم أحب عبد العزيز الحسـن بن الربيع ، كان رجلا حكيما رصينا حزينا يستشف الـنكبات فى طيات الأيام الآتيـات ، واذ يترنم أحمد بدوى بشعر حكمته فى المجلس تميل الرؤوس طربا وتأسى..

لـكن مريم الصناع تثير فيه شجنا غريبا تلك المسيحية الدائبة على اشغال الابرة ، تمخر بها السفن العباب وتباع فى الأسـواق وتدخل السعد على مشتريها بصناعة يدها واشغال ابرتها ..

وذلك القرد الذى يتحول كل آن الى أمير وسيم ، يا للضحك لقد كبر عبد العزيز بعد ذلك وذهب الى المدرسة وتعلم كيف يقرأ .. ثم مد يده وتناول الـكتاب وطالع كأنما هو فى الفصل لـكن أباه الحاج كريم نهاه !

ـ ما هكذا يقرأ الشعر يا بنى ، انما يرتل ترتيلا ! ..

كل الـكلام فى الصحائف الصفراء عنـدهم شـعرا ، وكل القراءة انما هى ترتيل وغناء .

ذلك هو حق السرور والأحزان .. الصندوق الـكبير ..

وزعت نسخ دلائل الخيرات على الدراويش ..

كل من جلس على الحصير الأبيض الى الدكة الصغيرة درويش.

وحل نوع من الصمت الا مصمصات شفاه أو تسليك حناجر وصفق الحاج كريم بيده ..

ـ استبدا يا شيخ محمد يا كامل ..

فهو أكبر الدراويش سنا وأكملهم وقارا ، فارس الذكر فى الليالى ، استبدأ بصوته العميق وخلفه جوقة الدراويش والترتيل ينساب هادئا رتيبا والصلوات على النبى تترى عدد حبات الرمال وعدد موج البحار ، وعدد ماكتبت الأقلام ، وعـدد ما لم تكتب الأقلام ، وحرارة الأصوات تزداد دفئا وقوة .. حتى تنتهى دلائل الخيرات وقد تركت الدراويش أكثر رغبة فى تلاوة التراتيل .. ويصفق الحاج كريم ويميل من الرضى ..

ـ استبدأ ببردة الأباصيرى ياشيخ أحمد يابدوى ..

أحمد بدوى ، الشاب الذكى ، الجميل الصوت ، قارىء الكتب للاخوان فى المجالس هو الذى يليق لقيادة جوقة الدراويش فى تلاوة شعر الأباصيرى ، فالبردة حافلة بالغناء ، وصـوته حافل بالألوان وهو القادر على أن يقود القراءة الى ذرى الانفعال .

ـ مدد ياسيدى يا أباصيرى ..

عيناه عالقتان بأشعة شاحبة هائمة فى سماء الردهة الكبيرة

ـ الوسيلة يا شيخ احمد .. الوسيلة يا ابنى ..

روح مشتاقة لا دواء لها الا التراتيل ، تحمل على أجنحة الأصوات المبروكة الى سماوات الرواء ويجاوب قلب كوته النار .

ـ اللهم انفعنا بهم ..

ثم يبدأ أحمد بدوى فى قيادة الدراويش يقراون الوسيلة ، كم يحب عبد العزيز الوسيلة وكم يحب ان ينصب مشدوها الى أميه الحاج :

ـ لما ينام اللى قلوبهم فارغه .. يفضل الكرام صاحيين .. يتقربو الله بذكر اوليائه ..

لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، نفس الله فى خلقه ، بضعة من رسول الله انحدروا من صلبه عن فاطمة عبر الأجيال ، قلة هم لكنهم أقرب خلق الله الى الله ، يتميزون بالعمائم الخضراء بين الناس كم يحبهم الحاج كريم وكان أبوه كذلك يحبهم حتى لقد تزوج واحدة منهم من الشرقية وحينما ماتت طار نعشها يكاد يقتلع أكتاف الحاملين تريد أن تدفن فى جوار آلها الصالحين لكن الجد الكبير وقف بجوار النعش يبكى ويتوسل لها أن تبقى .. وما استقر النعش الا بعد أن وعد ببناء مقام له قبة وهلال لاتزال ترى قائمة فى مقبرة القرية الى اليوم ومن يومها والجد الكبير يتخذ الشيخ والد زوجته شيخا له وهو له درويش ومريد ، وبعد الجد اتخذ الحاج كريم ابن الشيخ الكبير شيخا له وهو درويش ومريد ..

أبيات الوسيلة تعدد الأولياء وكراماتهم وصوت جوقة الدراويش ملىء بالرجاء والمذلة وهو يتوسل الى الله بالأولياء .. وعبد العزيز يترقب البيت الذى يجىء فيه اسم شيخهم الحالى :

بمحمد بن الفضل معروف السنا
ليث الأفاضل والأماجد والندا
يا رب نور قلبه وطريقه
واجعله فى يوم المعاد لنا يدا

يخفق قلب عبد العزيز اذ يتذكر الشيخ ، ويتذكر وسامته ، وصفاء ملامحه ووقاره وسكونه ..

واذ ينتهى احمد بدوى من القراءة تبقى رأسه منكسة وحبات عرق دقيقة تلمع فى أعلى جبينه والحاج كريم يهز رأسه على الايقاع السابق كأنما دوى القراءة لايزال فى أذنيه .. يحل صمت طويل لا تأمه الا مسح الجباه بذيول الجلاليب حتى يؤذن صفق الحاج كريم بكفيه ..

ـ الفواتيح يا شيخ محمد يا كامل ..

احتفال مهيب تختتم به كل حضرة يقوده محمد كامل مغمض العينين يجلجل صوته مشيرا ومقترحا ..

ـ الأربعة الأقطاب .. والأربعة الأنجاب .. والاربعة خلفات النبى لهم منا الفاتحة ..

وبعده تنطلق الهمسات من الجالسين تقرأ الفاتحة فى ابهام وغموض ..

ـ الفاتحة لأهل السماح ..

ـ الفاتحه ..

ـ الفاتحه ..

ـ الفاتحه لاخوان الطريق ، الحاضر منهم والغائب لهم منا الفاتحه ..

ومن بعض الجوانب يأتى صوت متردد خجول :

ــ الفاتحه يا اخوانا لفلان ربنا يزيح غمته ..

ربما هو أخ مريض أو مكروب يلزم داره أو هو مسافر لقضاء حاجة ، يغمض محمد كامل عينيه ويصيغ الطلب ويأمر بالفاتحة .

ثم الموتى ... اخوان كانوا زهرات هذه الليالى ، ثم طواهم الموت فى القبور ، ولكن ذاكرة الدراويش لاتنساهم .. يقترح محمد كامل الفاتحة لكل منهم ، هم دار الدوام ونحن فى دار الزوال .. ما أسعدهم ، ختم الله حياتهم ختاماً صالحا واختارهم لجواره ..

المقبرة فى ذهن كل اخوان الطريق ، دار البقاء السمراء الشواهد ، شواهد طينية تتابع صامتة .. فى صباح العيد حينما يجلجل صوت المبلغ رائعا يتردد صداه فى المسجد الجامع :

.. فاذا ما ارتقى الخطيب المنبر ..

وسبح لله وهلل وكبر ..

فالواجب على أهل المحضر ..

أن ينصتو للكلام ..

وينصتون حتى ينتهى الخطيب وينزل سلالم المنبر صفيرا شاحبا مباركا وتنتهى صلاة العيد ، ويخرج الحاج كريم فى أبهى زينته ، وخلفه الاخوان وجموع أهل القرية صامتين لا ينبسون ، ماضين نحو المقابر لا يصافحون أحدا ولا يتكلمون ، لا سلام ولا كلام قبل تحية الراحلين ، فاذا كان الحاج كريم بازاء المقابر وخلفه الناس وقف جليلا ..

ــ السلام عليكم ورحمة الله دار قوم مؤمنين .. انتم السابقون ونحن اللاحقون ..

وحينما يهل الحاج كريم ووراءه جموع الناس على المقابر ، تتسلل النساء عائدات ، هن الحزانى ثواكل الأولاد والبعول ، بتن ليلة العيد كل واحدة امام شاهد قبر ابنها او بعلها النائم فى التراب ــ تؤانسه فى الليلة المباركة ، اما النساء السعيدات ، فقد أمضين الليلة إفى القرية بين العيال أو فى حضن الزوج .

يتفرق الرجال فى طرقات المقبرة بين الشواهد يحيون الموتى ويدعون لهم فان دعاء الحى للميت ينير قبره ويوسعه عليه يحيون ويضعون الجريد الأخضر على القبور ويسقون الصبار . وفى الآخر يجتمعون جميعا فى مقام زوجة الجد محمد ، وهناك يقيمون حضرة صباحية ثم يهبون ثوابها للموتى .

وبعد أن تتم تحية الموتى على هذا النحو يصبحون فى حل من السلام على بعضهم والكلام والتبريك بالعيد ..

هكذا قرئت الفواتح للقريب والبعيد للميت والحى ثم جلجل صوت محمد كامل ..

ــ الخاتمة للنبى .

وقرئت هذه الفاتحة بالذات بصوت قوى جهورى احتراما وتبجيلا وبنهايتها انتهت الحضرة وتحرر الدراويش من سمت الجد الذى اتخذوه للقراءة وبدوا يستريحون فى جلستهم ويثرثرون وصفقت أحقاق المضغ على الاكف ولفت السجائر وطارت سحب الدخان ودارت العيون بحثا عن النعال ..

وهكذا فى كل مساء من ليلتى الاثنين والجمعة حضرة مباركة تقرأ فيها دلائل الخيرات ثم بردة الأباصيرة ثم الوسيلة ثم الفواتح فى الختام ..

لكن هذه الليلة ليست ككل الليالى .. ذلك انه ذات عصر كان الحاج كريم جالسا يشرب القهوة فى شرفة الدوار .. اذ اقبل

عليه سليم الشركسى النجار لابسا جلبابه الحريرى ولبدته البيضاء وحذاءه البرتقالى الطويل الرقبة وعلى وجهه بقايا من غبار الطريق ومسحة سرور تعرف على وجوه الآيبين من الأسفار ..

ان سليم الشركسى ليس نجار سواقى أو نوارج انما مهنتـه صناعة مصاريع الأبواب والشبابيك وايدى الســكاكين ومزاليج الأبواب ، ولذلك فعدته لامعة صقيلة ولباسه مهندم ومزاجـه عصبى حاد .. وفيه الى جانب ذلك شيء يخيف ، ربما فى ومضات عيونه ، أو فيما يقال عن جد الشراكسة الـكبير من انه كان فاسد الدماغ يدمن المنزول ويأتى بغرائب التصرفات وعجيب الأقوال ، وربما شيء من ريح هذا الجد يتفرع فى عروق الأبناء ووالحفدة اثر لاتستطيع امساكه لـكنك تحسه وتخافه ..

وامراة سليم الشركسى النجار فارعة بيضاء ولدت له ستا من البنات وشوق الرجل لولد من صلبه زاد طبعه عصبية وحالطت صوته نغمة قانطة وشده الطريق اليه .. وجابت امرأة النجـار ولدا أسموه شحاتا ، فكلنا شحاتين وان هى الا لقيمات ومتـاع الدنيـا قليل .

صعد الرجل الدرجات ، على وجهه غبار الطـريق ومسحة السرور والحاج كريم عمره ما انتظر ان يقرأ السلام ، انما يبـادر مرحبا بالقادمين ..

ـ مرحبتين يا شركسى .

ـ وسلامين ياعم الحاج ، واحد من عندى وواحد من عنـد الحبايب .

وينغم الحاج كريم السرور الطائر حول اللقاء بخبطات كفه على باطن قدمه ..

ـ هيه .. هيه . هيه

يستعجل الحكاية والشركسى يلم جلبابه الحريرى بحذر ناصع هفهاف يلبسه شتاءا وصيفا منذ ما يعى عبد العزيز يلبسه فى الاسفار والأعياد واحتفالات الاخوان يخرج حق مدغته لا ينكش الدخان فى الحق بقشه من الأرض كسائر الناس بل بمسمار جديد مستقيم مدبب يعزم على الحاج كريم .

ـ قريت لك الفاتحه فى السلطان .

ـ مدد ياسيدى يا سيد .

بخشوع نبرة تصك القلب

ـ وملت على الشيخ على .. الفرح امتى .. قاللى الليلة الكبيرة مثل النهاردة ..

وهلل الحاج كريم كانما راى الهلال اول الشهر العربى ..

ـ مدد ياسيدى ياسيد مدد .. ناديت علينا يابو فراج وآد احنا جايين ..

بدات الأنفاس المبروكة تسرب فى البلد وتوقظ القلوب .. صدر عبد العزيز ضائق بقلب كالعصفور ، السيد البدوى ينادى اولاده أو هم فى أسفارهم يدورون يدبون على البلاط المبلول فى المسجد الكبير ويسألون الخدم متى الفرح الكبير .. ؟ وتترى الأيام ثم ينتشر الخبر فى الجرائد عند ذلك يكون الوعد اليقين ..

وفى هذا المساء كان العراقى الأطرش يصعد الدرجات الى الشرفة ملهوجا عجولا ، وقبل السلام يدفع جريدة مطوية الى يد الحـاج كريم ويهتـز كيـان عبد العزيز ضحكا ، ويلكز احمـد بدوى جنب العـراقى .

ـ سلم الأول يابن الكلب

وعراقى الأطرش ينظر الى شـــفتى احمد بدوى ويعرف انه يشتمه فيقول بكلمات مهشمة ..

ــ بس متقولش يابن الكلب .

ويضحكون جميعا ويضحك العراقى معهم ، ثم يقفز جاريا الى الصالة ويستحضر كرسيا يجلس عليه بين يدى الحاج كريم وهو لايزال يضحك ، ويطوى الحاج كريم الجريدة ويضعها بجواره على الدكة ، وبتحريك شفتيه وحركات يديه يفهم العراقى أنه قرأ الخبر وعرف ما فيه عصرا ..

حيث كان يصب قهوته من الكنكة النحاسية الصفراء فى الفنجان المزركش الكبير ، اذ طلع عليه الشيخ محمد الجمل كاتب الزراعة مرتديا جلبابه البوابلين الأفرنكى وطاقيته البفتة البيضاء ، وفى يده المسبحة الكهرمان تدور بين اصابعه بسرعة كبيرة جدا .. لم الولد عبد العزيز طرف ثوبه أدبا ، فان الشيخ محمد الجمل هو معلمه وعلى يديه لقن مبادىء القراءة والحساب ، وربما شىء فى عين كاتب الزراعة المطموسة بالبياض يخيف ، لقد كان الناس يتســاءلون طويلا هل يستطيع الشيخ محمد الجمل أن يلاحق بالتسـبيحات حركات حبات المسبحة الدائرة بين أصابعه بسرعة غريبة ، أم يختلط الكلام ويصبح لغوا لاينبع من القلب ..

والحاج كريم يقول :

ــ سر القلب عند الله .

لكن الناس بقوا يتساءلون وآثر الأب ضيفه بالفنجال الأول من قهوة العصر مليئا مختوما ، وفرد هذا جريدة كانت بيده مطوية..

ــ يا عم الحاج .. أذن الله بمولد السلطان

وخبط بأصبعه على موضع الخبر من الصفحة

ــ اقرالى .. اقرالى .. كتابة الجونال بتزغلل عينى

.. (تقرر أن يكون الليلة الكبيرة ..) ..

وبعد أن فرغ اخذ الحاج كريم الجريدة وقربها من عينيه ، ثم أبعدها عنها لآخر ذراعه ، وقرأ لنفسه محركا شفتيه ، ثم ركن الجورنال بجانبه وصفق بيديه بعزم ..

ــ شئت ولبينا .. يا سلطان

ثم يترنم مسرورا

ياراحليين ليمه باياد

شو قتمو يوم الرحيل فؤادى

هكذا ينادى السيد البدوى أولاده، أما ساكن البرية فيما بعد القرين شرقية ، ســيدى سليم أبو منسلم العــراقى ، الذى أتى من العراق الى أرض مصر الطيبة فى بيارقة ورجاله ، واقام منفردا فى الخلاء، وكما كان مجلسه وسط الاخوان لايزال، ضريح واطىء منهدم الحيطان، وحوله بضعة قبور ، وتتناثر اكواخ ريفية هنا وهناك كأنما تقوم على خدمة المتسامرين .. وفى الآماد الشاسعة حوله تتنفس الرياح أنفاسها الطلقة الجبارة .. فاذا ما كان المولد زرع الخلاء ناسا وخياما وطبولا وخيولا ولحوم جديان وتاب السارقون والقتلة وتجاوبت الآفاق بالتراتيل ، ياللهذا السيد ويا لسيرته الغــريبة فى نداء أولاده ..

ــ فى مولد العراقى ييجى الراجل أبو جريدة .. مش كده . ؟ اسود كانه مصنوع من اطر الســيارات ، مفتول العضــل كأنه مهر ادهم مستوفز على خلفتيه ، يسير ، بل يهرول حافيا وفى يده جريدة طويلة ، فى طرفها قطعة من الورق مكتوب فيها موعد المولد ومختومة بختم شيخ السجادة ، يدور يجوب المديريات السبع مناديا على مولد العــراقى ..

ومع استمرار البلح يترقبه عبد العزيز وذات ضحى ينشق عنه الشارع مارقا كالفيتون وقبالة الدوار يقف وينادى على المولد ثم يصعد الى الشرفة قافزا الدورجات ملبيا دعوة الحاج كريم ويقدم الطعام فيلتهمه بنهم يشرب اللبن الرائب من حافة الاناء ثم يهب واقفا ويستبقيه الحاج كريم ..

ـ استريح ياراجل شوية

ـ ماأقدرش ياعم الحاج .. فاضل اربع مديريات ..

ويختفى مع الطريق سالبا لب عبد العزيز ووجه الحاج كريم فائض بالرضى ..

ـ مدد يا سيدى سليم يا عراقى

ومدد يا بنت الحسين .. يانفيسة الدارين ..

كان عبد العزيز قميئا نحيلا تنام يده فى يد ابيه كعصفور ازغب يستريح فى كف طرية دفينة وهما أمام ضريح السيدة نفيسة ، ويمد عبد العزيز بصره من شبك النحاس عبر زجاج شفيف صقيل، ويبصر الشفوف تتدلى حول رأس القبر ـ زينة عروس ليلة العرس ـ احبها عبد العزيز وعرف عطرها الطيب .

ودائما يكون صبحا عذبا عندما يأتى ساعى البريد وينزل عن حماره قبالة الدوار ويسلم بأدب على الحاج كريم والخطاب دائما من عند حسن افندى الساكن فى شارع أمير الجيوش وزوجته البيضاء الطيبة وابنته الرضيعة الملىء جسدها بدمامل صغيرة يقفز قلب عبد العزيز ، ويدفع الحاج كريم المكتوب الى أحمد بدوى.

السلام عطر قلوب الاخوان والأوان آن البيت كبير ربع قديم الحب فراش الاحباب والوساد وكلنا فى رحاب عروس الأولياء والحاج كريم يكاد يجهش بالبكاء .

ـ اللهم لا تبعدنا عن طريقك يا كريم

كيف يكون حال العالم من غير هذه المصابيح .. ؟

كان الحاج كريم متربعا على مكانه من الاريكه والدراويش صفان على الحصر البيضاء بازاء صف الارائك الصغيرة امام مصابيح الكيروسين واوانى البخور وفى ايديهم نسخ دلائل الخيرات .

ـ ياولاد .. الجمعه الجايه نعمل الحضره فى رحاب السلطان

ضحكت الوجوه الوضيئه بالسرور .. مدد ياسيدى ياسيد .. ومدد يابو فراج

صفقت احقان دخان المضع على الاكف الايام القادمة واعده بالمباهج نضج الشوق تحت وطأة الظهيره فى ايام العمل الشاق المتتابعة .. ياراحة الروح والقلب ياسلطان .

ـ المعاملة ناشفة أوى ياعم الحاج

أحمد بدوى أجرا الدراويش على الحاج كريم .. يخبط يده بنسخة دلائل الخيرات ويفكر ... لقد اخفى خمسين قرشا فى حق فى الحائط لكن امراته عثرت عليهم واخذتهم .. ماذا يقول لامراته المدللة ..

ـ تفرج يابنى .. تفّرج

القلق الذى يرين كالسحب على الوجوه ويحلق على المجلس لا يبدده الا كلام الحاج كريم العميق المؤمن ..

ـ تفرج يابنى .. تفرج

دائما (تفرج) تحزب الأزمات وتشتد تهرب النقود الى قيعان بعيدة، ولكن فى الزمن المعلوم تشد الرحال الى المقاصد .. ويطرق الحاج كريم قليلا اطراقة تنشر الصمت وتخلق بين ـ الحاضرين التشوق للكلام ..

— والله .. وحق من اماته

الشيخ الكبير كانو عائدين من مولد سيدى ابراهيم الدسوقى قطارا تركوه وقطارا ينتظرونه فرش للشيخ على الرصيف فتمدد .

— ياحاج محمد

— نعم ياعمى

— عاوزين كازوزة

— عالحديدة .. يعلم الله ياعمى .. يادوب تذاكر الرجوع

— ياحاج محمد .. عاوزين كازوزة

ويشرب الشيخ الكازوزة

— ادفع ياحاج محمد

— منين ياعمى ..

ويغضب الشيخ ويثور ويطوح بالزجاجة الفارغة بعيدا فتطير كانما نبت لها جناحان تطير وتقع وتتقافز الى أن تستقر واقفة على قضيب القطار ، سليمة لا تضطرب ولا تميل يهلل الدراويش للكرامة ويتقاطر الناس وتنتشر الحكاية ويزيد الزحام وتتكدس قطع العملة الفضية على افراش الشيخ المدد الناس ذوى الحاجات يقبلون يده ويطلبون الدعاء ..

— ادفع ثمن الكازوزة ياحج محمد

وقتها كان الحاج كريم غلاما صغيرا يتقافز هكذا فى رحاب الطريق .. لم ير عبد العزيز أشياء خارقة مثل هذه ، الشيخ الحالى شاب وسيم مبارك لكنه لايملك مثل هذه الكرامات العظيمة ليت عبد العزيز رأى الشيوخ السالفين العظام مثل ما رأى الحاج كريم وشاهد ، الشيخ الحالى سليل هؤلاء الأقطاب لكن الناس

تقسو قلوبها مع الزمان وينقص الله البركة من الوجود كل أن بمقدار .. لا ملاذ سوى الطريق .. خير كله خير .. احمل خرجك وعصاك وخباءك واقصد السلطان فهكذا فعل الرجل الصالح ودرويشه وفى الرحاب دق العصا ونشر الخباء وأوقد النار ونصب الاناء وقال له الدرويش ..

— ياعمى .. العدس قليل والآكلون كثير

ويقول الرجل الصالح :

— ياولدى اذا كان السلطان قد ارسل لنا اولاده ولم يرسل لنا عدسا فائرد لهم فى الماء ..

ويزيد الدرويش الماء الى الاناء دون عدس فيكون ثريدا ماكان اشهى منه فكيف اذن يترك المريد الباب ليتسكع بالحيطان (المعاملة ناشفة) حقا لكنها سوف (تفرج) ..

سوف يرسله ابوه لينادى المتولى ساروخ ويأتى الرجل ليجلس على الدكة بجوار الحاج كريم نحيلا خشنا متحفظا جهما قليلا وقلب عبد العزيز واجف .. اشفاقا ..

— عاوزين ارشين يا سار .

— حاضر يا عم الحاج .. على عينى .

ويأتى كاتب البلد طويل طرى العود واليدين ابخر ذو منظار يتدلى على انفه .. رجل غريب يظل ، يجوس الدور يدخل ويخرج، يجلس متربعا ساندا اوراقه على ركبته ويكتب مضيقا بين جفنيه، يكتب فتنتقل الارض والبهائم بين الناس والناس ينظرون اليه .. أين كان .. اين هو ذاهب .. من باع من اشترى .. وشرخة الأرض الرفيعة ملك الساروخ بجوار ملك الحاج كريم تزداد عرضا كل عام على حساب أرض الحاج كريم ..

القلق الذى يتكور   بد العزيز لا تذيبه الا كلمات ابيه
العميقة المؤمنة وثمالا   الطلية ..

ــ مالناش فى نفسنا   .. احنا حراس ..

وكل ما فى الدور للاقطاب ، الأم والفصيل وما تقع عليه عيونهم يذبح دون تأخير ، فاذا ما أصاب درويش خيرا جاء يزف البشرى الى الحاج كريم .

ــ يا عم الحاج .

يقف الرجل خجولا فرحا بين يدى الحاج كريم .

ــ الجاموسة ولدت .

ــ مبروك عليك يابنى .

كم يفرح الحاج كريم بالخير للاخوان .

ــ كفاية على اللبن .. العجل لأهل الله .

ــ الله يخلف عليك يابنى .

وتكون ليلة رائعة فى دار ذلك الدرويش ، لكن هذا انما يكون فى زورة الشيخ السنوية للبلد ، ليال مباركة ليس أبهى منها أبدا..

يخرج الاخوان جميعا لاستقبال الشيخ على المحطة ، ويعودون على الطريق موكبا جليلا ، الاخوان وضيوفهم الأعزاء من الترقبة الشيخ فى المقدمة ومعه الحاج كريم ، رجلان جمعهما النسب والطريق ، ووراء الرجلين يمشى الموكب ، كل رجل من الاخوان يرحب بأحب الضيوف الى قلبه وأثرهم عنده ، المستكاوى يكركع بالضحك مع العايق، وعلى خليل ينصب بكليته الى حسن أفندى، والشيخ عباس انفرد بالشركسى النجار ، وصانع القهوة يبتسم مسلما قياده لمحمد كامل ، وصانع الرقى زائغ العينين لا يكف عن التسبيح ، الطريق مفروش بأحاديث الترحيب والمودة ..

ليال مباركة ليس أبهى منها أبدا ، كل ليلة بدعى الشيخ ورهطه الى دار من دور الاخوان والمريدين تذبح النذور ويقدم الطعام وتقام الحضرة والأذكار ويكون سرور ترتج منه الحيطان .. لكن ليس أبهى من الليلة التىتقام فى دار على خليل أبدا ، يالها دار على خليل. ما أحبها الى قلب عبد العزيز ما تكاد تخطو من العتبة منحدرا الى وسط الدار حتى تجد السلم الطينى يدعوك صاعدا بك الى السطوح ، تندفع تجاه السلم لا تبالى بفتحة كهفية جنب الباب ، ربما هى غرفة المعاش أو بها الفرن وموئل العيال فى ليالى الشتاء ، ربما ، لم يدخلها عبد العزيز أبدا ، وانما يندفع منها عيال على خليل المعلولين وامرأته الطويلة الفتية المتوردة الوجه كشرخة أرض خصبة ..

مشى موكب الشيخ الى دار على خليل وثمة أمام باب الدار باحة صغيرة تحيط بها الدور الواطئة دور قميئة ليست شامخة كتلك التى تقع على الشارع الكبير ، دور قميئة يصعد العيال والنساء من قيعانها الى الشارع ليروا موكب الشيخ القادم نحو دار على خليل ..

ويصعد الشيخ ووروراءه الاخوان على السلم الطينى الى السطوح ، مكان لطيف فرش بالحصر البيض وتطربه ريح بحرية، وفى الشباك صينية النحاس فيها قلل جديدة مغطاة بأغطية من البلاستيك حمراء وخضراء وليمونية أحضرها معه من طنطا .. ما أنق على خليل والطف حاجياته .. وفى كل آن يصعد رجل أو امرأة السلم يحمل طفله الصغير ويأخذه منه على خليل ويذهب به الى الشيخ .. دار على خليل فى حارة فقيرة ، يحبونه ، كان هو الآخر فقيرا ثم فتح الله عليه لا يستطيعون اقامة الليالي ودعوة الشيخ ..

فاذا ما حل بدار على خليل اتوا بالعيال طالبين البركة يأخذ على خليل العيال الى الشيخ يمسح رؤوسهم ويتفل فى افواههم ، وفى الفرقة يعكف كاتب التعاويذ والتمائم على كتابة الرقى والأحجبة للنساء العواقر واللاتى يموت اطفالهن ، زيارة الشيخ لدار على خليل عيد للحارة كلها ، وهو واقف يجول بنظراته ربما احد من ضيوفه يريد شيئا ويهيب به الشيخ بلسانه الشرقاوى .

ــ اجهد يا على .. استريح .. احنا مبسوطين .. مش ناجص حاجة ..

يبتسم على خليل خجلا وينزل الى وسط الدار ..

هناك يذبح الحاج كريم الذبيحة وهى تتلوى بقوة خارقة فى وثاقها ، والرجال حولها يشدون اطراف الحبل بحول وانصراف ورهبة ، يضع ركبته على رقبتها ، لايكون وجهه هكذا الا اذ يذبح او يحرث أو يؤدب المراة أو الولد ، تمرق السكين فى الحلقوم مما يلى نهاية الفكين ، ويطرطش الدم الأرض وأطراف جلاليب الرجال ، وتبرطش البنات كعوبهن فى دماء الذبيحة ، دافعات ذيول الجلاليب عن السيقان والجسد ينتفض على الأرض والحاج كريم يبتسم وحوله الرجال .. ويخبط بصفحة السكين على الجسد المرتجف ثم لايصبر ، يتناول خلفيتها ويثقبها من ثمة يولج عمود الحديدليفسح بين الجلد واللحم مجالا ، سوف تنفخ ثم تعلق فى السقف ويقف الحاج كريم أمامها يسلخها ويقطعها .. انه يعرف الأشياء جميعا ، شملول فى كل حرقة ذلك الأب الكبير ..

الباحة أمام باب الدار وقدة من النور زرعت الأرض عيالا والأسطح حول الباحة نساءا وبناتا ، والعايق فى قفطانه الزاهى وعمامته مثل الباشا ــ لولا ابرة التسليك المرشوقة خلف اذنه ــ يدور ينظر الى الكلوبات جهما فاذا نعست عين واحد منها

اتى له فورا بالسلم الكبير وقفز عليه كالقرد وعالج الكلوب مكشرا كأنما يلومه أو يقرص اذنه فيتدفق النور والطنين ..

فرشت الحصر البيضاء امتداد شاسع من الفرش المبثوثة اتى كل رجل وكل امرأة من داره بشىء انضم الى البساط الكبير .. الناس يحبون على خليل يحدقون به ويكلمونه ضاحكين ، وجهه شاحب بالضوء الأبيض انه طيب وديع يدفع الأطفال برفق وهم يتزاحمون شكسين ..

شق الفراش الشاسع بصف الأرائك الواطئة صفان هائلان من الدراويش ، الليلة هم كثيرن ، كثيرون جدا رجال جاءوا من اعماق الدور على وجوههم جدية طيبة ، يخلع الرجل نعله ويطويه ويضعه امامه على الحصير ويجلس خاشعا والصفان يطولان تقلصت الأرائك الصغيرة وأصبح صفها قصيرا بين العدد الكبير من الناس ..

العراقى يتعجل السرور لابسا عمامته الحمراء ، وحزامه الذى يدور حول وسطه ويشق صدره ويحمل فى يده مبخرته وينادى بأعلى صوته على المدد من السلطان ثم يضع مبخرته على الأرض وينخرط فى ذكر عنيف يطوح بنفسه يمينا وشمالا مع ايقاع صوته ..

ــ الله حى .. الله حى ..

ثم يكتشف انه وحيد فيضحك ويضحك الناس والعيال والنساء ، ينطلق يجرى حاملا مبخرته ضاحكا ومناديا على المدد من السلطان ..

والعيال بعيدا يقيمون أذكارا صغيرة زائفة تدور للحظات ثم تنفض لتنبت فى مكان آخر بين الضحك والجرى والتجاذب والتقاذف بما يقع عليه اليد . أما الصبيان العاقلون فيجلسون

صفوفا صفوفا متتالية خلف الدراويش صفوفا تغطى الفراش حتي تتجاوزه وتفترش الأرض الرطبة من المساء .. أما النساء ففى الأطراف قليلة الضوء وعلى السطوح تبرق عيونهن وحليهن وهمساتهن وضحكاتهن اطارا بعيدا غامضا لحضرة المساء ..

يأتى الحاج كريم فيحل الصمت ، يمشى الهوينا فى عباءته وعصاه تتبعثر الهسهسات .. يقف ساكنا لحظة يكاد يقف قلب عبد العزيز عن الخفقان ثم يجلجل صوت الحاج كريم واضحا كأن الله يتكلم ..

ــ أباريق نور نازلة من السماء على دارك يا على يا خليل .

ويجمد وجه على خليل كانه مصنوع من الشمع وتنطلق زغرودة تشق السماء كاللهب ويقول الحاج كريم بصوت خافت لكنه مسموع :

ــ استبد يا شيخ محمد يا كامل ..

انه اليوم فى أبهى زينته لف شالا أبيض على طاقيته من صوف الغنم الأحمر وسدل لفاعا على كتفيه ووجهه حليق وكتفاه عريضان كأحد أولياء الله فى صور تباع فى الأسواق ، أغمض عينيه، اكتسى وجهه مهابة جليلة ثم خرج صوته عميقا ووراءه كورس الدراويش فى تدفق هادىء رصين .. « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم اللهم صلى أفضل صلاة على أسعد مخلوقاتك سيدنا محمد وعلى آله عدد معلوماتك ومداد كلماتك » .. عالم شاسع صحارى ورمال وبحار وانهار واشجار وسحب وذرات وكتل فى صدر كل مخلوق ـ مهما دق ولو كان هباءة طائرة فى شعاع شمس ــ قلب دافىء نابض يسبح باسم الله ويصلى على أسعد مخلوقات الله .. ومع الرحلة الغريبة فى أقطار الكون فى الأفلاك البعيدة وفى الأعماق السحيقة تضطرم القلوب

بالأشواق وتلتهب التلاوة وتشق الزغاريد أجوار الفضاء .

ويتميز بين أصوات الكورس صوت احمد بدوى الرفيع النافذ ويبدأ يفرض نفسه بين طيات نهر الكورس المتدفق ويميل بجماع الأصوات نحو مذهب مياد بالتلوين والدلال وتبدأ الكلمات تتجسد وتتضح تبكى الحروف ويتذلل الكلم أو ترقص المقاطع فى المعنى الباهر .. وما تنتهى دلائل الخبرات الا وقد خفت القلوب حتى لتكاد تطير بالأجساد فى النور ..

ماكر والله احمد بدوى لا يستلم الدراويش الا عرقانين مبحوحى الصوت من قراءة الدلائل يأخذهم الى آفاق البردة اللانهائية والنساء سكرانات على السطوح والرجال ميادون فى الصفين كالأعواد والشيخ يطل من الشباك ..

ــ تانى يا بدوى .. تانى يا حبيبى .. هواك ونغماتك يابدوى .. من عند الله ..

فى احدى يديه نسخة البرده ، يداه طائرتان فى الهواء ، جسده يميل ويعلو ..

يا نفس لا تقنطى من ذلة عظمت
ان الكبائر فى الغفران كاللمم

ذات الرجفة التى دبت فى قلب عبد العزيز حينما رأى الكلمات تدب فيها الروح اذ يسقط عليها النور أحمرا وأخضرا ملونا بألوان زجاج المسجد وكفه مخنوقة فى يد والده الذى يشير له ..

ــ شايف يا ولد .. اقرا .. البرده كلها مكتوبة على جدران المسجد ..

مسجد الأباصيرى فى الاسكندرية وريح البحر تهب مالحة والحروف يقظانة فى الضوء الملون ..

يالائمى فى الهوى العذرى معذرة
منى اليك ولو انصفت لم تلم

فى صوت احمد بدوى بحة المداحين حينما يتصدرون ردهة الدوار فى المساء والناس زحام جالسين عند أقدامهم وصفق الدفوف يهز الجدران وقلب عبد العزيز أكثر ارهافا من دف محمى على النار الليلة مداحين هذه أم ذكر حضرة أمام باب دارعلى خليل، أم نور الفانوس يزدهى بالسرور لاقتراب فرح السلطان .. ؟

رفعت الأرائك الصغيرة مما بين الصفين نهض محمد كامل واقفا فوقف الصفان جميعا ، أسرع العيال والصبيان وتسللوا بين الأرجل والأجساد وافترشوا الحصر جالسين بين الصفين الواقفين الكلوبات أبهى ماتكون نورا والسطوح مثقلة بالبنات وزغاريد متفرقة متعجلة سرور الذكر الوشيك . .

على راس الصفين وقف السنهوتى عازف السبسب وصاحب زار القرية نحيل كان ثوبه مقام على خيزرانتين ميادتين ، شاحب كانه ميت واقف غائر العينين لا يفيق من الأفيون الا لينفخ فى السبسب كيف تزوج السنهوتى من هذه المرأة الزنجية السوداء الضخمة تمسك دفا هائلا وتقف الى جواره ضاحكة عن أسنان صحيحة ناصعة البياض ..

توسط محمد كامل الصفين ورفع يداه لأعلى هاتفا ..

ــ الله ..

وانهى التنهيدة العميقة بصفقة قوية على كفه .. هكذا بدأ الايقاع هادئا عميقا تتردد فيه كلمة الله رتيبة متباعدة على تقاسيم ينفخها السنهوتى فى السبب وعلى رعشات من شخاليل الدف .. انزاحت اكمام جلباب السنهوتى الهفهافة الناصعة البياض عن زراعين نحيلتين مشعرين وأغمضت المرأة عينين ساجيتين مع

الايقاع .. هذان الاثنان السنهوتى وامرأته ، هذا السبسب الذى لا يجاوز طوله شبرا وهذا الدف الكبير ياسران النساء فى القرى البعيدة فيأتين متشحات بالسواد حذرات مترددات يخضن الحوارى الملتوية حتى يصلن الى دار السنهوتى حيث يقام الزار كل اثنين وجمعة من الأسبوع ..

اصبح الذكر جنونا، محمد كامل فى الوسط طائر الذراعين يصفق كفاه بقوة وفى ايقاع سريع محموم ، السنهوتى يصب فى السبسب روحا مجنونة .. طار غطاء راسه وطارت خصلات شعره السوداء، وجسده النحيل يرتجف مع الايقاع، نبحات صادرة من قلوب عشرات الذاكرين معا على الايقاع تصك الحيطان ضربات الأقدام فى الأرض تهز القرية من جذورها صفان من الأجساد المتصببة بالعرق يميلون معا يلتوون معا ، يستقيمون معا يقعون معا ينهضون معا فى نسق مزلزل لا يختل ، امراة السنهوتى تضرب قلب الدف بكف سوداء ضخمة ، قلب الدف المرهف على النار ، ليس فى الدنيا كلها سوى صوت الدف والسبسب ونبحات صدور الذاكرين ودق اقدامهم ، صوت جبار يسحق كلكلة كل قلب ..

عبد العزيز يحس بالخوف ، لكنه خوف رائع كذلك الذى أحسه عندما كان عند عمته فى القرية البعيدة ، هناك زوجها أبوه فى دار كبيرة طرقاتها طويلة معتمة الجد الكبير لاهل الدار مدفون فى وسطها ، وهم يضعون على القبرة لمبة لاتطفأ ابدا وحينما يمرون ينظرون ناحية القبر محاذرين ، قوم غير عاديون ، ابنتهم الكبيرة العانس جسدها عامر بالأرواح آتوها بالدفوف الكبار وبدأ الصك الرهيب والخوف الرائع ، ضمت العمة عبد العزيز الى صدرها أمسكت ذيل جلبابه وعقدته عقدة قالت ان ذلك يحميه من الأرواح .. عبد العزيز يود الآن لو يعقد ذيل جلبابه ليحميه من صك الدفوف الرهيب .

ورفع محمد كامل ذراعيه لأعلى هاتفا لختام الذكر .

ـ الله ..

ارتعشت شخاليل الدف حتى سكن ، تسحبت أذيال السبسب انطلقت عواصف الزعاريد من السطوح . وقف الذاكرون يكادون يسقطون اعياءا .. عمر فرهود انجذب فما يستطيع أحد ايقافه أو السيطرة عليه .. العايق الخبيث يقول :

ـ سيبوه .. مش حيسكت الا لو شافته مراته .. هو قايل لها أنا بنجذب فى الذكر وهى مش مصدقاه ..

ويضحك عن أسنانه السوداء ، السنهوتى يمسح بمنديله الأبيض نابه القصير المثقب الذى بلله لعابه لكن عراقى الأطرش لايزال منهمكا فى الذكر وحده لم يسمع بانتهائه ، نبهه واحد ، جذبه من ذراعه ، حينما اكتشف الوضع شتم الناس جاريا فى كل اتجاه ليدارى كسوفه ..

حيطان ردهة الدوار عليها بصمات ليال وليال ، وصوت أحمد بدوى فيه عطر ليال السرور ، عطر الطريق ..

ـ حرما جميعا يا مشايخ ..

ـ التجلى كان نازل الليلة ..

ـ نفحات السلطان يا عم ..

ـ ربنا ما يحرمنا من رحابه ..

واخرجت المناديل لتمسح حبات العرق من الوجوه ، وفى همسات مجهدة قرئت الفواتح للاخوان البعيدين والقريبين والأحياء والميتين ، الاخوان هم صحبة الحياة ورحلتها القصيرة الدنيا من غيرهم بطعم التراب ..

المستعجل على النوم قام وبقى ساهرا مع الحاج كريم الخلصاء من اخوان الطريق .. لفائف الدخان وأحقاق المضغ .. تمددت السيقان على الحصر ما التزام الوقار وقد انتهت حضرة المساء ..؟ يدور الكلام هينا حالما ..

ـ السفر باذن الله يوم الأحد ..

السفر الى السلطان ، الطريق ، طنطا بيت الخدمة ، لقاء الاخوان ، الفرح وليلته الكبيرة ، الكلام يترقرق يصنع حلم الأيام القادمة فى ضوء الفانوس الذى بدأ يخفت وتنعس ذبالته ..

آخر المنصرفين هو دائما احمد بدوى ، يبتسم .

ـ تصبح على خير يا عم الحاج .

وحينما يغلق وراء انصرافه باب الدوار الكبير تصبح الردهة موحشة يثوب الحاج كريم الى الدار فى يده المصباح والعصا وخلفه عبد العزيز .. الليل هدأة مخيفة تسلم الى النهار ، نها الجهمين الصائحين ، لو كانت سهرة المساء شيئا لا ينهى .. ؟!

الخبــــز

الغرفة مخنوقه بانفاس النائمين ، الضوء مخنوق على الحيطان بتهاويل الظلال ، والمصباح عين ناعسة على الحائط ، عمدان السرير النحاس الأربع الشاهقة تجثم على حيطان الغرفة وسقفها ، الأنفاس تتردد فى غير ما نظام ، حيوان ضخم راقد تحت اكداس النعاس ، حبات العَرق على الجباه ، ــ الاجساد المتعرية من الزحام والحرارة العالم الغامض المهول بالظلال والعتامة ورائحة اناء البول الحمضية يتسرب الى دماغ عبد العزيز فى نومه يهوش أحلامه ، هولةضخمة ذات شعر تمتد لتخنقه ، يستيقظ مروعوبا يزيح يد والده السمينه المشعره المنداه بالعرق عن وجهه ويدور بعينيه ، حمدا لله إنه حلم ، اغمض عينيه مره أخرى لكنه يقظ تماما ، تململ الحاج كريم بجوار ابنه عبد العزيز على السرير ، استقام جالسا ، سوى جلباب النوم على فخذيه العاريين انحدر نازلا من على السرير، على الأرض الأولاد متكومون على حصير ، داس بين الاجساد بحذر حتى وصل الى مشجب الملابس خلع جلباب نومه وقف عاريا تماما ، ظهره تجاه عبد العزيز فتح الولد عينيه ، الاب العارى ، ثنيات اللحم عند خاصرتيه، اغمض عبد العزيز عينيه مرة اخرى ، لبس الرجل ثيابه ثم خرج الى المسجد .

عبد العزيز يتقلب قلقا أخواته يتقلبن على الحصير أغمض عينيه حتى لايرى عريهن ، دفن وجهه فى الوسادة والاحساس بالاثم يرعبه، سمع صوت الأم .

ــ اصحى يابت انت وهيا .. الفجر لاح .. ورانا خبيز

قمن جالسات يسوين ملابسهن ويفركن النعاس من عيونهن ويغطين الصغار من العيال ، نزل عبد العزيز من على السرير ، لبس الطاقية فى رأسه زر طوق جلبابه وخرج الى وسط الدار ، ضوء اللمبه ذات الشعله ثابت لا هواء يحركه وحوله هالة صغيره من النور وفيما عدا ذلك الظلام والسكون ونجمات الصبح تتكدس فى مربع عار من سقيفه وسط الدار ، جلس على المصطبة ، أصوات غامضة تأتى من بعيد ، الحمائم تتحرك فى البنانى قرب السقف ، البهائم تجتر طعامها ، الحماره السمراء الكبيره تتنهد فى ارتياح ، الدار عليها سقف من الحطب وفروع الشجر بهكثير من اعشاش العصافير، لعل صغارها تحلم ، الذكور والاناث تتحاضن ، تزقزق بهدوء ، ثمة ثعابين ايضا فى العريشة الثعبان يبتلع العصفوره دون ان يمضغها ، يتسلل اليها ثم تجدها فى جوفه متكوره هكذا بوضوح فى جسده الطويل المسحوب .

خرجت أم عبد العزيز تحكم طرحتها حول راسها ذراعاها متحاضنتان على صدرها وكفاها مدسوستان تحت ابطيها ، تناولت لمبة ذات شعله من رف طينى فى الحائط اشعلتها من اللمبة الاولى أخذتها مشتعلة أخرجت المفاتيح من صدرها ــ لا تتخلى أبدا عن هذه المفاتيح ــ فتحت غرفة المعاش وغابت هناك .

فتحت الغرفة الأخرى بابها عند راس المصطبة تماما ، خرجت منها زوجة الحاج كريم الأخرى تحمل فى يدها ابريق فخار اسود، حالما برزت من الباب كان وجهها فى وجه عبد العزيز تماما ..

ــ صباح الخير

ــ صباح النور

سمراء متغضنة الوجه واسعة العيون ، يعرف عبد العزيز سعة عيونها فى اخواته غير الشقيقات، ولكن وجناتها نبيلة ، مشتتحمل

ابريقها الاسود الى الركن الذى يقوم فيه الزير ، ثدياها ضخمان وساقاها نحيلان ملتويان تندفع فى مشيتها .. قطرات ماء تسح من الزير متباعده تسقط فى اناء تحته فتحدث صوتا .. بدات تصب الماء بالكوز فى ابريقها . الماء يرن فى تجويف الابريق ، ظهرها نحيل .. استدارت ، عيناها واسعتان ووجنتاتها ذابلة ، تقول عنها أم عبد العزيز انها تشترى الصابون النفاش لتبدو أحلى فى عيون الحاج كريم ، ذات مرة وجدوا فى غرفتها ورقة ملفوفة فيها قطعة صابون نفاش حمراء تنفش ملامح الوجه وتجعله متوردا تتكحل ويزدهى وجهها وتجلس على عتبة بابها يدخل الحاج كريم ويخرج دون أن ينظر ناحيتها .. وفى المساء تلمع زجاجة مصباحها وتتربع على فراشها النظيف ساندة ذقنها على يدها ، يتسلل عبد العزيز الى غرفتها ـ عندما كان صغيرا ـ تضمه وتقبله وتحكى له حواديت الغول والغولة وبائع الباذنجان .. أخذت ابريقها ومشت نحو المرحاض ، طهورة نظيفة الثوب ، بعد ذلك سوف تصلى ، لاتعرف شيئا من أمور المعاش توكل اليها الأشياء التى لاتقتضى مهارة ولا التفاتا ، حتى عبد العزيز لم يعد ينظر ناحيتها وهى جالسة على العتبة ، يحس نظراتها الحائرة ولكنه لاينظر ناحيتها ..

عادت بابريقها الدار ساكنة لايسمع سوى كركبة أمه فى غرفة المعاش وصوت تلاوة الزوجة الأخرى فى صلاتها وهمهمة الحمائم فى البناتى وقطرات الماء الساقطة من الزير يصيغ سمعه ويدير رأسه كالدجاجة المتشوقة .. فى هامش السكون والعتمة هذه الوسوسات غير ذات المعنى تولد فى عروقه شيئا كالخدر يسرح الى قلبه ويتكور ثقيلا يزدحم صدره يرزح على أنفاسه وحلقه، يحدق فى شعلة اللمبة طويلا، الكلام يترقرق فى داخله كالدموع ، لو كان يقدر لكتب كلاما كثيرا حزينا مثل تلك السطور التى ارسلتها بطلة الرواية الى محبوبها وارسلت معها خصلات من شعرها سقطت من عنائها فى حبه .. لكنه لا يستطيع ، الكلام فى صدره كنتف من

السحاب لا يستطيع الامساك بها ، فقط يمتلىء خياله بالصور المتوتره الحزينة ، مثل صورة وجه المسافره الى حبيبها تطل من شباك العربة تتعجل المسافة يفطر قلبها القلق ..

عند عبد العزيز بضعة كتب قليله فى شباك الغرفه يجثم التراب على اغلفتها ، كم يتمنى لو عاش وحيدا فى مكان ما، وحيدا بعيدا عن كل شىء ، لكنه يتذكرها، غديرتاها وعيناها وابتسامتها الرائقه . .زمان .. حينما كان بعد طفلا صغيرا كان ينتظر العيد فى شوق وليلة العيد يبقى ساكتا عازلا نفسه عن ضجة العيال مصيخا السمع .. ثم فجأه يسمع زمارة العربة ويندفع خارجا يفتح الباب الكبير، وتنزل هى من العربة مع أبيها وأمها صغيرة لطيفة مثل العرائس التى تعرض فى نوافذ الدكاكين وطول أجازة العيد لايفارقها يلاعبهاويعنى بها الى أن تسافر فيبقى حزينامنتظرا عودتهم فى العيد الآخر .. لقد مرض ابوها ومات وهى الآن تسكن حارتهم مع امها وهما يسافران معا الى المدرسة فى طنطا كل يوم لكنه مع ذلك مشتاق اليها دائما ..

وحينما يقف على باب الحارة يكاد صدره يتفجر بالشوق يركز بصره بقوة على المنحنى حيث تلتوى الحارة وتغيب يركز بصره معذبا مشتاقا فاذا بها خارجه كمعجزه نبى وفستانها طائر عن ساقيها .

غلب عبد العزيز الابتسام وهو جالس يحلم على المصطبة تصورها وهى طائرة هكذا كالفراشة ، يملأ قلبه سرورا ويغلبه الابتسام .. هى وكتبه المغبره فى الشباك ووريقاته الصغيره التى فيها فتات قلبه .. لكم يود ان يعيش وحيدا لكنه مع ذلك يحب الاشياء جميعا حارتهم السمراء وامرأة ابيه القديمة الطيبه .

بدأت البنات تخرج من كلا الغرفتين الى غرفة المعاش وهناك بدأ يعلو صوت الكركبة والكلمات التى لاتزال ناعسه واوامر ام عبد

العزيز المقتضبة، وضحكات صفيرة خافتة، وفى كل آن تخرج واحدة من البنات ــ فى يدها لمبة ذات شعلة ــ تذهب وتجىء فى وسط الدار تقضى حاجة أو اخرى ثم تعود الى غرفة المعاش .

ثم خرجت ام عبد العزيز وبدأت تصعد السلم ذى السياج والدرجات من خشب الجميز الغليظ ، قصيرة مليئة تدك الدرجات بقدميها اللمبة على راسها وهى تحمل نفسها بأشياء واشياء ، فى كلتا يديها وتحت ابطيها لو كان لها عشرة اذرع لطلبت مزيدا .

تفكر عبد العزيز فى أبيه الحاج كريم .. لعله عاد بالأمس من سهرته مع الاخوان فى الدوار وطلب اليها أن تخبز زوادة السلطان، ولابد انها غضبت الى اقصى حدود الغضب ، واكدت ان المخازن

خالية من الحبوب والدقيق وأن الجرار ليس فيها رائحة السمن .. وان قطرات اللبن التى تنزى من أخلاف الجاموسة لا تكفى حتى لبل ظمأ العيال .. وانه قد آن الأوان لأن يكف الحاج كريم عن بعثرة رزق أولاده على الموائد والضيوف وانه يكفيه أن يملأ سلالا يحمله فى يده الى طنطا مثل الباقين وان هاتان الصحارتان الكبيرتان ستظلان تنزحان من الدار حتى تصبح وليس فيها لقمة لطفل ..

ولابد ان الحاج كريم تربع على السرير النحاس الكبير وطفق يكلمها ساعات عن الخبيز للسلطان وعن العيال والدار وعن البركة التى بسرها تسير هذه المركب الواهنة القلاع المثقلة بالاحمال تسير فى نهر الحياة بأنفاس أولياء الله .. كلاما عذبا مؤثرا وهى متقرفصة على الحصير عند أقدام السرير ، عنيدة لاتلين تلقى بتعليقات جافة مقتضبة عن رعا طنطا وشذاذ الخلق الذى يلقى فى افواههم بقوت العيال ..

فى الزمن الماضى كان يعصف بها اذا عارضته فيما يريد وكان عراكهما يرعبه فيصرخ مذعورا ويحمله الناس بعيدا حتى ينجلى العراك .. لازالت اثار هذا الخوف فى نفسه مثل آثار جرح اندمل ، حزين قليلا من اجل أبيه لم يعد يعصف بها كما كان يفعل فى الماضى لانت شراسته امام عنادها أو اذعانها المكره الذى ينتظر الفرصة ليعلن الرفض .

سنين طويلة والعالمان لا يلتقيان .. عالم الحاج كريم المحلق على اجنحة الكرامات والبركة والبذل للاخوان كخير سبيل لتكثير القليل ونبريكه ، وعالمها المحدود بالجرار والقدور ومخازن الحبوب تخفى امرها اذا امتلأت لكنها تظل تدمدم غاضبة اذا نقصت أو فرغت ..

انها تحارب بقامتها القصيرة المكينة ووجهها الأبيض المستدير الجهم ، وعيونها الضيقة التى تحدق دائما فى الأرض ، تحارب ضد شيء ما خرابا محققا تتوهمه قادماتصوره فى كلماتها وأوامرها الحازمة للبنات وتحذيرهن من الاهمال والفوضى والقاء الفتات وتصوره فى نظرات عيونها السريعة اللماحة المفتشة فى كل ركن باحثة عن الخطأ أو التقصير .. وتلقى بتصورها كل آن فى وجه الحاج كريم مهددة ، أما هو فانه يبتسم ويهز راسه مطمئنا ان له ثقة غير محدودة فى الآت الكف التى تبذل لا تنضب أبدا ، والدار التى يأكل فيها الضيفان لا تخرب ابدا .. عالمان منفصلان ، زوجان غريبان ، كيف اذن يختلسان معا ساعات فى هذه الدار المزدحمة بالعيال والبهائم ليتضاجعا ويكدسا الأطفال كل عام بلا انقطاع ..

وقف عبد العزيز على باب غرفة المعاش تضيئها لمبة ذات شعلة او بالأحرى تصنع فرجات من الضوء بين مساحات الظلال التى ترسمها الأشياء المتزاحمة فى الغرفة وفى الفراغ فيما يلى السقف احبال معلقة عليها حزم البصل والثوم ، وفى الحائط

تدق أوتاد تعلق فيها الزنابيل ، بجوار الحيطان تقف مخازن الطين المليئة بالدقيق ، وفى كل شبر من ارض الغرفة توجد جرة أو قدر أو اناء أو قص أو صحن ، والغرفة مظلمة ليلا ونهارا ، فليس فيها نافذة واحدة ، لاأحد من الرجال يدخل هذه الغرفة ، ان فيها معاش أهل الدار وام عبد العزيز لاتتخلى عن مفتاحها أبدا ، كيف يتحركن داخلها دون أن يتعثرن فى شيء .

اللمبة ذات الشعلة ضوؤها هزيل وخط مستقيم من دخانها يصعد حتى يصطدم بالسقف وحولها على الأوانى والجرار ضوء أصفر شاحب وعلى الحيطان ظلال طويلة ، الأم تتحرك وعلى وجهها جدية صارمة والبنات حولها ينتظرن تعليماتها هؤلاء بناتها وبنات الزوجة الأخرى لكنهن يطعنها ولا يأبهن لأمهن كثيرا ربما يكرهنها لكنهن مرتبطات بها ، تعلمهن وتعصف بهن يمرمرن ثم يعدن اليها .. عيونهن ناعسة والظلال والضوء الشاحب يجعلها تبدو ناعسة أكثر اوامر أم عبد العزيز مهموسة مكتومة لكنها نافذة البنات يتحركن فى كل أتجاه بين اكداس الأشياء المتزاحمة جو حلم مفزع يدسسن ايديهن فى الجرار أو يرفعن على رؤوسهن الأوانى ليجلبن الماء .

دائما يبدأ الاعداد للخبيز قبل الفجر حينما كان عبد العزيز صغيرا كان يسمع حكايات عن قيام البنات مع الأم للاعداد للخبيز البنات يسعين فى ظلام الدار وسط كرات من الضوء يحكمن الطرح حول رؤوسهن يضحكن ضحكات صغيرة وتشجع واحدة منهن الاخرى ..

ـ اتجدعنى .. يمكن ينوبك من المولد حتة حلاوه ..

ـ حلاوه ؟.. حلاوة ايه ياختى ، والنبى ان ماخدونى معاهم ما آنى حاطه ايدى فى شغله فى الدار دى ابدا .

وتتدخل أم عبد العزيز حازمة وفى كلامها رنة ساخرة :

ـ خدى بالك من اللى فى ايدك ياروح امك .. حتروحى ياختى .. الدار كلها حتقعد عالجمل وتروح طنطا .. بس .. يالله ياحبيبتى ..

جلست أم عبد العزيز وسط غرفة المعاش وحولها شوالى اللبن ، تلك الأوانى المخروطية من الفخار التى يشخب فيها سيال اللبن من أخلاف البهائم ، بدأت تنتقى الشوالى التى حلب فيها اللبن من يومين أو ثلاثة تلك تتكون على وجهها طبقة كثيفة مختومة من القشدة ،تتحسسها بيدها فتتأكد من تمامها وتنحيها وهناك شوالى حلب فيها اللبن مساء أمس أو قبل فجر اليوم ومازال حليبا والرغوه على وجه الشليه هشه لم تختم .

بمهارة فائقه وخفة بدأت تجمع القشده من على وجه الشوالى المختومه وتلقى بها فى برام الفخار وعبد العزيز جالس على قفص مقلوب وجهه بين كفيه والبنات فى حلقة حولها يتأملنها ويتعلمن منها .. انها ابنة موظف فى الحكومة نشأت فى المدينة ، حينما تزوجها الحاج كريم لم تكن تدرى عن أمور الفلاحين شيئا كانت بيضاء وجميله لازال فى وجهها المستدير السمن الأبيض وسامة واضحة ، حاصرتها نساء دار الحاج محمد والد الحاج كريم وعزلنها وعايرنها بجهلها بشئون المعاش .. الآن هى مرجع النساء فى خفايا الدور وأسرار اللبن والطبيخ ..

يدها مليئه بكمية هائلة من القشده لوحت بها فى وجه عبد العزيز :

ـ شوف قشطة جاموستنا يا عبد العزيز .. صلاة النبى .. بسم الله الرحمن الرحيم .. سمى سمى يا عبد العزيز وصلى عالنبى ..

فخورة ببهيمتها تخاف عليها من الحسد ، أول ماجاءت هذه الجاموسه الى الدار ، لم تدع الرجال يدخولنها من العتبه الا بعد أن بيضت بالدقيق جبهتها .. فى الاول كان سمك القشده على وجه الشيله فى رقة ورقة السيجارة لكنها لم تسكت ظلت تجرب وتبحث عن «دولاب» جاموستها ، المراه الخائبه من لاتعرف دولاب بهيمتها ، جربت كل شيء حتى انكشف لها « الدولاب » واستقر تعلم البنات فى حزم ووضوح تغسل الشليه بماء الترعه بغلاف قنديل الذره ويلقى الغسيل بجوار حائط لا يلقى به فى عرض الطريق والا داسته الاقدام وفيه بقايا لبن من الحلاب السابق ، وهذا حرام يضر بالجاموسة ، ثى تكفأ الشوالى قائمة على جنوبها جهة الشرق حتى تجف ثم تدس فى فرن محمى بتبن الفول وروث الجاموس الجاف ، وحينما تخرج الشلية من الفرن يحلب فيهااللبن توا قبل أن يفسد ما أجرى من تطهير يشخب اللبن فى الشليه من اخلاف الجاموسه ويحدث خشيشا وتتكون الرغوة فائرة بيضاء دافئه تتجمد بعد ذلك وتصير قشده .. واذا توعكت الجاموسه أو نقص حلابها او فسد قشدتها فانها تقوم قبل الفجر وتجرى تدور على سبعة أبواب شرقية تترك عليها من قشدة جاموستها ، فاذا ما اشرقت الشمس وانصهرت القشدة وسالت فان لبن الجاموسه يسيل نهرا باذن الله أصبحت تعرف الاسرار كلها هذه الكاهنه الصغيره ليس هذا ما فتن الحاج كريم عندا تزوجها انما فتنه فتاة صغيرة جالسه على كتبة فى صالة بيت والدها فى المدينة تطرز قماشا فى يدها ..

أجتمع فى برام الفخار قدر كبير من القشدة جمع اللبن الرائب فى الشوالى فى وعاء كبير واللبن الحليب فى وعاء آخر اخذته احدى البنات الى الكانون حيث تشتعل تحته النار ليغلى عدد كبير من الشوالى اخذ الى خارج غرفة المعاش حتى يرد فى الصباح الى اصحابه لابد أن خبر خبيز المولد قد انتشر فى البلد فأتت كل

واحدة الى دار الحاج كريم بحلاب بهيمتها مشاركة فى زوادة مولد السيد ..

لابد ان الشيخة زينب ابنة المأذون قد عرفت موعد الخبيز من ام عبد العزيز ثم دارت به على الدور فرحة بأن لديها شيئا يقال هذه الفتاة العجوز ماكينة كلام لا تكف ابدا يضحك عبدالعزيز اذ يذكر كيف تأتى الى زيارة امه تجلس بجوارها على المصطبة وتبدأ فى الكلام لاتكف ابدا تنام ام عبد العزيز جالسة وتذهب البنات الى الغرف وتصبح الدار ساكنة اما هذه فلا تكف ابدا .. ماذا تفعل ان لم تتكلم ، لم يعلموها شيئا من امور المعاش قالوا لن تتزحزح فهى عوراء ضامرة قاتمة اللون قبيحة الأمر فى البنات غريب فابنة ام صباح الفقيرة تنمو كالزرع المبكر يمتلىء فرعها وتتورد وجناتها وينتصب ثدياها شامخين ولكن زينب هذه ابنة المأذون تضمر مثل نبتة فصلت عن امها قالوا لن تتزوج ، فوهبوها للقرآن حتى حفظته ودارت تقراه للنسوان فى المآتم ، ولكن ما ابعد الأيام بين موت رجل وآخر ماذا تفعل انها تدور على الناس فى الدور تلم ثوبها حذر النجاسة ثم تجلس وتبدأ تحكى لاشىء يوقفها .. كبر اخوتها وتزوجوا وأصبح لكل واحد دار ، وكبرت اخواتها وتزوجن وتركن الدار ، اما هى ففى غرفتها الصغيرة وخن ارانبها ، يلدن كثيرا هؤلاء الأرانب رعندها كيس قماش صغير تضعه فى صدرها عامر دائما بالنقود ولقد اقترض منها عبدالعزيز مرة خمسة عشر قرشا وذهب الى طنطا ليرى فيلما وكادت تكون فضيحة حين طالبته وعجز عن الدفع شبعت اخواته منه سخرية لولا تسامح الحاج كريم الذى دفع المبلغ مبتسما .

لابد ان زينب هذه دارت على الدور ناشرة ما تعرفه عن موعد الخبيز وامراة احمد بدوى تضع البذور مكان مايحفر زوجها بفأسه الصغير فى باطن الخط وتردم بيدها رفع رأسه ونظر اليها مبتسما فتورد وجهها خجلا وقالت له :

— حودى حلاب الجاموسة الليله دار عم الحاج كريم .. عشان الخبيز ..

وهو ابتسم قائلا :

— الله يبارك لك فيها ..

وفى المساء جاءت حاملة على رأسها حلاب جاموستها ، وفى يدها ابنها الصغير عوض الله به عليها من صغيريها اللذين ماتا فى وباء الكوليرا ، متوردة الخدود نضيضة الثنايا قبل عبد العزيز خدود ولدها . ياما جاءت بهذا الولد وهو رضيع الى ام عبدالعزيز تبكى والولد يصرخ ويتأوه وام عبد العزيز تضعه فى حجرها وتتحسس جسده من تحت ثيابه وتحرك اعضاءه وتجس جسده ثم تطلب بيضة تكسرها فى يدها وتسرب بياضها من بين اصابعها وتستبقى صفارها فى راحة كفها وتضعها على جسد الولد العارى تماما ، تدحرج الصفار على جلده القرمزى وتدور بهذا الصفار مدحرجا على كل جسده وفى مكان معين ينفجر فتكبسه على ذات المكان بالردة وتربط عليه وفى الصباح يكون قد برىء .. لابد انها مدت يدها بحلاب جاموستها مكسوفة الى امراة الحاج كريم ثم أنصرفت مسرعة ..

ضحكت احدى أخوات عبد العزيز وهى تقول له :

— عارف داهه شلية مين ؟ شلية روايح ..

وضحكن جميعا فرحات كأنما عثرن على صندوق ملىء بالأشياء اللطيفة .. نعم فسيرة روايح يمكن ان تسليهن الى الصباح اكيد هذا اللبن حرام ليس من المعقول ان تسرق شلية لبن ، لكنها على الأقل قدمت لجاموستها عشاءا حراما من حقول الجيران .. لكن السيد البدوى واسع البطن لا يهمه الحرام فان امراة سرقت دجاجة لتذبحها لأولادها وعند الكانون لم تجد الدجاجة المذبوحة

ووجدت « الأقرع » قابعا ينظر سألت عن الدجاجة فتح فمه نظرت فى داخل جوفه وجدت بحرا شاسعا على وجهه تعوم الدجاجة المذبوحة ، ابتلعها حتى لايسمن الأولاد من طعام حرام ، فيصيرون قساة أشقياء ..

— فيه واحد فى بطنه بحر .

— ايوه .. مش بيقولوا : يا بحر طامى ياسيد يابدوى ..

— بحر طامى يعنى .. يعنى ..

— ماتقعدش تقول يعنى يعنى .. هى الحكايه كده وخلاص .

وفى طنطا على اى حال ناس تاكل الزلط ، سيأكلون هذه القراقيش ولو عجنت بالكيروسين .. يضحكن ، ويضحكن على اهل حارة الزعايرة حيث دار روايح، انهم يمسكون قلوبهم بأيديهم هذه الأيام فان سفرة العايق الى طنطا سوف تكلفهم كثيرا .. يحكون عن ولدى « طراوة » اللذان يعيشان فى دار واحدة ، وكان عندهما ذكر من البط هائلا له عرف قان كلما خرج أمام باب الدار يخطر مباهيا ويفح بقوة تكلما عنه حالمين ..

— ادخل الدار يا سبع .. صلاة النبى من العين ..

— ليلتك حتبقى فل ..

أيام طويلة والدكر العزيز يطعم ، يدس فى حوصلته الأذرة والفول ، حتى عميت عيناه من سمانته ثم فجأة اختفى ، بحثوا عنه فى كل مكان هم يخمنون طبعا أين هو لكنهم يبحثون لعل وعسى .. ثم اذا به خارجا يخطر ويفح من دار روايح وولدى طراوه جالسين على مصطبتهما امام باب الدار ، يودان لو أخذاه الى دارهما لو قتلا روايح .. لكن من يستطيع ؟ لا رجل فى البلد يقدر على المجاذفة انها عندئذ تقبض على خصيته حتى ترغمه على

الركوع على ركبته وتجعله فرجة لعابرى السبيل يقولون سوف تموت يوما وينبت الريش فى وجهها بما سرقت من طيور كما حدث لأمها التى كانت لصة اكثر خطورة ومهارة الف مرة من روايح .

لكن البنات اذ يتحدثن عن شوق .. الحاجة شوق ، حلاب جاموستها ملء شلية هائلة مختوم بطبقة كثيفة من القشدة .. اذ تتحدث البنات عن الحاجة شوق يكن مبهورات واسعات العيون بالاعجاب وعلى أطراف شفاههن ابتسامات خبيثة فرحة ..

– عينى على شليتك يا حاجة شوق ..

– عندها جاموسه مفتريه ..

كل شىء فى دارها الكبيره كتير ، مات عنها زوجها فقامت بمعاش الدار ورعاية الغيط بهمة الرجال وهى بين عيالها .. الأب والأم .

واذ يزورها الحاج كريم يهتف مناديا : يا ستار ..

وتخرج اليه طويلة ناهضة الصدر كأنما لم تلد ولم ترضع .. واسعة العيون .. سمراء ندية الوجه ضاحكة ..

– اهلا بالحبايب .. مرحبه يا حج كريم .. رجل عزيزه ..

ويترك لها يده تقبلها مرتين وثلاثا ويربت على كتفها ويقبل راسها .. يجلس على مصطبة وسط الدار فيما يلى الباب وتجلس هى على الأرض بين يديه تنكش بعود فى يدها تحكى ، وينصت الحاج كريم ، كلامها مرتب وهادىء ، وحينما يتكلم الحاج كريم تنظر اليه ضاحكة العيون ..

احيانا يتمنى عبد العزيز لو كانت الحاجة شوق هى امه .. حينما كان طفلا يذهب مع أبيه الى دارها لتضمه اليها ، لازال

يحس حنان ضمها له لا يذكر ان أمه ضمته أو دللته كطفل ، طول عمرها جهمه منهمكه فى شغل الدار ، وبالليل تنام كالحجر من فرط التعب ..

حينما يعود الحاج كريم الى الدار يحس عبد العزيز انه مشتاق للكلام الودود ، ولكن امراته تثير النكد وتتكلم بعصبية عن الخراب المحتوم ، ما اغرب ما تكلمه شوق وتضحك عيونها فى وجهه ، لقد ذهبا الى الحجاز معا ، كانا فتيين يقومان على خدمة سائر الحجاج حبا وكرامة لا يفتآن يتكلمان عن هذا ، ويهز الحاج كريم راسه مؤمنا وهى تقول له :

– ربنا مش هيفضحك أبدا يا حج كريم .. بيتك انشاء الله هيتنه مفتوح ..

البنات يعرفن ميل الحاج كريم الى الحاجة شوق وعبد العزيز يعرفه يبتسمون فى خبث وتواطؤ وبحزم تامر أم عبد العزيز بترك الثرثرة والالتفات الى مافى الأيدى ..

طشت كبير ملىء بالدقيق الأبيض المنخول المتكوم هشا ناعما تقوم أم عبد العزيز الى جرة الملح تدس يدها وتستخرج الخميره ، هنا تحفظها ، لا تفرط فيها أبدا تضعها فى العجين وتأخذ منه قطعة بدلها تحتفظ فى جرة الملح ، وهكذا فان هذه الخميرة المبروكة تنتقل من عجين الى – عجين منذ متى لا أحد يعلم لاتعيرها لأحد أبدا تحيطها بالأسرار والغموض ، اذ ابتها بماء دافىء فى اناء صغير ، حفرت حفره عميقه فى الدقيق الأبيض ثم صبت الخميره الدافئه فى الحفرة باناة وقداسة وارتجاف وهى تبسمل ، البنات حول طشت الدقيق على وجهن اهتمام غير عادى يبسملن هامسات بشفاه مرتجفة وسائل الخميرة الدافىء ينساب فى حفرة الدقيق حتى عبد العزيز نفسه بسمل باهتمام ، بنت واقفة بين يديها اناء الحليب المغلى تدفق سيل اللبن يخرج منه البخار فوق الخميرة فى

الحفرة التى فى الدقيق حينما افعمت الحفرة باللبن الكبين عليها يعجن العجين بأيديهن ، الأذرع تدك الى المرافق ثم تخلص بصعوبة الكل يعمل .. الماهرة تضحك من الصائبة وتعايرها الخصل تتدلى على الجباه ، الضحكات والأنفاس المبهورة وصوت أذرع ترتطم بالعجين أطواق الثياب تبدى الاثداء الصغيرة والحلمات السمراء الدقيقة ، حمى العجين تميتهن من الضحك ..

— بس يا ست انت وهى .

يخلصن أذرعهن ويمسحن ما عليها من عجين وتسرى ام عبد العزيز وجه العجين بيدها .. وهى تبسمل والبنات مجهدات يتنفسن بصعوبة غطين طشوت العجين ورصت وأحدا أثر واحد، خبزا وقراقيش سوف تخبز وتملأ بها صحارتين تحملان على جمل عمر فرهود وترسل بيت الخدمة فى طنطا .

الآن لاشىء يعمل سوى انتظار اختمار العجين ، جلست البنات كل واحدة فى مكانها بين أكداس الأشياء صامتات واللمبة ترسل على وجوههن الضوء الخابى والظلال ، خرجت أم عبد العزيز ربما لتطمئن على الصغار النائمين بالغرفة الأخرى أو لأى شىء آخر فهى ابدا لا تجلس فى مكانها ساكنة تنتظر .. طشوت العجين مغطاة بالثياب ، ملايين البكتريا تعمل عملها الآن فى العجين .. أو سر خميرة أم عبد العزيز .. ان الحياة الكامنة الغامضة فى جوف العجين تخلق جوا غريبا فى الغرفة ، البنات مائلات الرؤوس على الأكف يتكلمن مخافتات كدجاجات يبتن فى خن .

ما الذى جاب سيرة امراة عمر فرهود الجمال ، المرأة الطيبة الدقيقه الحجم الناعمة الصوت . كان أبوها فقيها ، مات تاركا لها ستة قراريط فى الحقل وترك فى صدرها.كلام الله .. وترك لها كتاب أبى محشر ..

ذلك الكتاب الغريب الذى يضم بين دفتيه صنوف السحر والعمل ، من وصل الى سره وفك رموزه سخرت له الجن وأصبح قادرا على أن يفعل مايشاء ، يوقع العقول فى الخبل ويزرع كراهية النساء فى قلوب الرجال ، ويربط الذكور عن الاناث ، ويستطيع أيضا أن يبرىء المرضى ، ويداوى تفزع الأطفال وصراخهم فى الليل ، لقد رأى عبد العزيز هذا الكتاب ورأى فى صحائفه الصفراء الجداول المقسمة فى خاناتها الرموز والأشكال الغريبة وقرأ فيه عن مواد تمزج وأشياء تحرق ومسامير تدق ، وأشكال من الورق على هيئة الرجال والنساء تخزق عيونها بالأبر ولفائف من كل شىء عظام الموتى وريش الطيور وجلود الثعابين تدس تحت الاعتاب ليخطو من عليها من يراد به الشر والخير .. وقرأ كل هذا عبد العزيز وهو لا يصدق شىء منه ولكن الرعب يلابسه ويصك قلبه وتتكلم احدى الاخوات — خائفة واسعة العيون غارقة الملامح فى الظلال والضوء الشاحب ..

— بس الوليه دى ما بتعملش بالشر ابدا .

انما تذهب اليها النساء بشىء من ثياب عيالهن فتقيس هذا الأثر بالشبر والقيراط وتعقد فيه العقد ثم تقيس العقد وتقرا التعاويذ والتسابيح الى أنتعرف تماما علة المصاب فتصف الأحجبة والبخور وما يشرب وما يدلك به الجسد .. وهكذا هى لا تعمل عملا يضر بأحد .. تهتف احدى البنات ضاحكة :

—ماسمعتوش على عمر فرهود وعلى اللى جرى له ...

وتهتف البنات فى نفس واحد .

— ايه .. ؟

انفرد مرة بكتاب ابى محشر ، اراد ان يجرب ما فيه طفق يقرا التعاويذ دونما معرفة بما فعل فان هو الا جمال لا خبرة له

بشيء من أمور الكتب ، وتصادف أن ما قرا كان تعاويذ تدعو جن الخدمه الى الحضور فحضروا بين يديه وانتظروا أن يأمرهم بشيء او يصرفهم لكنه أرتبك ولم يفتح الله عليه بشيء يقوله ويبدوا ان الجن قد اغتاظوا فقلبوه زرع راسه فى الأرض واشرعت ارجله الى السقف ، وسقط ثوبه عن عورتيه ، وغرقت البنات فى الضحك والأخت تحكى عن دخول امراته عليه وكيف تصرفت بسرعة فصرفت الجان وانقذت عمر فرهود .. هو هكذا يقع دائما فى الخطأ وهى به عطوفه يلجأ اليها كالطفل ..

لكن احدى البنات كانت ساكته لا تشارك البنات ضحكهن واسعة العيون شاحبة الوجه بالخوف ، قالت فى صوت سليب مرعوش ..

ـ انا خايفه

شمل الصمت الجالسين جميعا تسمع عبد العزيز انه لا يصدق بالعفاريت لكن الخوف يتسلل الى قلبه ، خارج غرفة المعاش خارج الدائرة الصغيرة من الضوء الشاحب يقبع الظلام والسكون ، السكون المليء بالهمسات الغريبه .. حاول أن يسيطر على مخاوفه صرخ فى اخته ..

ـ خايفه من ايه يا بت

ولكن البنت تئن كقطة مريضة وعيونها زائغة ..

ـ انا خايفه

بدأ عبد العزيز يرفع صوته بالكلام حتى يهزم مخاوفه هو

ـ كلام فارغ .. قولة عفاريت وكلام من ده

وتجاسرت أحدت البنات لكن رنة صوتها كانت تشوبها الرجفه

ـ دا بنى آدم هو اللى عفريت

وبدأت احدى البنات تحكى فى صوت هامس لا يكاد يسمع

ـ عاملين لمرات محمد كامل عمل

وشمل السكون حتى لا تسمع نأمه

ـ كابين لها على لوح كتف عيل غريق

بلعت ريقها

ـ ومدفون فى تربة مجهوله

بدا الخوف مرة اخرى يزحف على قلب عبد العزيز والبنت تحكى

ـ كل ليلة بالليل بتطلع تدور فى الترب

صاح عبد العزيز ليسكت البنت ا لتى تحكى

ـ بلاش خرافات .. طول عمرك كدابه

والبنت تلح

ـ آى والنبى .. بيقولو كده

سمع صوت ام عبد العزيز تنزل السلم ، طرد الصوت أشباح المخاوف ، ودخلت الفرقة كشفت عن العجين اختمر وفاض من الطشوت ..

ـ الاقرع نفخ فيه

ـ مستعجل اوى عالزواده تروح له

وتكلمت أم عبد العزيز بحزم

ـ يالله يا ستى انت وهيا .. النهار ملا الدنيا .. عاوزين نشوف حالنا ..

خرج عبد العزيز الى وسط الدار ، معتم لكن النهار يملأ السماء انطلقت الحمائم والدجاج والبط من الاختان واقبلوا يلقطون ماتلقيه اليهم مراة الحاج كريم الأخرى من حبوب ، ضحك عبد العزيز دائما يوكل اليها أقل أمور الدار شأنا ، كلمتها ام عبد العزيز .

— بعد مايشربوا احبسيهم تانيعشان مايلخموناش فى الخبيز .

واطاعت صامته بعد ذلك سوف تكنس الدار ببطء وسكون . عبد العزيز يتأملها والضحك يغالبه اذ يتذكر ماحدث فى سفرتها الأخيرة الى أهلها فقد أهدوها ذكرا من البط وضع على الكانون من الصباح الى المساء والنار مستعرة تحته ، وحينما تقدم المساء فرش الحصير فى وسط الدار ووضعت الطبلية الكبيرة وجلس الحاج كريم فى الصدر وحوله عياله وانفاره ، وجيء بالأرز والفت والطبيخ ، لكن الذكر لم ينضج بعد والمراة غارقة فى الخجل قام بنفسه الى الكانون وجس اللحم ، فرد اصبعه كأنه المطاط تناول السكين وشققه وأوصى بأن يوقدوا عليه مرة أخرى من باكر .. عبد العزيز يضحك منها هى لاتوفق فى شيء تعمله أبدا . لكنها طيبة وديعة ودودة ، تزوجها الحاج كريم بعد موت أم رشيدة ابنة عمه ، وأحب زوجاته اليه بعد أن ماتت ذهب الحاج كريم الى اخواله زوجوه هذه .. كانت أم رشيدة أحب الناس الى قلبه بعدها لم يجد فى الزواج سعادة ..

زعقت أم عبد العزيز فى صغرى البنات :

— روحى يا بت نادى أم صباح ..

— وانادى رشيده كمان ..؟

— ونادى رشيده كمان يا ستى ..

أم صباح هى الأجيرة التى تقعد أمام الفرن فى الخبيز وستأتى معها ابنتها الفارعة الشامخة الاثداء والتى تثير عبد العزيز لن تفلت منه اليوم .. وستأتى رشيدة وتميتهم ضحكا بسخرياتها سيكون يوما غريبا يوم الخبيز هذا زياط وضحك تقوده رشيدة ، يا لها طول عمرها مريضة العينين أعفاها هذا من شغل الدار ، كانت تقضى طول النهار عاكفة فى غرفة على السطوح نظيفة الثياب

ناعمة اليدين ، فهى لا تشتغل وتسافر كثيرا الى طنطا لعلاج عينيها وتقيم أياما طويلة عند أقارب امها .. تعلمت من بنات البندر أشياء كثيرة ولبست الثياب البندرية وحلمت بالزواج من افندى يرحل بها عن البلد وتأتى فى الأعياد فقط تنزل من العربة وتهتف بأولادها النظاف المؤدبين :

— بوس ايد خالتك يا ولد .. بوسيايد خالتك يابنت .

لكنها تزوجت من فلاح ضخم الجثة يغزل الصوف ويصنع منه جلابيبه وطواقيه وملافعه ، تزوج قبلها من امراة تركت له بعد موتها أولادا كثيرين ، قرع الرؤوس قذرين ، يوم زفافها كان عبد العزيز طفلا رأى العريس الهائل يدخل فى جلبابه الصوفى منتصب حول جسده كأنه مصنوع من الخشب ، وهو يمشى يخب فيه عندئذ انفجر عبد العزيز صارخا .

الآن هى لا تكف عن الشغل فى دارها وكلما افاقت من أعباء الدار سخرت من كل شيء وأماتت من حولها ضحكا ..

جلست احدى البنات امام الفرن تجرف من داخله التراب الذى تخلف فيه عن أيام خبيز سابقه كان هذا الفرن فى الليل قابعا فى صدر وسط الدار بفتحتيه الهائلتين كتلة معتمة مخيفة بعد أن سوف تتوهج فيه النار وحوله النساء صاخبات ..

وضعت الطبلية الكبيرة أمام الفرن فرشت حولها قطع الحصر القديمة والأجولة والزكائب وضع طشت العجين بجوار الطبلية ، وجلست اليه أم عبد العزيز فرشت الطبليه بالرده وبدات هى تقرص من العجين قرصات وترصها واحده بجوار الأخرى على الطبليه ..

دفعت أم صباح البا بداخلة ووراءها ابنتها الفارعة صباح ، صفق قلب عبد العزيز فى صدره ، جلس على المصطبة ساكنا

جذرا يرقب فى هدوء .. هتفت ام صباح :

– صلاة النبى أحسن بسم الله الرحمن الرحيم .

ثم توجهت مباشرة الى الفرن وجلست امامه وكلمتها ام عبد العزيز :

– ياالله يام صباح سمى كده وونعى ..

البنات جالسات حول الطبلية ، وكذلك امراة الحاج كريم الأخرى كل واحدة منهن فى يدها مطرحتها .. سكن الجميع .. وبدات شفاههن ترتعش بالبسملة عرضت ام صباح عود حطب على شعلة اللمبة وهى ترفع صوتها :

– بسم الله الرحمن الرحيم ياهادى يارب .

قذفت بالعود المشتعل الى الحنية وبدات تناوله عودا من الحطب وراء عود لكى تزكى النار ، البنات تتناول الواحدة منهن قرصة العجين وتدقها بكفها على الطبلية حتى تدحوها قليلا ، ثم تنقلها على مطرحتها المفروشة بالردة وتظل تضرب وجه الرغيف براحة كفها وتحركه على المطرحة ومساحته تكبر رويدا رويدا حتى تكاد يغطى مساحة المطرحة نتطيره فى الهواء نافخة الردة من تحته وتتلقاه عليها مقلوبا وتعيد الكرة ضاربة وجه الرغيف بكفها حتى تفيض أطرافه من حواف المطرحة ..

امتلأت حنية الفرن بنار مستعرة وتناولت أم صباح أرغفة البنات على مطرحتها طويلة اليد ، ثم زجتها على عرصة الفرن هناك ينبسط عليها رقيقا ابيضا ثم تدب فيه الحياة وينتفخ ويتململ فى مكانه حتى ينضج ويتورد وجهه فتسترده المراة بعودها الحديدى ..

بدأ دخان الفرن يعبق فى وسط الدار حتى كاد يدارى

الحمائم على البنانى تنكمش على نفسها ثم تطير بعيدا عن الدخان فى اعالى السطوح والعصافير فى عريشة وسط الدار تتقافز وتزقزق فى حركة لا تكف وذرات الدقيق تطير فى جو وسط الدار ساخنة من سخونة الأرغفة الخارجة من جوف الفرن صفق المطارح وازيز الحطب المحترق وثرثرة البنات يجعل الأم ترفع صوتها اذا أرادت أن تصدر توجيها حتى تكاد تصرخ ليسمع كلامها وبين آن وآخر يفتح الباب الكبير وتدخل امراة أو صبية تصيح باعلى صوتها :

– بسم الله الرحمن الرحيم خبيز الهنا ياولاد .. كل سنه وانتوا طيبين ..

وترد البنات تحيتها فى كورس ضاحك صاخب ويدعونها للمساعدة :

– مدى ايدك والنبى علشان ينستبارك .

وترد القادمة مجاملة :

– مبروك باصحابه وباللى رايح له ، نظره ياسيد ربنا يخلى عم الحاج وميقطعلوش عاده .. أبدا ..

تم تخلع نعلها وتأخذ لنفسها مطرحه وتجلس الى الطبليه .. ويدخل صوتها ضمن جوقة الضجيج والضحك والزياط والثرثرة .. لقد اتت لتأخذ لدارها نار ..

– والنبى العيال فى الدار لوحدهم .. وورايا شغل الدنيا ، ومانى فاضيه ابدا ..

والبنات يغرينها وحمى الخبز تأخذها ..

– ياختى اخبزى رغفين .. دا خبيز سيدنا السيد ..

تخبز رغيفا وآخر حتى تكاد تنسى نفسها .. ثم تهب واقفة

تنفض الدقيق عن حجرها وتشعل لمبتهـــا وتأخذها وتفر فرارا وصياح البنات وضحكهن يلاحقها ..

عبد العزيز يرفع عينيه عن صباح ويداها تعملان عملا دائبـا فى الرغيف على المطرحة ثدياها يرتجفان تحت جلبابهـا الخفيف حمرة خدودها قانية بالجهـد تحت ذرات الدقيق البيضـاء التى تتجمع على وجهها ورموشها ، فتحة الفرن تستعر فيها نار حمراء لهابة أم صباح تناولها رغيف اثر رغيف ، البنـــات غارقات فى الضحك والثرثرة هن جميعا يكون آلة صاخبة دائبة الأذرع يهب منها هباء الدقيق والأم جهمة ســـاكنة تقرص العجـين وترص القرصات على الطبلية بلا انقطاع ..

دفع الباب فصار منفتحا ودخلت الحاجة شوق طويلة ضاحكة رائقة فى ثوبها الحريرى الأسود

ــ بسم الله الرحمن الرحيم .. صلاة النبى .

ارتفع ضجيج بنات الحاج كريم وصاحباتهن وقف عبد العزيز من مجلسه على المصطبة فيما يلى الباب مباشرة ، ضمته الحـاجة شوق الى صدرها ناعمة الوجه والثوب ورائحة صابون حمامهـا المعطر ، تخلص من عناقها مرعوبا من شىء عارم يجرى فى عروقه .

ــ ازيك يا حبيب عينى .. يخليك لابوك يامنايا ..

ثم مشت تخطر مباهية الى يمة الفرن والبنات :

ــ عواف ياصبايا .. خبيز الهنا .. كل سنة وانتوا طيبين .

تشتعل الهيصة والزياط .

ــ والنبى ياخالة الحاجه ما الصبح نقول ماجتش ليـــه .. تعالى هنا جارى .. عشان يستبارك .

ــ هو انا ياولاد بقيت اعرف اعمل حاجه .. العواف يا ست أم عبد العزيز ..

ــ اهلا ياختى .. يزيدك عافيه ..

وتبادلا سلاما دون قبلات .. وتواصل حديثها للبنات .

ــ البركه فى الصبايا .. احنا خلاص .. ايامنا راحت .

وتصرخ البنات مستنكرات وأم عبد العزيز ساكتة مرهفـة الحس للمباهاة الخفية فى نبرتها :

ــ ياحومتى ..! ايامك راحت ! ! دانتى شـاطرة الشاطرين يا حاجه ..

وتضحك راضية عن الثناء وتجلس الى الطبلية بثوبها الحريرى وتتناول المطرحة وتشرع فى الخبيز وعبد العزيز يتأمل أكتافهـا وساعديها ، ليس فى النساء مثلها أبدا ..

انا قلت مايفوتنيش خبيز السيد البدوى .. اخبز رغيف ولا اتنين .. ان طلعوا وحشين ابقى آكلهم آنى ..

وتغرق فى ضحك مكركر مسرور .. ويقارن عبد العزيز بينها وبين صباح . هذه هى الاكتمال الرائع ، وتلك هى البداية المزدهرة .. البنات يصحن مستنكرات :

ــ وحش ؟ عمر عيشك ما يبقى وحش ابدا .. طب هنـطلع رغيفك ونشوفه .. يا ام صباح رغيف الحاجه آهه .. خــدى بالك منه .

وتتابع العيون رغيف الحاجة وهو ينفرش على العرصة رقيقا أبيضا .. ثم يتململ وينتفخ هائلا كديك مزدهى بنفسه وتصيـح البنات مهللات وتضحك الحاجة معهن ..

— صدفه ياولاد .. ربنا مش عاوز يكسفنى ..

لـكنها تحل طرحتها ويبدو منديل راسها الـكحلى على شعرها المسبول اللامع وغديرتيها الـكبيرتين سارحتين على ظهرها مربوط فيهما مفتاح صندوقها وتشمر عن ساعديها تاركة نفسها مـــع حماس الخبيز ..

ويصر الباب الـكبير مرة اخرى لتدخل منه رشيدة صـــائحة باخواتها :

— يا قللات الخير ..

— هيــه .. أم كريم أهه ..

وتكتشف عبد العزيز على المصطبة ..

— يا حبيبى ..

وتضمه الى صدرها فهى تحبه بشكل خاص وهو يضمها بقوة قامتها القصيرة واكتافها الضيقة ..

— ازيك يا عبد العزيز .. اخواتك قللات الخير دول .. بقى ياولاد مش تقولولى على بيات عشان أعرف آجى بدرى .. سامعه حسك من بعيد ياحاجه شوق .. عواف ياخالتى ..

تلتفت الى أم عبد العزيز تسلم عليها وتقبل يدها قبل كل شيء — رشيدة لاتهمل الأصول أبدا — ثم تسلم على الحاجة ..

— سامعه حسك من بعيد ياحاجه .. قلت هو الخبيز من غير الحاجه شوق يبقى له معنى ..

— يخليكى يا نور عينى ويحلى لك لســـانك .. بنت ابوكى صحيح يا رشيده ..

هكذا يقول كل الناس عن رشيـــده اثيرة أبيها .. نزعت

طرحتها ودخلت فى حومة الخبيز ، واذا كان المجلس فيه رشيدة والحاجه شوق فهو أحلى المجالس ، وهذا خبيز السيد البـدوى وبعد أيام سيكون المولد ..

تتوسل احدى البنات ..

— رشيده .. والنبى تخلى ابوكى ياخدنا معاه يارشيده .. هساعدك فىطبيخ المولد . والنبى يارشيده ، مش حخليكى تعوزى حاجة ابدا ..

— من عينى ياحبة عين اختك . حاضر ياختى ..

— وانا يارشيده ..

— حاضر ياروحى ..

— وانـــا .. !

وتتدخل الحاجه ضاحكة :

— كلكم ياولاد .. ليه .. دا فرح .. من السنه للســنه .. نظره يابو فراج .

وتزقطط البنات فرحات وتطير المطارح فى الهواء وتتشقلب الأرغفة عليها فى خفة ، ومن الحر والجهد والسرور تخلع الحـاجه جلبابها الحريرى وتبقى فى قميصها البمبى ، وتتلوها البنـات ورشيدة ، قمصان لبنى وبمبى واسعة الصدور ، قصيرة الأكمام ، ما الخجل ..؟ لايوجد غرباء وعبد العزيز لا خطر منه ، وان كانت ام صباح تنظر ناحيته محذرة ..

— ماتآمنش للدكير ولو كان صغير .

ينكس راسه مكسوفا وتضحك منه اخواته ثم يرفع عينه ليرى ساعدى الحاجة وصدرها ونحرها وضحكتها والدقة الغائرة فى ذقنها .. لـكن قميص صباح المهلهل مقطوع عند صدرها ويبرز القطع قمة ثديها ســمراء دقيقة الحلمة ، صرف نظره سريعـا

وقلبه يكاد يخترق صدره ، يعود .. تلتقى عيناه بعينى صباح تسرع يدها لتضم دفتى القطع على ثديها ثم تسرع يدها الى الرغيف تاركة القطع ويقفز الثدى خارجا من القماش الواهن ولا يستطيع عبد العزيز ان يحول بصره وتستمر اللعبة وسط الضجة وهياج اللهب وصفق المطارح وذرات الدقيق الساخن الطائرة والضحك والزياط والثرثرة ، تستمر اللعبة .. تضم القطع على ثديها ، ثم تسرع يدها الى الرغيف فيقفز الثدى خارجا ، وعبد العزيز مبهور الأنفاس يكاد يموت فى مكانه .

ــ والنبى تليقى فى الموده يارشيده ..

وتتأمل رشيدة ذراعيها المتدين الى المطرحة تتأمل فى تباهى ساخر وتلعب حواجبها فوق عيونها المريضة وتمصمص شفتاها ، والبنات مائتات من الضحك عليها تهتف بهم مصطنعة تأنيبهم ..

ــ بتتحكوا على ايه .. والنبى احنا حلوين زى الورد .. بس مالناش بحت ..

ضحكهن .. وهمسات الحلقان الرخيصة وعقود العقيق الأثداء البكر ترفع صدور القمصان الرقيقة والحلمات منتصبة تحت رهافة القماش .. وعبد العزيز مربوط الى ثدى صباح الذى يبدو ويختفى ويرهق قلبه خفقانا .

ــ يلبسونا ويريحونا واحنا نبقى أحسن من نسوان طنطا .

وترد الحاجة :

ــ دكهم لهم تعويج شكل تانى ، ومهنكه شكل تانى .. حاجه فاضيين لها وأعدين لها ..

قالت الحاجة هذه الكلمة وهى تهز صدرها فيرتج ثدياها ..

وتدفع كتفها الى الأمام بطريقة فيها غنج أذهل عبد العزيز .. وصرخت له البنات مجنونات من السرور .. كيف تختزن الحاجة كل هذا الدلال وراء هذا السطح من الوقار والاتزان انه جنون الخبيز ، يوم غريب فى الأيام ، عبد العزيز يكاد يقفز على صباح ملتهما ثديها وشفتيها ، متى يرسلونها لتحضر شيئا لينفرد بها عبد العزيز ويفترسها ..

تلوح رشيدة فى وجه الحاجة بشوق مستنكرة قولها :

ــ عليهم وعلى ابراشهم والطاخهم وقلة معنتهم .

وترد الحاجة باسلوبها الجديد المكشوف المذهل :

ــ هيا الرجاله ياحبيبتى بتحب الا كده ..

« يا الهى ماهذا ياحاجه شوق » ..

امراة الحاج كريم الأخرى مفتوحة العيون ذهولا وام عبد العزيز لها قدرة تغيظ على ان تعزل نفسها عن كل هذا وتلاحظ الارغفة بعين صقر لا تسمح بتبديد شىء أو بتلف لقمة ..

تقول رشيدة شامتة :

ــ يحبو زى ماهم عاوزين .. مشوار لحد طنطا ومسيرهم راجعين لنا تانى .. وراهم لحد مايرقدوا .. يجيبوها من قصيرها بقى ، والبصه البرانيه مالهاش لزمه ..

وتموت البنات من الضحك على جراة رشيدة وتقول واحدة منهن موغلة فى الجراة

ــ نسوان البندر حلوين .. ورجالتهم كمان حلوين ..

ويشتعل الضحك وتقو لرشيدة :

ــ والنبى يابنتى عمرك اطول من عمرى .. ياما نفسى فى واحد افندى يرد روحى ..

عينا عبد العزيز دائرتان كعينى قــط حول حلقة النســاء المهتاجات يحسب لـكل حركة حساب ، الآن سترسل صباح الى غرفة المعاش المعتمة لاحضار مزيدا من الدقيق ، قفز متسللا ولبد فى العتمة وراء الباب .. حينما تجاوز قدها فتحة الباب دفعـه بقدمه فانغلق تقريبا هو وهى فى العتمة دقات قلبهما وانفاسهما المبهورة أسرعت يده رافعة ذيل قميصها عن ظهرها والتف ذراعـه حول عرى خصرها وضمها اليه بقوة انطرح راسها الى الخلف .. وسقط اناء الدقيق الفارغ من يدها الممدودة على آخرها .. ثدياها تحت انف عبد العزيز بيده الأخرى ، خلع عنها قميصها تماما .. هزت راسها لتخلصه من طوق القميص سقط مكتوما على الارض مرغ عبد العزيز وجهه بقوة فى طراوة ثديها وراسها مطروح للخلف وهو بكلتا ذراعيه يضم جسدها العارى اليه وهى تتملص فى يده كالسمكة ، اعتصر خصرها حتى انثنت ساقاها ورقد عليها مفترشا جسدها العارى على قميصها الملقى على الأرض يمرغ وجهـه فى صدرها ويعضها كقط مسعور فى شفتيها ورقبتها وحلمة ثديها ، وهى تتملص بقوة وسط اضطراب الأنفاس :

ـ لا .. لا .. ياسى عبد العزيز .. لا ..

مد يده لينزع عنها سروالها .. قفزت تحته بقوة خارقة رامية به من فوقها .

ـ والله العظيم هنادى لامك دلوقت آهه ..

هب من فوقها مذعورا من تهديدها ، مرتبكا تعثر فى اناء حتى كاد أن ينكفىء على وجهه ، هتفت وهى واقفة امامه عارية الا من سروالها :

ـ بسم النبى حارسك ياخويا ..

وقال لها مخافتا :

ـ مفيش حاجه ..

لبست قميصها وملات الاناء بالدقيق وخرجت وهو جالس على قفص مقلوب يسترد انفاسه اللاهثة ..

حينما خرج وجدها قد انخرطت فى الخبيز تطير رغيفها فى الهواء بانفعال نسيت كل شيء ، اغتاظ ، جلس هامدا على المصطبة يتامل الخابزات وحمى الخبيز تسرى فى عروقه الى مخ راسه ، وحلمة صباح تتقافز أمام عينيه ، لاشيء يشبع جوعه أبدا ، جوع يجعله يبكى يريد قبلة وعناقا .. يستغرقان العمر لايفيق منهمـا أبدا .. اسند رأسه على الجدار وأغمض عينيه ..

سميره نازله على السلم ، فستانها طائر حول ســيقانها .. ضحكتها تفرش طريقها بالاشراق ..

ـ عبد العزيز ..

هتفت البنات :

ـ سميره .. سميره ..

نادت رشيده فرحه عاتبه

ـ اهلا سمرتى .. مش تقولى عواف ياعروسة اخويا

الخجل دماء حمراء تكاد تقفز من وجه سميره كل الناس تقول ان عبد العزيز سيتزوج سميره حينما يكبران ، قـام لها احضرت له كتابا كـانت قد استعارته منه وفرت هاربه ، تحط فى قلبـه احساسا خاصا ، حزنا خاصا ، دخل الى الغرفة ليضع الكتاب ، الاغلفه المغبره ، رواياته وكتبه ، حزنه الخاص الصغير المركون فى ناحية مغبرا متثنى الاطراف ، وتلك الوريقات الصغيره التى يكتب فيها بعض ما يعن له .. سميره .. صباح .. الحاجه شوق .. فى صدره جفاف لا يرويه نهر ..

وقف بباب الغرفة ، الان ظهر صباح ناحيته ، فتح الباب ودخلت امراة احمد بدوى .. وصديقه امراة محمد كمال ، وجهان وجه متورد يبتسم عن اسنان بيضاء نضيده ووجه اسمر ذابل واسع العينين فيه حزن خاص ..

ــ ربنا يعوض عليكى ياختى

تتقبل صديقه التمنيات ناكسه الراس تخبز دون أن تلتفت لأحد .. عبد العزيز يعرف انها تتعذب بهذا العطف لو كانوا يندمجون فى الخبيز ويتركونها ، لوحدها ، انها تخبز بانفعال تدعو حمى الخبيز لأن تأخذهن بعيدا عنها ، فقط جائت لتخبز رغيفين من خبز السيد لعل وعسى بركة الأولياء تخصب الرحم الناضب ، لكنهم يعذبونها بمصمصات الشفاه والتمنيات والدعوات، والاشارة عليها بالشيوخ والوصفات ..

ــ عمل لواحده صوفه .. تلبسها .. آى والنبى .. العاده ماجتهاش تانى ابدا .. صلاة النبى .. عندها ثلاثة دلوقتى ..

وامراة احمد بدوى خجله متورده الوجه ناكسه الراى تخبز باندماج ..

ثم تقفز روايح فجأة الى وسط الدار طويلة كالرخ ، طويلة الاطراف خضراء العينين تتلفت بسرعة غير عادية كالحداه .. انها كالحداة تماما ، تصرخ منفعله

ــ ازرغت ولا اغنى ولا أقول ايه بس ياخواتى .. عقبال الف سنة ويتن بيتك عمار ياحج كريم يارب ..

ثم تنقض على عبد العزيز تختطف يده فى يدها وترفع الاخرى لاعلى منذره

ــ باذن الله تصبح مدير

ويضج البنات بالضحك ، لايخفن منها ، تسرق الناس جميعا ما عدا دار الحاج كريم ..

ــ اقعدى ياخاله روايح اخبزى رغيفين

ــ مانيش فاضيه يابت .. بخبز لأبوكى محمد العايق .. زوادة المولد .. قراقيش بتخر سمنه بلدى كده .. رجاله مالهمش ضريب .. هما نور البلد .. من غيرهم تبقى كفره ..

وتضحك لها رشيده وشوق ويقولان فى نفس واحد .

ــ والنبى تقعدى ياروايح

فتح الباب على آخره ، دخل الحاج كريم ومعه أحمد بدوى والعايق والعراقى والأطرش ، سكت الضحك والثرثرة بحثت كل واحده عن طرحتها لتستر نفسها ..

ــ كل سنه وانتو طيبين يا ولاد .

ــ أهلا أهلا نور عينى

صاحت روايح تشير بيديها للعايق والحاج كريم ..

ــ أهــلا .. أهــلا ..

ثم شرعت تتقافز أمامهم راقصة والعايق يكركع بالضحك .

ــ بس يابنت الكلب .

اختطفت شليتها وخرجت تجرى دون مقدمات .. الكل فرح بالحاج كريم وجه رشيده مشرق .

ــ كل سنة وانت طيب يابا .. يخليك ويخلى رجالتك .

وأسرعت الحاجة وقد عاد وقارها وأشرق نور غريب فى وجهها .

ــ يتن بيتك ياخويا وما يقطع لكش عادة .

ويتهلل لها الحاج كريم .

ـ كل سنة وانت بخير ياحاجة .. يا مرحب .

عينا احمد بدوى على امرأته الخجلة تدارى وجهها بطرحتها العايق يكركع بالضحك والعراقى يستخفه السرور فيضع يديه حول فمه وينادى على المدد من السلطان ، تمتلىء الدار بالضحك والزياط وتصرخ البنات وراء رشيدة مستحلفات الحاج كريم أن يأخذهن معه الى فرح السلطان والحاج كريم يضحك ويقول .

ـ انشاء الله .. انشاءالله .

ثم يخرج ووراءه الدراويش .

غرفة المعــاش المعتمة عابقة برائحة الخبــز والقراقيش .. اللمبة ذات الشعلة ينتشر الضوء الشاحب والظلال أم عبد العزيز جالسهبين الأوانى والجرار وتحتتعاليق حزم البصل والثوموامامها أهرام الخبز والقراقيش وحولها البنات مجهدات ذابلات العيون تفرز الخبز واحدا واحدا ، تنفض عنه الدقيق بخرقة فى يديها وتنفى عنه التالف والمحروق ، تتركه فى جانب لن يأكله أحد ، ستعيش عليه هى لا شىء يلقى أبدا لن يرضى أحد غيرها بأكله .

أتى الحاج كريم ونظر فرحا الى أكوام الخبز والقراقيش ثم مضى يهز رأسه مسرورا مبتسما للبنات .

ـ كل سنة وأنتوا طيبين .

وترد أم عبد العزيز .

ـ حطينا عليه السمنه اللى حيلتنا .. طول السنة بقى ناكل طوب .

وجمدت البنات ناظرات الى الأم والأب فى انتظار العاصـــفة المقبلة ، لكن الحاج كريم يهز رأسه فى بأس ويخرج الى وسط الدار يلتفت الى عبد العزيز ..

ـ لمبة الدوار يا عبد العزيز .

ثم يمشى وئيدا خارجا .. الى الصحاب .. الى جلسة المساء .

الســــفر

لا يستطيع أن ينام ، يغمض عينيه لتهاجمه احلام يقظه غريبه ، بعوضه منقضه طنينها يدوى فى اذنيه والبراغيث تزحف على جسده تحت ثوبه القديم الذى يخصصه للنوم ، الوسادة تنضح ترابا يزكم نفسه ثم احلام اليقظه المهوشه الغريبة ..

انه الان ينام وحيدا فى هذه الغرفة على السطوح وجد سريرا صدئا قديما فى ركن من أركان الدار جاء به وأقامه هنا .. قالت له أمه ..

– تنام لوحدك يابنى .. حاجه تطلع لك ..

اصوات اصطكاك النحاس تاتيه من غرفة الحاج كريم التى تقع تحت غرفته تماما انه حمام الحاج كريم ، فاليوم سفرته الى طنطا .. يغمض عبد العزيز عينيه محاولا النوم فتهاجمه الاحلام الغريبه ، الصور تتمرد وتضخم تتخذ حجوما خرافية وأشكالا مهولة ، أفواه بشعة وأنياب تفرز القيح والسم وتقوّل أكثر الكلمات بشـاعة وكفرا .. يقبض بيده على عامود السرير النحيل الصدىء ويفتح عينيه .. لكن الظلام مطبق بلا رجاء .

على صوت اصطكاك النحاس فى الغرفه السفليه تترى صور من طفولته ، الحاج كريم عار تماما واقف على كرسى خشبى وسط الطشت والماء الدافىء يجرى على جسده من الابريق الفخار الاسود ينفخ الماء من منخريه بقوه ويدعو بأدعية حازمه فرحـه .. وعبد العزيز صغير قدر الكف لابد فى فرش السرير النحاس الشـاهق

الاعمدة والماء الذى يطير منه النخار يتدفق من ابريق الفخار الاسوَد المعلق والام مهوشه الشعر مفتوحة الصدر جلباب رقيق وحيد على جسـدها وكومة العيال على الارض كومة عرى وعرق ورائحـه زاعقـه ..

يحاول عبد العزيز أن يستغرق فى النوم لكن الاشكال تتلوى وتتخذ اوضاعا مرعبه وتصرخ ويسيل منها القيح والسم .. يفتح عبد العزيز عينيه ويحـاول بشـده أن يتشبث باليقظه ان يتعقل الاشياء ويضعها فى نسقها وان ينام نوما هادئا ..

هب عبد العزيز جالسا أضاء مصباحه ليطرد مخاوف الظلام فى الركن كومة كتبه تأملها تحت اغلفتها المتربه علته ودواؤه .. تلقيه كلماتها فى المتاهات الغريبه لم يبـق شىء فى عالمه ثابت معـاول المعروفة الرهيبة تدمرتصوراته واحدا اثر واحد.. خلقت فى داخله جسارة ومرارة ، أصبح يدمن وخزها الأليم ..

نزل وئيدا على درجات السلم العصافير فى سقيفة الحطب ، الدجاجات الشرهة الى حبوب الافطار أفراح الحمام المزغبة فى البنانى ، النهار اليقظان المغسول الوجه .. هربت أحلام الليل .. لكن فى زاوية دماغه سؤال عويص وفى قاع قلبه هم لاينكسر ..

الحاج كريم جالس على مصطبة وسط الدار وجهه حليق طرى بالاستحمام والصدار الشاهى وسلسلة الساعه الفضيه تجرى من العروة الى الجيب قاطعه عرض الصدر ، عبد العزيز يحس نعومـة الشاهى وبرودة سلسلة الساعه من بعيد .. يود لو يريح رأسه على صدر ابيه ، لكن هيهات ..

قبل يده وجلس على طرف الحصير محاذرا غير مطمئن بقايا تسابيح فرغ منها الحاج كريم .. حمد لله ودعى لاخوان الطـريق ومسح وجهه مؤمنا .. ثم نادى

ـ ياولاد ٠٠ هاتو لقمه

كسرة وحبة ملح ، ملأ فمه وناول الباقى لعبد العزيز ، طعم فى غاية العذوبة ، الضوء فى وسط الدار رائقا .. وفى الأركان كابيا قليلا .. عصافير متأخرة مازالت عيونها تلمع فى الاعشاش ..

ـ ياولاد ٠٠ هاتو القهوه

الكنكه النحاسيه الصفراء اللامعه والفنجان المزركش الكبير بدأ يرتشف قهوته فى استمتاع حكى لعبد العزيز مرات كثيره عن القهوه وانها مشروب الذاكرين يشربونها سوداء من غير سكر لـكى تعينهم على اقامة الليل ساهرين يذكرون الله .. يبكون من حلاوة الوداد ٠٠ لا تهاويل متقيحه ٠٠ لا كلمات كافره رهيبه ٠٠ لم يعد عبد العزيز يعرف حلاوة الوداد أو الاتساق مع نفسه انه يكره الليـل ويهرب منه الى وضوح النهار ٠٠ لو يمرغ وجهه فى يد الحاج كريم السمراء ويبكى ٠٠

ـ اشرب يا عبد العزيز

ومد الحاج كريم فنجال قهوة الى عبد العزيز ، أخذه متسرعا خجلا هذه أول مره يدعى فيها الى قهوة ابيه ، ثبت نظره على الارض لا يحوله .. طعمه طيب .. مشروب الذاكرين

احضرت الام طربوش العمامه وشالها اقام الحاج كريم سـاقه مثنيه أمامه ، كبس الطربوش فى ركبته فرد الشال بينه وبين أم

عبد العزيز كبيرا شفيفا ، ثم بدأ يطوى بينهما طيات متتالية لـكى يصبح شريطا طويلا لطيفا .. عندما كان صغيرا كان يسابق أمه لكى يفرد الشال أمام ابيه ، يفشل وتلتوى كفاه ويضحك منه أبـوه ويحاول من جديد .. كان فى كل شيء بهجة ..

بدأ الحاج كريم يلف الشال بعناية حول الطربوش وهو يتابع اهتمام أبيه .. ساهما .

الزوجة الأخرى جالسة أمام باب غرفتها تستند ذقنها عـلى كفها صامتة ، والبنات يقمن ببعض أشغال الصباح فى سكون .. ناول العمامه الى ام عبد العزيز وقام متمهلا الى غرفته وامام المراه بالدولاب لبس قفطانه الشاهى وتحزم عليه بشال كبير مزركش ثم ارتدى جلبابه الكشـــميرى الكبير ، تناول العمامه ٠٠ حبكها على جبهته ونظر الى نفسه فى المرآه وهو يسوى طوق جلبابه على صدره ببسطة كفه ، مهيب مزموم الشـــفتين ، كل مافيه انيق ليس فيـــه عيبـــه ٠٠

« .. توضأ أبو زيد وصلى لله ركعتين واخـذ عدته وحسامه ، خوذته ولثامه عازما على الرحيل الى ارض تونس ووقف بنو هلال حوله مودعين وبالسلامه له داعين والقى ابو زيد بعيونه على النيافى والقفار ٠٠ ثم نظر الى من حوله من الكبار وانشاء يقول ، صلوا على طه الرسول ٠٠ » نسى عبد العزيز الشعر ، ونسى حتى نبرة احمد بدوى وهو يتغنى بالابيات ، لكن ذلك الحنين الذى احسه وقتها اصبح شيئا خالصا يخالط روحه ٠٠ الحنين الغامر للســـفر ٠٠ للخروج .

وقف الحاج كريم ساكنا فى وسط الدار عيناه البنيتـــان لاتحطان على مكان .. لا نأمه حتى الحمائم سكنت على البنانى ، كأنما هو قائم للصلاة فما تجسر على المرور من أمامه .

ـ طيب ٠٠ نتوكل على الله

ومد يده فناولته ام عبد العزيز العباءه طرحها على كتفه وضمها الى صدره بيسراه وناولته العصـــا فعلقها على ذراعه اليمنى وبدأ يتحرك فى اتجاه الباب تقدمت اليه ام عبد العزيز فمد لها يـــده

فقبلتها فى صمت ثم الزوجه الثانية ثم النبات .. وخرج الى الشارع يمشى وئيدا وبجواره رصين الخطو يمشى عبد العزيز .

شرفة الدوار نظيفة مكنوسه الدكك مفروشة بالحصر البيضاء الشارع لا يزال ساكن التراب من ندى الصباح.. جلس الحاج كريم فى مكانه من الاريكه ركن عصاه ووضع عباءته بجواره واخرج علبة دخانه وبدأ يلف لنفسه سيجارة ، من امامه تتحدر سلالم الشرفه الى الشارع وعبره يمتد الجرن وفيه بضع نخلات ثم تترامى الحقول الى الافق وعيناه البنيتان تجوبان الامتداد المترامى مشوقتان ، وجهه الاسمر السمين ريان بالرضى ، مباهج الرحلة .. السفر .. الطريق الى السلطان ، لاشىء يستطيع أن يضع فى قلبه كل هدا الفرح الا السفر ..

وصعد محمد كامل سلالم الشرفة ضاحكا ، مغسول الجلباب قد لف شالا ابيضا على طاقيته من صوف الغنم الاحمر والقى على كتفه بملفحته وقام الحاج كريم مرحبا وسلما مشتاقان كأنما لم يتقابلا منذ سنين وهما اللذان سهرا معا بالأمس فى ردهة الدوار وقبل محمد كامل كتف الحاج كريم وقبله الحاج كريم مابين عينيه وسلم محمد كامل على عبد العزيز ودعى له ثم جلس على الاريكه مهتاج الوجه بالسرور .. أخرج حق مضغته وطفق ينكش فيه بعود ويتهف به الحاج كريم

ـ هو الشاعر كان بيقول أيه ياعم محمد ياكامل

ويهز محمد كامل رأسه فى انتظار الشعر ضـــاحكا مغمض العينين

ـ أيوه ياعمى أيوه

ـ كان بيقول يا سيدى :

يا عــــرب ياللى ناديتـــــولى آدينى جيت
واقف على بابكم وان اذنتـولى آدين خشيت

ـ الله .. الله .. الله

ويتقدم محمد كامل باسطا كفه ناحية الحاج كريم عازما عليه بشعرة من دخان المضغ

ـ ما تحرمناش من طريقك يارب .. وداد يابو فراج وداد

وما يكاد محمد كامل يجلس فى مكانه حتى يهل احمد بدوى ومعه عراقى الاطرش ضاحكين مهللين عراقى وضع عمامته الحمراء ومشط لحيته لم يسلم وانما وقف وســـط الشرفة ورفع عقيرته بالمــــدد ..

ـ مدد .. يا سيدى احمد يا بدوى مدد

والقى احمد بدوى بنفسه على الحاج كريم يعانقه ، لطيف فى ثوبه الجديد وطاقيته التى تلابس رأسه باحـكام وملفحته التى تتدلى شراسفها على الارض من قصر قامته .. الحاج كريم يقبل رأس العراقى الذى انحنى يقبل يده وهو يقول متغنيا

ـ احباب السلطان عليهم نورا يا سيدى .. مدد ياعم

وجاء الناس من كل فج امتلأت شرفة الدوار بالوجوه الفرحانه واخرجت علب الدخان وتبودلت اللفائف واخرجت احقان المضـغ وصفقت على الأكف وقدمت للاخوان مبسوط عليها الدخان المدقوق المندى ، عبد العزيز ساكن فى الركن يبتسم ، السرور الجماعى اجتاح كآبة المساء .. اكتسحها غسلها ..

ما الذى جمعهم اهو زعيق العراقى مناديا على المـــدد ام تلك الانفاس التى تسرب منذ أيام فى البلد .. حثيثه تنفخ فى كل قلب

نارا وعلى المصاطب امام ابواب الدور فى العصارى وعلى الكيمان فى الليالى الصيفيه المقمرة يدور الكلام ماذا عن ايام السرور ، قليلة على مدار العام ، والزمن بينها مفروش بالكد والعناء ، ومولد السلطان فريد فى ايام السرور ، تلك السفره الغريبه الى طنطا ، ثم الليالى هناك متفجره بالاضواء والغناء والهياج ..

ــ والله العظيم لو حتى سرقت لرايح .. لو حتى مليت حجرى غلة من المخزن وبعته لابد رايح .

وينظر الجالسون الى الشاب الذى استخفه الشوق والى هياجه وايمانه المغلظه ويضحكون فى كل قلب شوق وفى الاكياس الخلقه قد يكون ثمة قروش قليلة أو لايكون ــ لكن الله كريم ــ ومن هنا الى صباح يوم السفر يستطيع الله أن يرفع سبع سموات وان يبسط سبع أراضين ..

وفى ذلك الصباح تلبس الجلاليب المغسوله وتعلق العصى فى السواعد وتزدهى الوجوه بالحبور ..

ــ فين احنا من اهل زمان ... الله ينفعنا بهم .. ويشفعهم فينا ..

ويصفق الحاج كريم بكفه على باطن قدمه المجور به وتشرئب اليه الوجوه المشتاقه للسفر .

ــ ما كانش الواحد منهم يركب دابه وهو رايح للسلطان ابدا .. ان ركب يبقى أساء الادب .

ويهتف محمد كامل من اعماقه

ــ يا سلام .. يا سلام على كرمك يارب

ويسمع من عشرات القلوب المتزاحمه فى شرفة الدوار والمتكاكئه

حول السور هزيم الانبهار والايمان وتفرق الوجوه ــ المبقعة من سوء التغذية ــ فى رضى صوفى .

ــ شوف احنا يا عم محمد يا كامل بنسافر فى القطر قاعدين مربعين رجلينا ..

ويتأثر محمد كامل حتى ليكاد يبكى ..

ــ احنا ضعاف يا عم الحاج كريم

ثم ينكس رأسه ويواصل بصوته المشروخ حاكيا عن

ــ راجل نواحى المحلة الكبيره .. يقوم الصبح يقول لمراته .. يامره هاتى العصايه عاوز اقوم ازور سيدى احمد الرفاعى فى العراق .. تناوله العصايه والعصر تلاقيه راجع .. يناولها بلح عراقى ويقول لها ربنا رزقنى ببلحتين وأنا قاعد اقرأ سورة ياسين جنب مقام الرفاعى ..

والايمان يئز فى القلوب كطنين النحل والناس يمصمصمون الشفاه دهشين يحوقلون ويبتهلون ، ويصفق الحاج كريم باطن قدمه المجوريه مغمض العينين قائلا

ــ طاروا على متن حرفى « كاف » و « النون »

دول اهل الخطوه ياعم الشيخ محمد يا كامل

وتبرق عيونه البنيه بذلك الشوق الذى عرفه عبد العزيز اذ يقف فى شرفة الدوار يدور بناظريه يثقل على روحه حبس النهار القعود يتململ فى مكانه والشوق فى عيونه ألم قاتل .. اذ ينشق الطريق عن واحد منهم ، المسافرون فى الزمان ، الجوابون ، الارواح الهزيله الرثه الهائمه فى الريف .

كان ذلك الرجل ابيض الوجه دقيق اللحيه واسع العينيين واذ يزيح عمامته ينسدل على جبينه شعر أسود سبط .. اخرج من كمه

قطعة حلوى قدمها للطفل عبد العزيز ، وما ذاق الولد أشهى منها أبدا .. وعرف أن الرجل يثقل نفسه تحت ثيابه باغلال الحديد ويسأله الحاج كريم .

ـ ليه كده يا عمى

هو احدث سنا من الحاج كريم لكنه يناديه يا عمى

ـ بلاوى الناس ٠٠ شايلها على ضهرى

وفى المساء حين اقيم الذكر طار بين الصفيين كالحمامه البيضاء. وجن جنون الذاكرين .

وفى الصباح سأل الطفل عبد العزيز ملهوفا

ـ الراجل فين يابا

والحاج كريم ينظر الى بعيد .

ـ مشى يا بنى ٠٠ مشى

واذ يقف الحاج كريم وحيدا فى شرفة الدوار ٠٠ وعبد العزيز عند اقدامه يرى عيونه ترف فى الآفاق بنية يحيرها الشوق اذ ذاك ينكشف السكون عن طيف مهدم يدب على عصاه احد المسافرين فى الزمان يتهلل الحاج كريم وينزل درجات السلم مرحبا

ـ أهلا يا عمى ..

عجوزا مهدما كليل البصر رث الثوب يتسند على فرع سنط يجلس على الاريكه مهموما بنفسه لايرى ما حوله يهمهم بما لايفهم يتقاطر الاخوان والناس والرجل لايعى ما يكون يخرج حق مضغته ويفرغه كله فى كفه ثم يضعه فى فمه آنا ثم يستخرجه مرة أخرى ويودعه الحق يتململ مكروبا ملولا يلقى نثار الكلام ٠٠

يأتى محمود ابو اليزيد حاملا الصينيه النحاسيه الكبيرة ويأتى

كل رجل من دارة بطعام . المكان ناسى وطعام ، الحاج كريم مبتهج لايقر له قرار ، ودون سابق انذار يمسك الرجل عصاه ويدب نازلا من الشرفه متأنيا على الدرجات والناس تتبعه بالعيون والقلوب حتى اذا كان وسط الباحه أمام شرفة الدوار ، اذ به تركبه روح مارده وتتلبسه قوة غريبه ويرفع عصاه فى الهواء ويصيح قافزا على قدم واحدة ويدور يرقص رقصة غريبة وصياح مدوى ، دوره أو دورتان ثم يعود عجوزا مهدما يدب على عصاه منصرفا والجموع واقفة مأخوذة وهو يغيب مع انحناء الطريق ..

ان روح عبد العزيز تحلق وهو فى وسط هذا الحشد من المسافرين ويود لو ينطلق يدور فى البلاد لا يسأل اين ، لا يسأل لماذا ، لكن كيف يسافر الانسان من غير العكاز والحفاء والوضوء انه جنب ثقيل الراس بعلامات استفهام لا تقهر ثقيل القلب بهم لا ينكسر ٠٠

ويضحك احمد بدوى ويغرق فى الضحك مذكرا الاخوان بسفرتهم الاخيرة الى مولد الحسين اذ عبئوا فى عربه (كاميون) وركب الحاج كريم بجوار السائق والدراويش افترشوا ملافحهم مع نسائهم فى صندوق العربه وظلوا يتارجحون ويضحكون حتى وصلوا الى القاهرة مهشمين من الاجهاد والضحك ٠٠ ويشرد محمد كامل .

ـ الشراقوه حيطبوا طنطا بكره انشاء الله .

ويبتسم الحاج كريم بحنان سوف يسافرون الآن ويعدون البيت فى طنطا ومن غد يصل الشراقوة ويقيمون مدة المولد ضيوفا عليهم مكرمين ..

وربما من بكره صباح الغد سيخرج الشيخ من داره مرتديا عمامته الخضراء وجلبابه الكشميرى الكبير ويجلس امام دواره فى انتظار

الاخوان ليبدءو الرحله الى طنطا وربما ينعقد هناك امام دوار الشيخ مجلس مثل هذا طلى الحديث مليء بالشوق الى بهجة السفر ٠٠ ويتصور عبد العزيز الشيخ عباس وقد أهل من بعيد على مجلس الشراقوه امام دوار الشيخ يتحسس طريقه بعصاه فهو كليل البصر حتى ليكاد يميز الأشباح – وحالما يستقر له الجلوس ويشرع فى الحديث لا تسكته قوة فى الارض ولا فى السماء ذلك الازهرى الذى هجر دراسته دون ان يحصل من العلم شيئا ومع ذلك فهو يتخذ الجبه والعمامه ويترخص فى افتاء الناس يفتيك بما تريد ييسر لك أمور الدين حتى لو أفطرت فى رمضان عامدا .. لا بأس .. صل لله وكعتين واستغفره يغفر لك .. اذا كنت حنبليا متمسكا فاطعم مسكينا.. ان الله غفار يأخى لما التضييق على عباد الله.!!؟ ويضحك أحمد بدوى حتى يكاد يقع على ظهره ..

– والنبى يا شيخ عباس انت تستاهل يتعملك مقام ٠٠ بطنك أوسع من السيد البدوى ..

لكن المستكاوى يصطنع جهامه مضحكهويسأل بلسانه الشرقاوى .

– جولى يا شيخ عباس ٠٠ سرجة الحمير حلال ٠٠ ولا حرام ٠؟

ويتدخل العايق مصطنعا الجد .

– هيا مش حرام يامستكاوى ٠٠ بس تقسى قلوب الملايكه .

ويغرق المجلس فى الضحك ويشتمهم عباس .

– ولاد كلب حشاشين ٠٠

فالمستكاوى والعايق يعبدان الحشيش عباده ٠٠ ويغرمان بالثياب الناعمه والطيب ، لكن احدا لايدرى من اين ياتى المستكاوى بمعاش أولاده ولا احد يسأل ربما يهمسون انه يسرق الحمير لكن الشيء الموكد انه لا يسرق حمارا مدة موالد الشيخ ٠٠

زمانهم الان ٠٠ أو صباح غد سوف يجلسون امام دوار الشيخ حتى يجتمع شملهم ، حتى يأتى صانع القهوة الأسود حاملا عدته فى خرجه الصغير وحتى يأتى كاتب الرقى الفقيه الذى لا يكف عن التسبيح أبدا والذى لا يكلم احدا تقريبا ٠٠ حتى يجتمع شملهم فيبدأون الرحله الى فرح السلطان ٠٠ وفى امسيه ندية فى بيت الخدمه سيكون اللقاء ..

كم رقت القلوب وهفت للسفر الوشيك وطارت أجنحه الشوق وحطت على الذكريات الحبيبه يميل الحاج كريم على احمد بدوى

– ياترى جوابنا وصل لحسن افندى وعرف معاد المولد

سلمه ساعى البريد الخطاب قراه وابتسم ابتسامه وضيئه ومن غد سيضع الطربوش على رأسه ويزرر معطفه ويقف حائرا على رأس السلم المعتم وخجلا قليلا ثم يستجمع نفسه ويقول لامرأته الواقفه تحمل ابنتها الصغيره

– خلى بالك من نفسك

وينزل مسرعا

ظهر العايق وعلى كتفه خرجه وفى يده ساعته .

– يا أخونا لسه بدرى

ويزوم سليم الشركيسى النجار عصبيا

– لما نبدر شوية .. مش أحسن ..

ويسلم العايق ويقف فى شرفة الدوار يتكلم ملوحا بيديه ..

– لسه بدرى يا عالم .

ويعاجله احمد بدوى

– بدرى ولا وخرى ٠٠ انت قاعد فى الدار تعمل ايه ٠٠ مشبعتش من روايح طول الليل ؟

ويضحك الحاضرون .. ويضحك الحاج كريم مداريا ضحكته .. وفجأه تبدو روايح بذاتها على البعد تنادى العايق وينفجر الضحك أكثر واكثر .. ويهرول العايق بحجمه الدقيق الى روايح ويقف فى كنفها ضخمه عيونها تبرق كعينى حدأه تكلمه بالحاج وهو يلوح بيديه وكلما اراد ان ينصرف استبقته بأن تجذبه من طوق جلبابه واخيرا أفلت منها وأقبل مسرعا وهى واقفه فى مكانها تنظر اليه كأنه ابنها الطفل مسافرا لأول مره فى طريق محفوف بالمخاطر .. استقبلته فى الشرفه عاصفه من الضحك والتساؤل .

ــ كانت عاوزاك ليه

ــ خير يا عايق

ــ جايبالى ورقه دخان

ــ لازم كنت سبع ليلة البارح

ويضحك العايق ويكركع حتى تبدو أسنانه التى اهلكتها الكيوف

ــ كانت ليله ندى .. جوز حمام وتعميره

ولابد أن كلا من الحاضرين تجاوز التعميره والليله الندى وفكر فى زوج الحمام الذى طهى للعايق بالأمس وكل سرح ذهنه الى البنانى فى داره ، حمام من ذبح أمس مساء ..؟ عبر أحمد بدوى برهة الصمت وسأل العايق

ــ ومافوتش على الجازيه تقولها خليتك بعافيه

ــ لأ

ــ ما لكش حق

ــ شوف يا سيدى

ــ هه

ــ روايح لها ليلة ما أكون صابح مسافر وليلة ما يكون صابح عيد او موسم ونهار السوق بالليل والباقى انا حر فيه ..

ــ وان رحت ليلة من دول للجازيه

ــ ان روحت صبحيتها الدار تكسر رجلى

وانفجر الجالسون ضحكا وعلق واحد

ــ يعنى روايح كبت ميه بصابون قدام الباب النهارده

وضحك العايق

ــ صابون بريحه

نهض الحاج كريم واقفا ضاما عباءته الى صدره بيسراه ممسكا عصاه بيمينه ووجهه وقور هادىء ساكن وقام الحاضرون وقوفا وحل صمت جليل لثوان وتكلم محمد كامل بصوت عميق الفرح

ــ الفاتحه لاولياء الله الصالحين .. ان ربنا يصلح احوالنا جميعا ويسهل لنا طريقنا ويفتح فى وشنا الابواب .. الفاتحه

وقرئت الفاتحه فى همسات لا تسمع وفهم العراقى انهم يقرأون الفاتحه فرفع يداه فى هيئة دعائبة وبدأ يحرك شفتيه حتى ادرك انهم ختموا القراءه مسح صدره بيديه مؤمنا ورفع عقيرته مناديا على المدد .. لم يعلق احد ولم ينطق ببنت شفه مشى الحاج كريم وئيدا نحو سلم الشرفه وبدأ ينزل الدرجات فى سكون والجميع ورائه صامتين يخبون فى الجلاليب المغسولة ساهمون سارحون، نحنحات أو مصمصة شفاه اليوم لا تسمح الانوف فى الاكمام ولا ذيول الجلاليب ، منديل او خرقه نظيفه مطبقه ..

وجه الحاج كريم مشرع الى الامام وعيونه مليئة بالجلال والحنان والشوق ، لم ير عبد العزيز ذلك التعبير فى عيون انسانية أبدا . ، ظل محفورا فى خياله ، اشتياق لايرتوى الى عوالم مبهمة غارقة

فى الصفاء ، حينما كان صغيرا كانت تلك النظرات تصيبه بالخوف أو بالحزن فيمشى فى كنف أبيه ساكنا منكمشا على كيانه النحيل ينظر اليه فى خشوع ويمشى مبهور القلب يتعثر فى حصباء الطريق. انه اليوم فى ذيل الموكب لكنه يحس رفيف هذه العيون تستطلع أعلى الطريق وترين على موكب المسافرين ويراها فى هؤلاء الناس على جانبى الطريق يتقدمون الى الحاج كريم صامتين وينحنون على يده يقبلونها ، اليوم لايجذب يده من أحد يسلمون وهو يهمس لهم .

ــ نراكم فى خير انشاء الله

ويرفع واحد بصره اليه راجيا

ــ سألناك الفاتحه فى المقام ياحج

رجل من القاعدين ، ربما جدب اليد وفراغ الجيب وربما هموم الدار وشواغل الحقل أو فساد الهمة وفتورها كريح واهنة لا تدفع القلاع الى محاط الشوق آه من ثقل المراكب وتلكؤها بالشطوط وتوزع النفس وحيرة الليل ٠٠ لكن الحاج كريم يهز رأسه مؤكدا والحنان والتسامح يفيض من ملامحه

ــ انشاء الله ٠٠ انشاء الله

وحينما مر موكب المسافرين امام الدار وجد عبد العزيز الباب مشقوقا ولمح عيون البنات تزدحم فى الشق ضحك فى نفسه على لهفتهن الغريبة، انهن يعبدن اباهن الحاج كريم، من فى البلد لايحبه ٠٠ سوف يسافرن من غد لكن اى سفر سيخرجن لابسات الاسود محجبات ولن يسرن فى هذا الشارع السوى الى المحطه ٠٠ بل يسقن الى سكه موغله فى الحقول متجنبه سبل الناس يتعثرن فى الكيمان ضاحكات وشاتمات فى السيد البدوى وسككه العثره وسوف يكن فى صحبة رشيدة ومعهن رجل لكنه بالقطع سيكون ذنبا خائبا فاته ان يشارك فى موكب الحاج كريم .

هكذا يكون سفرهن ، يتمنين لو كن رجالا ، ولكن أسوأ الاسفار خير من القعود فى الدار ، بحار المخاوف المدهشه ، القطر والكمسارية وعبث ابناء البنادر ، موكب المسافرين جاوز الدار وهاهى امرآة امراة احمد بدوى وامراة محمد كامل وامراة الشركسى النجار . مسافرات مع الرجال يحملن سلال الزواد وتسحب كل واخدة طفلها ماعدا امراة محمد كامل، مسكينة ناكسة الراس كسيرة العينين، ياليت الحاج كريم يدعوهن اذن لحملن السلال على الرؤوس وطرن وراء موكب الرجال ، لكن زاد ــ الحاج كريم لا يحمل فى سلة بل صحارتين هائلتين تحملان على جمل عمر قرهود الجمال ٠٠ يلتفت عبد العزيز وراءه ليجد شق الباب قد احكم ويضحك فى نفسه مرة اخرى وهو يتخيل هرجهن وعراكهن وجريهن فى كل اتجاه يجهزن لرحيلهن ٠٠ ويتصور امه الان غير مباليه بشىء من هرج البنات تروح ، وتجىء فى الدار حازمه متجهمه تطعم الدجاج وترعى البهائم او تعد الشوالى لحلاب المساء ٠٠ التأم شق الباب والموكب يمضى والناس يسلمون وفى همس يسألون الفواتيح فى المقام والنسوان فى فتحات الدور ينظرن الى المسافرين ، لكن قد يحدث ان تندفع امرأه نحو الحاج كريم حامله صغيرها .

ــ والنبى يا عم الحاج اقرأ الفاتحه لابنى فى مقام السيد

ويتوقف الحاج كريم ويضع يده على رأس الطفل ويدعو ثم يربت كتف المرأه ويمضى والمرأه دموعها تنهمر على خدودها وعندما يجاوزها الحاج كريم ماضيا تطلق زغروده طويله مظلله فمها بيدها وتتردد فى الموكب المصمصات ويعدل العايق من وضع الخرج على كتفه وتلمح فى عيونه نظرة غريبه

ــ ايه ٠٠ ؟ يامرة يا بنت الكلب

ويغالب احمد بدوى ابتسامته ويقول مؤدبا للعايق

ـ خليك فى حالك يابن الكلب .. هيا دوده مابترحمكش ابدا

ويدارى عبد العزيز ابتسامته مكسوفا ثم يعبىء قلبه بالجلال ويمضى مع الموكب ومن بعيد يرى على خليل امام باب دكانه عليه هيئة السفر الجلباب المغسول والوجه الحليق والابتسامه المشرقه

ـ السلام عليكم ورحمة الله ياعم على يا خليل

وينحنى على خليل على يد الحاج كريم ويقبلها ، ويقبله الحاج كريم فى جبينه وفى سكون يمضى الى داخل الدكان ليحضر حصير المصطبه ، رفوف الدكان مزدحمه الى السقف بالعلب والاحقاق والكيزان الصابون والسكر والقماش وزجاجات المصابيح وسائر الوان البضاعة ، العلاقات من السقف محمله بصنوف من ملافح الرجال وشيلان البنات الحمراء والخضراء ، الصناديق بجوار الحيطان مليئه ببلح التمر والعدس والفول وعلى الارض بلاليص العصل الاسود واجولة الارز والملح كل الاشياء تتكدس بلا نظام غارقة فى الغبار والوساخة ، كان ريق عبد العزيز يتحلب وهو صغير حينما يرى الحلوى الملونة فى النافذة الزجاجية الصغيرة فوق البنك ، أما الآن فهو يحب أن يتأمل على خليل يدور بين هذه الاكداس هادئا ساكنا لا يتعثر مثلما تفعل ام عبد العزيز فى غرفة المعاش .. وحينما لا يكون ثمة زبائن يهجع على جوال مفعم ويفتح امام عينيه كتابا اصفر الصحائف مبقع بالزيت ويسرح ساكنا شاحب الوجه ..

فرش على خليل الحصير الأبيض على المصطبة ومسح عنه التراب بكفه والحاج كريم يهتف به :

ـ كويس .. كويس يا على .

ويجلس ويجلس من يجد لنفسه مكانا ويقف الباقون متحلقين حول الحاج كريم ويأتى على خليل بالكراملة ويوزعها على الحاضرين

.. لم يعد عبد العزيز يسيفها كثيرا يترد دعلى خليل فى اعطائها له فالأفندية حذرون عادة ازاء حاجة الفلاحين لكن عبد العزيز يسرع بأخذها ..

ـ نفسى فيها من زمان ..

لهم فى كل مكان مكان للجلوس نظيف ولطيف ودائرى وحينما يجلسون ويشرعون فى الكلام فانك لاتدرى متى ينتهون ، دارت اللفائف وصفقت أحقاق المضغ على الأكف وعلا صوت العايق ضاحكا ونظر العراقى حوله غير فاهم شيئا لكنه يبتسم للفرحة التى يراها على الوجوه ..

ويأتى عمر فرهود جريا ، داره على بعد خطوات من الدكان والجمل جاثم هناك هائل الجرم ، يقبل يد الحاج كريم ويقبله الحاج كريم فى جبينه ..

ـ كل عام وانت بخير يا فرهود ..

وصوت عمر فرهود متذللا مشروخا وهو يقول :

ـ سألناك الدعوات يا عم الحاج ..

ـ انشاء الله .. انشاء الله ..

ثم يبتسم لفرهود منبها عليه ..

ـ الصحاحير من بدرى يا عمر .. زوادة السلطان يابنى ..

ـ من عينى يا عم الحاج .. دا فرض عليه .. ربنا مايقطعناش

ـ آمين ..

ثم يبصر عبد العزيز فيسلم عليه ضاحكا :

ـ ازيك ياسى عبد العزيز .. مش عاوز تركب على الجمل السنه دى ..

ويضحك الحاضرون وينظر الحاج كريم مبتسما الى ابنــــه راضيا عن حب الاخوان له فيقول عبد العزيز خجلا :

ـ بقيت تقيل عالجمل يا عم عمر .

ويضحك الحاضرون ويواصل فرهود :

ـ كان غرامه الركوب على الصحاحير ..

اذ ذاك طفلا صغيرا يقف أمام باب الدار منتظـرا ، ومن بعيـد يأتى جمل عمر فرهود الهائل الجرم ينقل كلاكله على الأرض وهو سائر يتدفع ، وعمر فرهود يتقافز حوله بخيزرانته الطويلة وأمـام باب الدار ينيخ الجمل ، الارتفاع الشاهق يتهاوى حتى يجثم على الأرض والجمل حائر العينين يتلفت شاكا مستوفزا عصبيا وعمـر فرهود يهدىء ثائرته باصدار صوته خاص مستطيل .

ـ هخ .. خ .. خ ..

ويأتى الفتيان خجلون متكسرى العيون لـكن وجوههم مزدهية بالانفعال عبد العزيز الطفل يحس هرير الانفعال فى صدورهم وينظر اليهم خائفا كارها والبنات فى أركان الدار واسعات العيون يكتمن ضحكات فرحه ووجوههن تكاد تبك دما من الهياج .. أم عبدالعزيز حازمة عارفة لمـا تريد ..

ـ من هنا ياجدع انت وهو .. كل اتنين من ناحية .. بالراحة.

ويهجم الفتيان على الصحاحير ، سواعد مليئة بالمروة ويحمل كل أربعة صحارة ويخرجون بها يضعون الصـــــحارتين على جانبى الجمل الجاثم وعمر فرهود مستطار اللب يدور يجرى هنا وهنا .

ـ حاسب ياسيدى .. ماتعديش من قدام الجمل .. بس ..
بس كده .. استنى اما اقولك ابقى شيل .

ثم يوثق الحمل على ظهر الجمل بالحبال وأم عبـد العـزيز

عيونها على الصحارتين والبنات عيونهن على الجدعان .. شرارات يرقبها عبد العزيز ذاهبة آيبة بين العيون تملأ قلبه بالخوف لكنه يصرف همه عن هذا ويهتف متوسلا :

ـ ركبنى بقى يابا عمر .

ـ حاضر ياسيدى .

يوضع الطفل على الصحاحير تقذف له أمه بخرقة بيضاء .

ـ حط دى على راسك من الشمس ياوله .

يقبض على الخرقة غير فاهم شيئا كل همه منصرف الى اللحظة الرهيبة الوشيكة ، لحظة نهوض الجمل من جثومه ، يمتلىء قلبه لها شوقا ومنها خوفا .. يزيد من ارتجاف بدنه مايصل اليه من هدير الجمل الصاخب الغاضب من أثقاله بالحمل ، ومما يصل الى سمعه من صياح عمر فرهود وضحك الجدعان وزياطهم .. وتنبيهات أم عبد العزيز الحازمة وضحكات البنات المرحة المجلجلة ثم يفك عمر فرهود عقال الجمل فيهم بصدره ناهضا بالحمل الى الخلف ويكاد عبد العزيز أن يطير ساقطا على الأرض لولا تشبثه الوثيق بسـياج الصحارة ، ثم ينهض الجمل بخلفيته فيلقى بالحمـل الى الأمام ويكاد أن يقفز بعبد العـزيز مرة أخـرى ، ثم يسـتقيم واقفـا مباهيا بقوة عضلية خرافية وعبد العزيز عال فوق الجمل الشاهق الارتفاع يكاد يلمس بيده شباك الغرفة على السطوح ينظر الى أمه واخواته على الأرض ويبتسم ثم يمضى الجمل وئيدا منقلا اخفافه الثقال على أرض الشارع وعمر فرهود فرح بجمله خائف عليه من الحسد ..

ـ ياللا السلامه .. بسم الله الرحمن الرحيم ..

لـكن ماخوفه عليه وقد صنعت له زوجته حجابا يعلقه فى

رقبتـــه حجابا مشغولا بالخيوط الملونة والخرز وقطـــع المرايا والزجاج ..

الجمل يندفع فى سيره ، الثقيل والحمل يصر ضائقا بالحبال الغليظة الوثيقة ، وعبد العزيز يهتز مع الاهتزاز الرتيب للصحاحير ولكنه مسرور يرى عيون الناس العيال يعرفون مشوار الجمل الى طنطا ويضحكون له وعمر فرهود فرح بحمل الزاد للمولد .

جميل أن ينظر عبد العزيز لما حوله من هذا المكان العالى بعدت دور القرية وهى توغل فى الابتعاد الوئيد وهذه هى السكة السائرة تأخذك من هنا الى طنطا دون ضلال .. تمر على القرية التوأم ثم على المحطة ثم تسرح بك بين الحقـــول تنحرف يمينا وشـــمالا أو تسير صـــعدا لكنهـــا فى النهـــاية تأخذك الى مشـــارف طنطا ، يا للفـــرح ..

من كل القرى ناس ذاهبون الى المولد ، المسارب الصغيرة بين الحقول كالعروق فى راحة ورقة الشجر ترفد السكة كل آن بارتال من المسافرين ، الرجال فى الجلاليب المغسولة والبنات فى الشيلان الحمراء والخضراء والليمونية والنساء حاملات السلام وصرر الزاد على الرؤس زرافات لا تنقطع والغناء وصفق الأكف والزياط :

يابو عتبة خضرة .. .. .. ياسيد نادينا
ودبحنا البقرة .. .. .. ياسيد وجينـــا

والجمالة يذبون جمالهم التى تحمل الصحاحير لكن ليس فى الجمال أبدا كجمل عمر فرهود وليس فى الصحاحير أضـــخم من صحارتى الحاج كريم .. وليس فى واجهات القرى دوار كدواره .. عبد العزيز من الانفعال يا بيه يكاد يصرخ فيهم متحديا ..

وثمة فى باحة أمام قـــرية كبيرة تقف عربات الأجـــرة .. والريفيون أمم حولها والسائقون ـ يالهم ـ أشـــد شراســـة من

الشياطين ، يلكزون الناس فى صدورهم ويدفعون النساء والاطفال ويصرخون ويغالون فى الأجور ، ويصرون على قبض حق السفر قبل الشروع فيها .. وعمر فرهود يصيح مخاطبا عبد العزيز :

ـ ولاد كلب كفرة .. بيقاطعوا على رزقهم .. يمكن مايوصلوش .. يبقوا خدو فلوس ظلم فى ظلم .. مدد يا سيد .

لكن عبد العزيز فى مكانه آمن ، عربات الأتوبيس مائلة بالناس تثير التراب زوابع وعربات الأجرة محملة على ظهورها وجنـــوبها ومن خلف ومن أمام، وعند نقطة المرور ينزلون وتمر العربة أمـــام العسكرى وليس فيها سوى بضعة ناس، ثم تنتظر على البعد فتوثق بالناس من جديد والسائق كالشيطان يضرب فى الناس ويركل لكنهم يلقون بأنفســــهم على العـــربة حتى ماترى من حديدها شيئا ..

لكن عبد العزيز فى مكانه آمن واذا كان هكذا فانه يرى امتداد الحقول على مســـافات شاســـعة ويرى القرى والعزب والـــكفور والمسارب الدقيقة السارحة بين الزرع ، والناس يدبون كأسراب النمل ، ناس يفضلون السير على ركوب هـــذه الآلات الجهنمية وسائقيها الشياطين يفضلون الســـير والحديث ، الكلام مســـلاة الطريق التى لاينضب معينها ، شاب يكبس طاقيته فى رأســـه ويعدل طوق جلبابه ورفيقته تسوى شالها وساعدها المحلى بغوايش ملونة ، يسند صرة الزاد على رأسها وهما يبتسمان ويتـــكلمان ، أحمد بدوى آخر ورفيقته الى طنطا .. ما أحلى حديث أحمد بدوى حينما كان يحكى عن سفراته الى طنطا مع تلك التى كان يحبها ولكنه لم يتزوجها وزوجت فى بلد بعيد .

وفروع السنط ترمى فى حجر عبد العزيز بنوارها الأصـــفر المخملى والشوك فى الغصن يخشخش فى الخرقة التى يستر بها رأسه وعمر فرهود يقتاد جمله ناحية السبيل ليسقيه الناس مزدحمون

حول السبيل يضحكون ويتعابثون ورجل يصيح بهم جادا ·

– اشرب وصلى على النبى ·

والسبيل عليه قبة صغيرة كأنه شيخ صغير ، قبة تستر زيرين باردين فى الظل وهناك طلمبة تضخ الماء فى حوض لسقيا الدواب واذا فرغ ماء الزير فان ابن الحلال سوف يملأ الزير الفارغ يملأ عمر فرهود الكوز ويعلقه فى العصا ويرفعه الى عبد العزيز ·

– اشرب وادعى للى عمل السبيل ·· انت صغير ونفسك طاهر ·

ويشرب عبد العزيز ويتفكر فمين أقام السبيل ربما هو رجل طيب مثل ابيه الحاج كريم الذى يطعم الناس الجوابين فى البلاد ·

ويستخف عمر فرهود الفرح فيضرب الجمل – رفيقا به – بعصاه ويهتف ·

– هيه ·· هيه ·· يالله ياجدع ·· خلاص وصلنا ·

وبعد قليل تظهر على البعد قبة السيد البدوى وحينما يراها عمر فرهود يزعق زعيقا يشق الفضاء ··

– مدد ·· مدد يا بو فراج مدد ·

ويتأمل عبد العزيز قبة السيد البدوى ونوع من الخوف يتمدد فى قلبه ..

ويصفق الحاج كريم بكفه على باطن قدمه المجوربه وهو جالس على المصطبة أمام دكان على خليل وحوله الرجال المسافرون ·

– عين المؤمن تشوف قبة السلطان وهيا بينها وبينها بلاد وبلاد ·

يصمصص الحاضرون الشفاء ويؤمن محمد كامل

– ايوه ياسيدى ايوه ·

ويكون على خليل قد فرغ من ترتيب شأنه وهمس لامرأته الواقفة خلفه فى الدكان بما يجب عمله أثناء غيابه فيخرج الى الناس ينهض الحاج كريم وينهض الباقون ويبدأ الموكب مرة أخرى مسيرته ··

وعلى البعد كانت رشيدة واقفة أمام باب دارها تنتظر ملهوفة وصول ابيها؛ تسرع لتقابله فى الطريق وهى تحمل ابنها على صدرها وجهها فرح وهى تنحنى تقبل يد والدها ويقبل الأب رأسها ويداعب إبنها والولد يكشر ويشرع فى البكاء ويبتسم الحاج كريم ..

– بتعيط يابن الكلب ·· بدل ماتقول اتفضلوا قهوة

وترد رشيدة

– عنينا يابا .. قهوة ؟ ياريتك بس تشرب ميه من زيرنا .. يستبارك

ويمشى الحاج كريم وتمشى هى خطوات الى جواره ··

– البركة فيكى يابنتى بكره من بدرى يارشيده ·· عشان أكل الناس يا بنتى ··

ويكون الموكب قد جاوز الدار ·· كم تفيض عيونه على رشيده بالحنان ، وكم هى له محبة ··

– ارجعى انت يابنتى ارجعى

وتسلم وتقف والموكب يبتعد عنها

– مع السلامة تروحوا وتيجوا بالف سلامة ·· ربنا ما يحرمناش منكم أبدا ·· نور البلد ·· الدنيا من غيركم مالهاش طعم ·

ويمضى الموكب مجاوزا القرية على الطــريق الى المحطة ، على البعد فلاحون يعملون فى الحقول يرفع الحاج كريم يده بالسلام ، يترك الرجل عمله ويرد السلام بيده وصوته ، يبقى للحظات ينظر للمسافرين ثم يعود الى فأسه مرة أخرى ٠٠ والرجال جالسون على المصاطب امام أبواب الدور فى القرية التوام يقرئهم الحــاج كريم السلام فيهتفون بأعلى أصواتهم مجيبين الســـــلام وهم وقوف ويعزمون على الرجال والموكب يضج والدعاء

المحطة رصيف مرشوق فيه عمود يحمل لافته عليها اسم القرية يزدحم الآن بالرجال المسافرين وبضعة نساء ينزوين بجوار السلال والصرر، الحاج كريم يضم عباءته الى صدره ويستند على عصـاه وينظر الى الأفق البعيد .. العايق يخرج ساعته من جيبه .

ـ ياجماعة لسه بدرى عالقطار

يمد الحاج كريم يده فيستند على أحمد بدوى حتى يجلس على رمل الرصيف

ـ بارك الله فيمن جلس

ويتحلق الدراويش حوله ، يضع عباءته المطوية على فخذيه المتربعين ويرتكن عليها بمرفقيه ويشرع بصرة ناحية الأمام ، على البعد تقع قبة السيد البدوى ٠٠ وعما ساعات قلائل يكون لقاء الاخوان من البلاد البعيدة ٠٠

عبد العزيز ينقل بصره بين الوجوه المتحلقة واحدا أثر واحد ، الفرحة والخوف ، السفر تجربة خطيرة غريبة محوطه بالمخاوف ٠٠ عشرات الحكايات الصغيرة تحكى فى المجالس من الآيبين من الاسفار على الكيان وعلى المصاطب أمام أبـواب الدور تصنع خوف هذه اللحظة ، غسلوا جلاليبهم وحملوا زواديدهم فى الســلال وها هم سيركبون القطار ٠٠

لكن القطار لم يأت بعد

ـ ألف لك وحده ياعم الحاج

ـ لف ياعايق

أصابعه ناصعة البياض لم تخشوشن بالعمل فى الحقل ماهرة مدربة وجهة أكثر وجوه الحاضرين حيوية فيه شيء ما شبيه بالعالم الذى هم مقبلون على خوض غماره، شيء وقح جسور الكل يراقب وجهه وهو يلف السيجارة وكأنما يحس بهذه النظرات فيزداد وجهه توهجا واستخفافا ٠٠

ـ حاكم ولاد البندر دول ولاد قحبه

تصدم الكلمة البذيئة احساس الدراويش ويفضى الحاج كريم كأنما لم يسمع لكن ثمة جو من التسليم ، ياما سافر العايق ، بناته يعملن خادمات فى بيوت أهل البندر ، يسافر لتحصيل أجورهن وحمل ما سرقته البنات له من هذه البيوت المليئه بالأشياء اللطيفة ، كثيرة يغفل عنها أصحابها أو يستغنون عنها ملابس وملاعق وجوارب ومناديل هم مسافرون الى مدينة أولاد القحبه ٠٠ تشدهم بكل ما فيها من ألم اليس فيها مقام السلطان ٠٠

حينما يصعدون الى القطار سيكون ثمة دكتان متقابلتان وسوف يجلس الحاج كريم فيما يلى النافذة، والى جواره احمد بدوى وفى مقابلته محمد كامل وعلى خليل ويتناثر الرجال وبضعة النساء فى المقاعد على جانبى العربه ٠٠ وتحل لحظه دهش وغرابة والقطار يهدر متحركا ثم يقبل الكمسارى من بعيد جهما صائحا يجتــاح العربة خابطا ظهور المقاعد بمقراضه ويلكز الأكتـــاف ويثور على الارتباك التبلد والوجوه الشاحبة بالخوف ويرتدى وجه الحــاج كريم قناعا باسلا .. ويقتم من الغضب ويهب ليدافع عن رجــاله

فما دامت الورقة فى يد الرجل فليس لأحد عنده شىء وما القطار الا مركب موطأ لمن دفع أجرة الركوب ..

حينما كان عبد العزيز طفلا كان يبقى واجف القلب فى انتظار اللحظة التى يلتحم فيها أبوه مع الكمسرى ويفرح فرحا عارما حينما تنكسر حدة ذلك الأفندى على عناد أبيه الصلب وينصـــت لأبيه مشدوها وهو يحكى عن وقائع كهذه مع ناس آخرين رفيعى القدر .. فما كل الاسفار للسلطان وانمـا قد يدعى الأب لمقابلة مأمور المركز .. ويحكى جهما يتفزز فى مكانه من الحنق ..

ـ قلت له على مهلك يامأمور المركز .. على مهلك توصل .. احنا ضعاف مالناس فى نفسنا حاجه ..

ويكاد قلب عبد العزيز أن يتوقف ويكاد المأمور أن يقفز من مكانه وينقض على الحاج كريم ليعصف به لولا أن يدخل طبيب الصحة ودون أن يعلم بما يجرى يسلم على الحاج كريم بحرارة ..

ـ سعادة البيه ما يعرفش الحاج كريم .. ؟ دا راجل عظيم

يكتشف الطبيب انهما كانا يتعاركان يضحك .

ـ انتم لازم اختلفتم .. أنا برضه أول ماعرفت الحاج كريم اتخانقت معاه .. وبعد كده بقينا أصــحاب .. دا رجل عظيم يا سعادة البيه فى وباء الكوليرا كان بيشيل الناس على كتفه .. ويجلسون ثلاثتهم ويتحادثون ويتوادون ويرقد قلب عبد العزيز فى صـدره .

ـ المأمور صالحنى وجبر بخاطرى .. ووعد يجى يشرب قهوة فى الخـــدمة ..

ويستخفهم الفرح الغامر أحمد بدوى ..

ـ نبقى نقول للست آم طلعت تخلى الكنبتين عشان لو حد جه ما يقعدش عالحصيره

ويرد الحاج كريم

ـ اللى عاجبه حصيرتنا يجينا .. واللى مش عاجبه .. يادار ما داخلك شر .

ها هم فرحون برجلهم المسافر وهم مســـافرون معه بارح الكمسارى العربة ، زالت مشاعر التوتر واستراحت القلوب وبدأ الناس يتبادلون الحديث فى المقاعد على الجانبين والقطـار يمضى صخابا بين الحقول ..

وفى كل محطه يقف القطار ويصعد ناس مسافرون ودراويش حول رجلهم ، سلال الزاد والوجوه المليئه بالاهتمام والدهش وقليل من الخوف، أحمدبدوى يتأمل الوجوه والطواقى وأطواق الجلاليب، لكل ناس عاده وطريقه فى الزى والكلام .. ويتذكر الحاج كريم صحاب له كانوا هنا أو هناك يحكى عن كرمهم وتفانيهم فى حب أولياء الله ، ويحكى محمد كامل عن شيوخ لهم قباب فى هذه القرية وتلك والقطار يمضى الى قطب الأقطاب .

أهل بعض القرى يبكرون بالزرع وتلك حكمة منهم ، ما أقبح التأخر وفتور الهمه وبعض أهل القرى يخططون من الشمال الى الجنوب ويضحك فلاح من قرية بعيدة ..

ـ امال ياعم .. النباته مابتقباس فى الضل ، أول الشمس ما تفج من الشرق .. تشوفها .

والنساء مذهولات يسمعن طرائق نساء القــرى الأخــرى فى الطبيخ والحلاب ورقى الأطفال ومن فى قراهن من العارفين بالكتب والسحر وصنوف العمل ..

هكذا يكون السفر الى السلطان شوق ولقاء ، خوف ودهشه واكتشــاف ..

تحرك الذراع الفولاذى الهائل وارتج الرصيف تحت أقدام عبد العزيز وتفجرت النار فى احشاء الونش الأسود وبدأ القطار يتحرك وجوههم فى الشبابيك تضحك له والقطار يبتعد يأخذ شيئا معه كان يعمر القلب ، بدأ يخليه فى الفراغ والوحشة وقف مستسلما ينظر الى القطار وهو يبتعد حتى صار شيئا صغيرا بعيدا .

تحدر عبد العزيز راجعا الى القريه ، تجنب الطريق الذى مشى فيه موكب أبيه منذ ساعه مشى فى درب صغير يتلوى بين الحقول وحيدا ، معهم كان جزءا من جسد كبير يمضى والأقدام زحام يصك الأرض والسيقان تخب فى الجلاليب ، أوحشته الطمأنينة التى يحسها معهم لازال فى قلبه صوت القطار وهو يتضاءل موغلا فى السكون الأرض البنيه ممتده الى الأفق جرداء الا من اعواد شاحبه هزيله جلس على شاطىء ترعة الماء ساكن فضى فى الشمس بنى فى الظل ، شجرة شعر البنت تغسل غدائرها فى ماء الترعه .

ازدحم خياله بصور وجوههم ، زيتونيه الجلد هزيله شاحبه فى حياتهم افراح قليله اسفار قليله ، حينئذ تزد هى هذه الوجوه بالسرور . قبة السلطان على البعد فى مركز العالم والحاج كريم سمين ملىء الوجه بالصفاء والعيون بالتماعة الشوق وهم يبتسمون فى المجالس عن اسنان صفراء وقلب عبد العزيز مريض توجعه علة غير معروفه .

فدفعته كربته الغريبة مرة الى دارها ، دفع الباب ، قلبه ملىء بالكلام حتى ليفيض من عيونه ، كانت جالسه تتناول الماء من وعاء امامها وتغسل وجهها نظرت اليه بعيون صافيه بالود واسعه بالسؤال لكنه لم يجد ما يقوله . كر راجعا وأغلق الباب وراءه .

تناول من الأرض عودا وبدأ يمضغه حتى يتخلص من انفعاله ، طعم العود المر ينداح فى فمه ويزحف على كيانه ، سحت الدموع

على وجهه ، أحس ملوحتها فى فمه ، قام متثاقلا كرجل عمره ألف عام .

ـ لازم أسافر

لكن الى أين .. ؟ شريط السكه الحديد يسير مستقيما ماضيا كالسكين وبجواره خط أعمده التليفون .. ماشيان الى الأفق حتى يغيبا ، ربما فى آخر العالم ، الى أين يسافر لا يدرى لكن لا بد من السفر فلا شىء يبل هذه الحرقه الغريبه الا سفرة بعيدة ..

تذكر الرجل المسربل بالحديد ووجهه الرائق الطيب ، وسليمان العجوز والرجل أبو جريده المسافرون فى الزمان ما يكاد الرجل يجلس حتى تشتعل عيونه بالشوق وينهض للمسير ..

وتذكر الرجل الصالح سيد من محلة منوف .. ربما يعتصر الشوق قلبه فيحزم لفة الحصير ويحملها على خاصرته حتى اذا ما القى بها بين يدى الحاج كريم استراحت بلابله وآب رضى الفؤاد .

ـ أنا أحبهم .. أحبهم

وتدفقت دموعه حاره غزيره .

الخــــدمــة

فى المحلة الكبيرة ترعة تشــق قلب المدينة ، تذكرها والناس على شاطئيها كأفواج الذباب يغسلون الثياب وأوعية الطبيخ .. ضجيج النسوة وعراكهن واصطكاك حلل النحاس ، وتذكر حديث اخته بلهجتها المحلاوية والنساء حولها ، والأخوات مبهورات بها.. صارت طرية عذبة السمرة كنسوة البنادر ، تذكرها كيف تأخـذ الثياب والأوعية الى هذه الترعة لتغسلهم ، فالبحر لا ينجس ابدا ولو القيت فيه الجيف ، أما ماء الأنابيب فمن يعـــرف مأتاه ؟ ! هؤلاء الناس وترعتهم راقده كبقرة قذره طيعة الضرع تخلى بين اخلافها وبين الحالبين .

ما المحلة الا قرية كبيرة بترابها وذبابها وترعتها ، لكن هذا شارع البحر فى طنطا، متنزهاته المهندسة وأشجاره المقصوصة الفروع ، وواجهات البيوت فى العمائر الكبيرة ، كان ثمة ترعة هنا ، دفنت وشيد فوقها ذلك النظام الرائع من اشجار مقصوصة وعمائر عاليه يحس هسيس الأصوات بعيدا تحت أقدامه ، النسوه المتعاركات على شاطىء ترعة طنطا ، ضحك فى نفسه ، بعيدات غائرات تحت الاسفلت الذباب والبعوض والبراغيث ، مقبرة الليل والنهار فى القرية ، ما ابهى النظافه والنظام ، طنين هذه الاصوات بعيد تحت اقدامه غائر مدفون تحت الاسفلت ..

كذلك ذكرى وجه ذلك الصبى ، يتعذب بالغناء ، ضحك فى نفسه مرة أخرى ، الولد كان ناحلا كالطيف ، لكنه كان ممتلئا بحياة تنفجر فى الغنــاء الحزين .

يا عينى يا بحر طنطا   عملوك سكه حديد

كان يتسول فى قطار يدور على قرى الاقليم يجمع المسافرين الى طنطا وخلفه اخته تسند الغناء بدفها الصغير .. ذكرى بعيده كطائر شاهق فى السماء لا يبدو منه سوى نقطة سمراء ..

البنات فى الشرف ، الشعور المقصوصة والضحكات الرائقة والحدائق الصغيرة المسورة أمام البيوت ، وأطفال فى الأراجيـح ونسمة نظيفة تملأ صدره كقلع مرح يطير على النيل ، ووقع حوافر الحصان على الأسفلت اللامع ، وعجلات الحنطور تكر كريرا منتظما .. وتصور ...! فى الشجر ورد أحمر ، يراه للمرة الألف لكنـه يحب لونه للمره الالف ، احمر فاقع الحمره .

سار عبد العزيز وحيدا لكنه كلما أوغل سيرا نازلا نحو قلب المدينة بهت ذلك اللون الناصع النظيف وبدأت تشوبه شـوائب رماديه وبدأت تنشط حركة الماره وتسرع الحناطير وتمضى السيارات صخابه تنفث الدخان والبخار من انوفها واذنابها وبدأت واجهات البيوت تغبر وتظهر عليها اللافتات معلنه عن أطباء ومحامين ثم تظهر الدكاكين على الجانبين وعلى ابوابها اللافته الهائله معلنه عن البقاله والسجائر وحتى ورش اصلاح السيارات وبدأت المتنزهات فى وسط الشارع تفقد اعتزازها بنفسها وتتهدم الأسوار اللطيفة المحيطه بها ، وتستنزفها اقدام المارة وتهرىء اخضرارها .. وبدأت الثياب تبدو أقل ازدهارا بل تبدو متسخة أحيانا والوجوه تشحب مرهقة وعنيدة .. الضحك المتدفق يعبر عن جلادة صخرية لا عن سرور عذب رقيق ..

ثم بدا يرى وجوها ريفيه ، بدأت الطواقى والجلاليب ترى فى الشارع منتشره فى غير ما نظام ، جماعات متباعدة يمشون مذهولين مفتوحى العيون يتلفتون فى حذر ، عرف عبد العزيز فى عيونهم

ما يحسه داخله من شـوق للنظافه والبهـاء والجسامه ، وعيهم يشرب ما حولهم من عجيب المشاهد وعصى الخيزران .. ؟ لماذا .. ربما هى العاده وربما الخوف ، الخوف الذى يصحب الريفى اذ يخوض المدينة فالعصا ان تحكم عليها قبضة اليد يتروى الداخل ببعض الطمأنينه ..

ينتشرون بين أهل طنطا كالشوائب فى بيدر الغلال جماعات يتخطف أولاد البندر أطرافها سـخرية ، جذبا للثيـاب وخطفـا للطـواقى ..

– زوارك ياسيد .. كل نطع واخوه ..

وهم كالحدادى المذعوره يخمشون وينفرون دفاعا عن أنفسهم لكن لا يكفون عن السير ولا عن التلفت وامعان النظرات وشرب المشاهد العجيبه .

السيارات تمخر الشارع غبراء صاخبة مهدمة نافثة الدخـان والبخـار ، والحناطير تكر وراء خـيول مبرطعه تلهب ظهـورها السياط ، ودراجات تمرق يميل بها بها أصحابها يمينا وشمالا ، مجموعات الريفيين تنفك وتتبدد من هذه الآلات الطائرة على اليمين وعلى الشمال، ولكنها سرعان ما تأتلف مرة أخرى فى حلقات صلبة تنظر للعالم الغريب بعين واحدة مبهورة ، وأذهان متوقدة تجـول الرؤى الى حكايات ، وعلى المصاطب والكيمان يدور الكلام فى الليالى ضاحكه تلك الحكايات لكن فى قيعان الكلمات آثار القهر .. وفيها السخرية تقلب البطن من الضحك فهؤلاء الناس لهـم قدره هائله على السخرية وهذه العيون الفاحصة لاتعدم العيوب والمضحكات فيما ترى .

ميدان البلديه على واجهة السينما اللافتات مكتوبه بحروف فى حجم الاطفال وصور الممثلين فى أحجام مهوله عبر الميـدان

الجموع مديرة ظهرها للشارع والأبصار معلقة بالمناظر المرسـومة على الحائط وبين لحظة وأخرى يتجاسر واحد ويندفع نحو شباك التذاكر وهناك يتكدس زحام الراغبين فى دخول السينما ..

شارع الخان زحام من الناس والبضائع وضـجيج مكبرات الصوت ، الباعة يعملون بأيديهم وأفواههم ، كتـلة من الأعصـاب النهمة للحركة والصراخ ، تسلل بين الناس يميل بكتفه يمينـا وشمالا متحاشيا الاصطدام الباعة على الجانبين يناوشون أطراف الحشد ويستميلون حواشيه الى الشراء لـكن الـكتلة المتدفقـة بين الشاطئين تنساب كالنهر .

سوق النحاسين ، الدكاكين الفسيحة الأبهـاء حيث تبـاع جهازات العرائس الدواليب ذات المرايا الكبيرة الصناديق المكسوة بالصفيح الملون .. صفوف الأوانى النحاسيـة البراقة المجلوة الحشايا والألحفة فى الوان من الحرير تخطف الألباب .. وبائع جهاز العرائس واقف فى وسط الدكان يبتسم فى فرح .. بائع الأفراح دائما رائق النظرة صافى الملامح .. يبارك ويخفض الأسعار بسخاء .. ولا يبقى له من ربح فى النهاية سوى معـرفة النـاس الطيبين ..

أين الحاج كريم ، كيف تتزوج عروس فى الدنيا دون أن يكون حاضرا ، البائع واقف بين يديه وأهل العريس وأهـل العروس متحلقين حوله .. والتاجر يقسم انه خاسر والحاج كريم يضحك.

– اللى عند الله مايروحش .. وبلاش القهوه ياسيدى .

كيف ..؟ تأتى أكواب الشاى النحيلة الخصور ، ذات المقابض والحواف الذهبية مرصوصة كالعرائس على صينية نحاسية رقيقة لامعة .. والبنات من اخوات العريس والعروس يسترن بالشيلان

الوجوه فما يبقين الا عيونا تحدق فيما حولهن .. ماذا تجدن فى بنات المدينة ياخبيثات ..؟ يطرن فىخوف ويشهقن متغامزات..

ينحدر الشارع متقارب الجوانب رطب بما يرشه اصحاب المتاجر أمامابواب دكاكينهم من ماء مبارك ، البيوت القديمةالمدخنة المشربيات من الخشب المشبك ، او الشرف الحديثة ، النسوة السمينات العاريات السواعد ، الرجال فى الجلاليب البيضاء الخفيفة وجورنال الأهرام وكوب الشاى الثقيل انحرف الى شارع سيدى مرزوق بدئت المقاهى تنشط بزبائن الريف ، والأرائك تصف على الرصيف فى انتظار أفواجهم القادمة .. وعلى الأرصفة بدات تنبت حلقات صغيرة فى مركز كل واحدة امراة سمينة ذات اسنان ذهبية امامها الوابور وعدة الشاى ودلاء ملىء بالجوز .. ضحكات قليلة ورشفات شاى وبعض انفاس حشيش .. اول الغيث ..

على الجوانب تصعد السلالم الحجرية الى باحات مربعة تقوم حولها البيوت وهذا هو البيت الذى ستكون فيه الخدمة .. الواجهات شبابيك مليئة بنساء طنطاويات ، المراة الطنطاوية لا تبارح الشباك ابدا فى القرية تنحدر من الشارع الى قعر الدار عن طريق الباب وفى قيعان الدور تجد نساءا كالبقر ، أما هنا فهن يتصايحن على بعضهن ويضحكن ضحكات طويلة مغناجة .. طواق الثياب منحسرة عن أنصاف الأثداء الثقيلة فى الثياب الرقاق .. الشعور لامعة تحت الترابيع المنحسرة المصقولة بالترتر ..

– تخان ياختى من اكل الفول أبوزيت ..

هذا ما تقوله رشيدة – يضحك عبد العزيز فى نفسه – وتجاوبها الحاجة شوق :

– وماهماش حاملين للدنيا هم ..

وتتدخل احدى اخوات رشيدة :

– تيجى وحده منهم تخبز اردب ولا تصلح الزريبه تحت البهايم ، أما نشوفها هتبقى تخن ايه ..

وتكايدها رشيدة :

– دا من نارك بتقولى كده .. عشان ناشفه على عودك .

عبد العزيز يضحك وهو يتأمل النساء الثقال فى الشبابيك .

ويتذكر الحاج كريم صاعدا هذا السلم الحجرى وئيدا يستند على عصاه ويضم عباءته الى صدره ، ويجول ببصره بين الشبابيك.

– نهاركو سعيد يا ستات ..

لا يقول لهن (عواف) هذه يقولها لنسوان البلد ، أما هنا فانه يكتسب لسانا جديدا رقيقا زلقا .. وتجاوبت الشبابيك بالضحكات تصايحن ببعضهن ..

– يوه .. ياختى دا بينهم جماعه موالديه .. هىء .. هىء .. شى الله ياسيد ..

وهو واقف يبتسم فى طمأنينة حتى تسفر ضجة التصايح عن جواب ..

– احنا موالديه ياستات .. دراويش السلطان .. عاوزنكم تساعونا مدة المولد ..

فهنا فى هذا الشارع تستأجر البيوت للموالديه ، العايق يتقلق فى مكانه بعوده الدقيق ينظر للنسوان فى نهم دون أنيتخلى عن مقبض سلاله ..

لقد داروا فى الشوارع وقرعوا كثيرا من البيبان .. وأطلت وجوه ريانه ..

ـ احنا موالديه ياست ..

ـ أهــلا وسهلا ياخويا والنبى كان على عينى .. اتفضلوا استريحوا شويه ..

الرجال فى شغل النهار ، تفتح الحجرات المعتمة الرطبة المفروشة بالكنبات العربية الوثيرة ، ويجلس الحاج كريم والى جواره العايق ، وتقدم القهوة ويدور الكلام ، الحاج كريم صناعته الحديث الطيب ، والمرأة تستريح على وسادة الصوت الودود ، لم تعد متوترة تدارى الانفراجة بين ثدييها الثقيلين الناصعين ولا تضم ساعديها وتدارى بياضهما الرهيف بكفيها ، أصبحت طلقة تسمع وترد ، وينتظم عقد الكلام ، الزمان والناس ، القرى والمدائن ، ما المدينة الا شجرة جذورها فى الريف ، ومن يدرى ربما قـرابة أو نسب المؤمنون اخوة وكلنا لآدم ..

ـ والنبى كان على عينى .. دانتوا باين عليكم ناس طيبين ..

صحيح لم يستأجروا البيت لكن .. حبل الوداد قد اتصل وخلال مدة المولد سيأتى العايق كل حين عليه جلبــاب خفيف وطاقية وشبشب يطرق الباب ..

ـ ياست أم فلان ..

وتبرز فى ثياب البيت المنحسرة عن كثير ، ويضحك العـايق ويكركع ويحمر وجهه وتبدو أسنان أهلكتها الكيوف ..

ـ عاوزين الوابور بتاعكم ياستى ينوبكم ثواب ..

ـ من عينى .. سلم عالحج كتير . وقوله ست أم فلان بتقولك افتكرها فى القراقيش والدقه ..

ـ حايشين لك منابك .. هجيبه بنفسى ..

ويوم استئجار هذا البيت مال الحـاج كريم على العايق .. وقال له :

ـ البيت ده يبقى حلو قوى ياعايق .. الوسعه اللى قـدامه دى تساع الذكر فى الليلة الكبيرة ..

العايق يتقلق فى مكانه والحاج كريم ينتظر أن يسفر تصـابح النسوان عن جواب ..

ـ ياست أم طلعت .. ياست أم طلعت .. عندها شقتهــا ياخويا دور أرضى .. وكانت ناويه تأجرها للموالديه ..

وخرجت أم طلعت للحاج كريم عيونها سوداء واسعة غريبة .

ـ اهلا وسهلا .. .. مدد ياسيد .. اتفضل ياحج .. والنبى انت باين عليك طيب .. وعليك القيمه ..

طلقة متدفقة غريبة العيون (عليه القيمه) حقــا ، والا ماذا يسمى ذلك الذى يتيه فى جوانب جسده المكين وعيونه الرائقــة الفرحانة وثيابه المكوية وعمامته النــاصعة المشرعة على جبينــه الأسمر مشى تتحسس عصاه طريقه على بلاط الصالة فى حـذر مطمئن ..

ـ يا ستار ..

والعايق يضحك من وراءه ..

ـ ربنا يجعل لنا نصيب عندك ياست ..

وصورة الزوج ـ هوالآن فى الشغل ـ معلقة على الحائط فى الصالة ، يدخلون الى حجرة يزحم نصفها سرير نظيف ناصع الملاءة وسائده منقوشه ترى العين طراوتوها السخيه .. الوسائد وصدر أم طلعت الثرى ونعومة البسـاطة والكنبة الوثيرة والعتمة والرطوبة

العذبة .. الغرفة مفعمة بالليونة .. والحر فى الشارع لافح تأتى ام طلعت حامله صينيه الشاى الصفراء اللامعه وعليها الأكواب الخضراء من الزجاج الرخيص ، والابريق .. ابريق الشاى وضعت الصينية على نمرقة بينها وبين الحاج كريم ، على وجهها غشاء رقيقا متوردا ، كيانا مفعما بالشقاوة ، وتشرق الابتسامة فتضىء الخدود وقمم الوسائد والفرجة بين الثديين الناصعين وعيون الحاج كريم ..

– ولك شيخ برضه

– طبعا

– هىء .. هىء .. شيخكو له كرامات

والعايق يسرسب الكلام

– هوا فيه يا ست شيخ من غير كرامه

لكن الحاج كريم وقور مكين يغيم وجهه بسحابة عابرة من عبثها بالشيخ وتتحرج من عبوسه المفاجىء وترتبك وتشيح بوجهها وتنقل الكوب الملىء بالشاى الساخن من يد الى يد ، وتكه صغيره ينشرخ الكوب ويسيل الشاى فى يدها وعلى حجرها وتهب واقفه مذعورة ويصيح العايق ..

– الله حى

ويقف فى وسط الحجره يتقافز ملتاعا والحاج كريم يهمهم فى رجاء

– بسم الله الذى لا يضر مع اسمه شىء فى الأرض ولا فى السماء وهو السميع العليم ..

وهى تولول فى صوت باك .

– يادى الحوسه . شيخكو خلقه ضيق قوى .. ايدى اتحرقت خالص ..

ونعرض فى تردد يدها على الحاج كريم يتناولها فى كفه الاسمر السمين

– سليمه انشاء الله .. ما فيش حاجه .. الشيخ بس حب يقرصك فى ودنك .

واغمض عينيه وبدأ يرتل .

– (ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا أو اخطأنا ..

ربنا ولا تحمل علينا اصرا كما حملته على الذين من قبلنا ..»

تحدرت رموشها على وسائد خدودها الوردية ،ونظر العايق اليها وهو يلعق دون وعى أطراف ورقة البفرة يلفها حول حبة دخان الفرط .. وتسلل الولد عبد العزيز الى حضن أم طلعت وقبلها فى خدها .. أحبها كما لم يحب أمه ، وضمته هى الى صدرها ورأسها منكسه .. وسرسب العايق كلاما كثيرا ..

– الطريق كله خير .. كلنا على باب الله .. مش باقى غير الطيب .. لولا الطريق علينا .. بوس خالتك باوله .. وماله .. والله الحاج كريم احسن راجل ، شىء فى كرم ربنا .. قاللى يا عايق ايه رايك فى البيت ده قلت له خش يا شيخ ربنا يفتحها فى وشك .. كلنا دراويش السلطان ..

صوت العايق خلفيه متهدجه للصمت المفعم ، ضم الحاج كريم عباءته الى صدره وقام متمهلا مستندا على عصا ثم خرج يدب وئيدا على بلاط الصالة نحو باب الخروج .

النسوان يتضاحكون فى الشبابيك .

– هىء .. هىء .. اهم يبقوا يفقروا قدامنا .. هىء .. هىء .. وناكل عيش ودقة من بتاع الموالديه ..

يسمين الذكر (تفقيرا) يالهن عبد العزيز يبتسم جائلا بعينيه بين الشبابك ياله من شارع شارع سيدى مرزوق .. من يومها

لم يستأجر الحاج كريم غير هذا البيت .. أم طلعت امرأة طيبه بل ثمة قرابه بعيده ، الارحام ، بالقدرتها على وصل احبال الموده بين الناس .. سيكون لهم فى المدينة بيت يملكونه يملأونه خبزا وجبنة ، وقراقيشا .. سوف ينصب الزير فى الركن ، صنابير..؟ من له صبر على سيل الماء من الصنابير .. انما الماء ان يغرف غرفا ويعب عبا ، سيمتلىء البيت بالرجال والنساء والأطفال من كل القرى .. يدخلون فيه ويخرجون منه .. الى اين .. ؟ الى البيت من اين .. ؟ من البيت ، الطنطاويون جيران لهم لا خوف بل سلام ومساء خير وصباح نور .. وكعوب الرجال لامعه فى الشباشب الخفيفه فلا تراب فى الشارع ولا وحل فى الحقل والعايق رسول الخدمة الى كل النساء «هات سكينة .. هات بصلة» .. ابيض ناصع زلق هذا العايق ، من لهذه المراسيل غيره .. وسوف تكون النساء قرايرات هامسات ، والرجال يبتسمون ويقولون نعم بحنان .. وحتى سوف يغسلون الأطباق بأنفسهم أحيانا ..

ربما كان هذا من عادات الطفولة التى بقيت معه أن يمشى شاردا يقرأ اللافتات ويتفرج ويترك للشوارع ان تقوده دون ان يدرى بها .. هكذا كان يمشى و هو صغير يسلم يده لابيه يتولى قياده سارحا يتفرج، انتهى شارع سيد مرزوق الى شارع السكة الجديدة الى ميدان المحطة .. انقبض قلبه ، ادرك كل شىء فى لحظه ، نصو على الابواب من حيث يتدفق الريفيون القادمون من البلاد آلات العساكر الرهيبه على ظهور الخيل وعلى الاقدام فى ايديهم العصى وفى وجوههم الشراسة .. (كل هذا من أجل ان يتأكدوا من أن كل واحد يحمل تذكره .. يا الهى .. من يصدق هذا .. ؟) .

انقبض قلب عبد العزيز واختنق حلقه ، تقدم ثابتا نحو المحطه السور العالى المحيط بالباحه امام المحطه اغلقت كل ابوابه ماعدا

ثلاثة أحكمت عليها الرقابة ، على كل باب بضعة موظفين وشلة من العساكر ، آلة بشرية لبث الرعب فى الأرتال المنسابة ينقضون على الناس بلا رحمه كالحدادى ينهالون بالعصى كيفما اتفق وتخلق كل هجمة حلقة من عيون مذعورة وصرخات عالية ويفلتون الى الناحية الأخرى مشتتون مشعتون طائرى الطوافى لتتجمع الزرافات مرة أخرى بعد الباب بقليل ، تلم نفسها وتلتقط انفاسها، يضحكون للخلاص ثم ينطلقون الى الشوارع مفتوحين لتلقى المدينة بكاملها ..

ــ مدد يا سيد مدد .. جينا يا ابو فراج

صيحات فرحه وزغاريد نساء وحتى بكاء الاطفال يتحول الى شيء دهش مبهور .

تقدم عبد العزيز وئيدا كل انتباهه فى عيونه واذنيه يده مشرعة باشتراك السكة الحديد دفعه الموظف الى الداخل والتفت لغيره تلقى الدفعة حاقدا صموتا ومضى مالئا قلبه كبرياء وازدراء نحو المحطة .. وهناك أبصرهم فى الفناء الحاج كريم يتقدمهم ضاما عباءته على صدره ومستندا على عصاه .. وتلك المصفاة الرهيبة عند باب السور ..

مضى نحوهم ، العايق فى الخلفية يبهدله السبت ، والعراقى الأطرش ، ما جدوى اللحية والعمامة الحمراء الآن ينظر حواليه بسرعة كعصفور مطارد .. احمد بدوى ومحمد كامل وعلى خليل والشركسى ، النجار وغيرهم كثير والنساء فى الخلفية ينظرون اليه بلهفة .. تقدم الى الحاج كريم وقبل يده فى حنان غريب كالخوف الذى يكاد يقتله .. والرجل يقبل ابنه فى جبينه ، راى شيئا منكسرا فى عيون أبيه قفز ذابحا احساسه تتلقفه صدور الرجال ، يضمونه بقوة رجل بعد رجل وهو غارق فى ود لم يجرب

فى حياته أعمق منه ، هؤلاء الناس كان معهم بالأمس فى ردهة الدوار تحت الفـانوس .

ـ ازيك يا عبده ..

احمد بدوى متوهج الوجه بالسرور قصير مكين الجسد دفاق العاطفة .. يبتسم على خليل فى تردد ، شاحب الوجه يحمل علامة صلاة كبيرة في وجهه ..

ـ أهلا وسهلا سى عبده

يحبس بهجته خلف سكينه وجهه الاليمه ..

ـ الله يفتح عليك يابنى

محمد كامل عميق الصوت عميق الملامح عميق العيون ابتسامته حزينه، حزنها جزء من تكوينها تشرق منه وتغرب فيه .. والعراقى يتقافز كقرد فى يده سلة .. والعايق يسرسب الكلام .

ـ دا خلق ايه .. أمم .. مدد يا سلطان آى نعم .. بس حتى بدل القطر ما يدور يتطلع فى المحطات ، يجرى جرى يجيب من الخلق دى كمان دور ولا اتنين .. انما تقول لمين ..؟!

وعيناه تطرفان ناحية البوابة ..

هؤلاء الرجال فى ثيابهم الرخيصه وطواقيهم الصوفية الحمراء ووجوههم النحيلة المدبوغة بالشمس المبقعة بسوء التغذية هـؤلاء الناس المستطارون خوفا هى اباء عبد العزيز قلبه وعيونه يتحلقون حوله وينظرون له .. لكنه يتمنى لو كانوا أكثر نظافه أكثر جساره ليسو هكذا فقراء جاهلين خـائفين ، فى المدرسه يباهى بانه فلاح أمام ابناء البندر يباهى بذلك بقوة ووضوح لكن شيئا فى داخله ناقم ساخط ... لو كانوا غير ذلك ..

وكأنما يحسون بما فى داخله من صراع نظروا له متوجسين وتكلم احمد بدوى .

ـ لوحد من زملائك يا سى عبد شافك مع ناس فلاحين زى حالاتنا .. من باب الاستحراص برضه خليك بعيد عننا .. وآدى احنا شايفينك وانت شايفنا ..

عروا داخله بعيونهم الذكيه اكتسته لحظة خجل حاده كلذعة برد ..

ـ ايه الكلام اللى بتقوله ده .. أنا مايهمنيش حاجة .

ثم بسرعه افتكر فيما قاله ، فى رده اعتراف بحقيقة أحساسه نحوهم ، اراد أن يهتف قائلا « انتوا أحسن ناس فى الدنيا » لكنه لم يفعل ربما شعر مقدما فيما سيكون فى قوله من خور وماسيكون فى صوته من زيف لكن رده ـ على أى حال ـ بعث فى وجـوههم بعض السرور ، وعينا الحاج كريم تتأملان ابنه فى سكينة عاتبة .. كلما التقت العيون تبتعد بينهما المسافة . انه يحب اباه يحبهم جميعا لكن .. ماذا يفعل ، لو كان يستطيع لو طالهم هذه المدينة لأبدلهم ثيابا غير ثيابهم ، هم حـوله ينظرون له كل فلاح يرسل ابنه الى المدرسة ينظر له هذه النظـرة المفعمـة بالأمل والخـوف لكنها المدينة الكبيرة عبد العزيز يحب هذه المدينة ويحبهم أيضا لكنهم ينظرون له هكذا ..

ـ ربنـا يصلح حالك يا سى عبد .. وآدى احنا نبقى نمشى نهز أكمامنا على حسك ..

لكنه فى داخله لا يعتقد انه سيكون يوما شيئا خطيرا فى هذه المدينة انه يحب ضجيجها ونظافتها وفتياتها يحب السينما والكتب يفرق فيها ازمته يخضع لها ويسلمها قلبه بكل خلوص لم يرغب

ابدا فى السيطره عليها كل ما يريده ان تنفذ الى مسام تكوينه وتستأصل ذلك الالم الممض الكامن فيها كالسرطان ..

انه يعرف كم هى قاسيه هذه المدينة يعرف هذا بخاصة حينما يتأمل هؤلاء العساكر هذه الوجوه الريفيه التى تصب غضبها على الارتال من الريفيين ــ يعرف قسوة المدينة ــ لكنه يغض الطرف عنها ويحاول ان ينساها لكن خاطرا يهاجمه بقسوة احيانا ترى هل تشده هذه المدينة يوما حتى تحوله الى عسكرى يحمل وجها ريفيا وخيزرانه وسباب بلغه البندر .. يار ب كل شيء .. ياله من خاطر مفزع ..

أشرع الحاج كريم عصاه الى الأمام ، اشرع وجها حزينا وسار عيناه البنيه تطفو على تلك الآلة العصبيه الهائجه المنصوبة عند البوابة يحاول ان يتحسسها بنظراته دون أن يراها كالمجوسى المقبل على اقتحام النار .. توقع للايذاء وصبر على ما سيقع منه لابد من المكاره فى الطريق .. آه يا أبى .

الحاج كريم فى المقدمة والرجال وراءه عيونهم تطرف فى خوف لكنهم يمشون خطوهم ثابت قدما وصوت محمد كامل العميق ..

ــ يارب ياستار .. الهم لا تسلط علينا بذنوبنا من لايخافك ولا يرحمنا يارب العالمين ..

اختطف الرجل تذكرة الحاج كريم ودفعه فى كتفه .. ربما كان الحاج كريم قد سار خطوة للامام فلم تصبه الدفعة .. او ربما هى كرامة الأولياء .. المهم ان خطوة الأكيد لم يضطرب تضامت الجماعه من خلفه وطاشت النظرات فى كل اتجاه واصفرت الوجوه وارتفعت غابة صغيرة من الأيدى حاملة التذاكر ومن الايدى تختطفها ومن الايدى حامله العصى تريد أن تهوى بها

اضطربت الأجساد وتزاحمت مذعورة لاتدرى أين تهرب ، عبد العزيز تحمله الموجه العشوائيه حتى خلصوا الى الناحية الأخرى من السور حبات العرق تلمع على الجباه وتشرق الابتسامات العراقى استخفه سرور مجنون .. كان الحاج كريم قد استدار ووقف تجاههم ينتظرهم عيناه عليهم خارجين .. تبرقان برقا خافتا كنجمة أخيره ..

الغضب يعصف بعبد العزيز والرعشه تهزه .. ادار وجهه بعيدا جسده يفقد تناغمه مع كتلة الرجال ويتخذ لحركته مسارا نافرا مترترا الرجال ينظرون اليه وهم يسوون جلاليبهم ويعدلون طواقيهم حيارى وخزيانين قليلا ..

ــ معلش ياسى عبد العزيز .. احنا يا فلاحين كده .. مخلوقين للبهدله ..

والعايق يسرسب الكلام السبت يملخ ذراعه من كتفه .

ــ لو كنا بنخدم غازيه كانت حفضت لنا كرامتنا شويه .. مدد يا سيد .. آدى احنا جايين لك يا أقرع ..

والناس فى الميدان كانهم سرب كثيف من الحمام واقع على حقل والعرباب الهادره تشق سبلها بينهم تتكون الدوامات والتجمعات والتشققات بفعل الذعر والصوت الهادر ..

ــ يا ستار سترك .. ولاد كلب بتوع كبابه .. سواقين ولاد قحبه يخرمو فى لحم طرى .. ما فيش حكومه .. ياجاه النبى .

عبد العزيز يود لو خنق هذا المأفون المذعور كل يوم مسافر الى مكان ما من انحاء الدنيا فى زيارة بنت من بناته اللائى يخدمن فى بيوت البنادر وكل يوم يعود بحكايات وحكايات عن اسفاره ، وها هو طائر اللب تتخاطفه ضجة العربات المارقة ..

جسد عبد العزيز متصلب من سورة غضبه يتخذ مســارا غير متساوق مع جماعة الرجال تباعد عنهم لكنهم ينظرون اليه بعيون حذره الحاج كريم يسير بخطوه الوئيد كانه سائر الى شرفة الدوار لكن شيئا فى تربع اكتافه .. انكســار .. ميل للانحناء .. لماذا تحالفت المخاوف والغضب والمشاعر الغريبه على عبد العزيز فى هذا اليوم .. ؟

أول شارع السكة الجديدة المنازل القديمه الغبراء على الجانبين الظلل الممدودة على الدكاكين من الواجهة الى الواجهة ، ســقفية كاملة من الخيش ، سرداب معتم قديم يدمث نظرات العيــون فمــا تستطلع المشهد البدوى الا بعد أن تهدأ بلابلها بالرواء الطيب .. الآن المقام .. عبد العزيز يعرف الريث فى خطوة أبيه عندما تتجلى قبة السلطان ، يحزره قبل أن يقع ، وقلوب الرجال موصولة بقلب الحــاج كريم .. ذهلوا عن كل شيء وتعلقت الأبصــــار بمشــهد البــدوى .

أما عبــد العزيز فهو وحيد بينهم ذرات الحــديد جميعا افجذبت فى نظام نحو قطب المغناطيس اما هو فمن معدن غريب غير متجانس ..

ـ الســلام عليكم يا سيدى احمد يا بدوى .. السلام عليك يا سلطان .

يهمس كانما لصديق اوحشه

ـ جيناك باحمالنا يا جمل المحامل يا ابو فراج

لكنه لا يحى عبد العال ومجاهد الا متأخرا قبتاهما على جانبى قبة السيد البدوى الحاج كريم لا يعنى بهما كثيرا ويضحك عبـد العزيز فى نفسه فان نساء قريته مشغوفان بعبد العال تستعين به كل ضرة على ضرتها وكل حماه على امراة ابنها ينذرن له النذور

ويكنسن مقامه بالطرح السوداء .. وربما كان عبد العال شيئا مثل العايق هكذا ولوعا بالنســاء .. حتى بعد أن مات انغمس فى القضاء بينهن وفض مشاكلهن ..

حينما كان عبد العزيز صغيرا معلقا كالدميه فى يد ابيه يتطلع الى وجوه الاخــوان الخاشعين قبــالة قبة الســلطان .. ضــغط الحاج كريم على معصم ابنه .

ـ الصالحين يشوفوا القبه دى وبينهم وبينها بلاد وبلاد

وفى القريه يصعد عبد العزيز على السطوح محاولا رؤية القبه لو قد رآها مرة واحدة ..!! عيونه تتسكع بلا معنى حول القبه والهلال ، ثمة خروق وتهتكات فى كساء القبة الذى كان أخضر يوما من الأيام الأولاد الطنطاوية يمرقون بعجلاتهم كالسهام على رؤوسهم الواح الأرغفة او فى أيديهم بوابير الجاز والكلوبات ..

ـ اوعى الجاز .. يا باب النفس يا سيد .. زوارك يا سيد كل بأف واخــوه ..

الســياط تمزق الكبرياء الخاشع .. يود لو يشــنق هؤلاء الاوغاد ، الحاج كريم يلتفت نحو ابنه ربما كان يريد أن يقول له

ـ يا ولدى احنا محاسيب السلطان

لكنه لا يقول .. يشرع عصاه ووجهه ويمشى

ساروا فى شارع السكة الجديدة ، الدكاكين والدكك امامهــا محمله بتلال الحمص النوافذ الزجاجيه مزدحمه بالحلوى بيضاء وحمراء العلاقات محمله بلعب الاطفال وتبرق من وراء الواح الزجاج الاساور والخواتم والاقراط بريق المعادن والوان قطع الزجاج تخطف الابصار تتارجح مع الهواء شيلان البنات وملافح الرجال من الحرير والقطن ضجه الميكروفانات المعلقه على الجانبيين ونشــاط الباعه

الهائل فى العرض والاغراء .. ابتسامات ميكانيكية من وجوه عصبيه مجهده محمره يسيل منها العرق ونهر الفلاحين السائر يتلفت فى حذر ..

الحاج كريم يتأمل ما حوله فى ابتهاج يدفع الاكتاف فى هواده تلكهى طنطا المزينه الصخابه النظيفه القوية ..

ـ ياولاد .. عاوز اميل اسلم عالحاجة ..

وتضحك الوجوه ويترك العايق سلاله لمحمد كامل ويترك احمد بدوى سلالة لامرأته ، ويميلان مع الحاج كريم ويمضى الباقون الى بيت الخدمه ..

الضحكه توشوش فى صدر عبد العزيز خطوات الحاج كريم خفيفه نحو دكان تاجرة الخردوات .

ـ سلامو عليكم يا حاجه

تنهض من على مكتبها ضخمه لحيمه بيضاء تعصب المنديل الاسود يشف عن نصاعة جبينها وتضحك عن صف من الاسنان الذهبية ، بالجسارة عيونها كيف يستطيع رجل أن يركبها ...؟ الحاج كريم فى جسده مروة غريبة ، يتفزز كجواد ، وهى تميد فى ليونة ..

ـ سلامو عليكم يا حج كريم .. ما بيجبكش الا العزيز الغالى يلوح بيديه كانه ممثل على خشبة مسرح

ـ آى والله .. شوفنا السلطان جايينا على وشنا .

ويجلس قبالتها ، يدها بيضاء منمقة ومعصمها زاخر بالأساور الذهبية والدكان رفوف مرصوصه مليئه بالوان الحلى والمناديل وقنانى العطر .. وضحكات الحاجة المجلجلة العايق متوتر على كرسيه مفتوح العيون تلعق شفتاه بلا وعى ورقة البقرة واحمدبدوى

يبتسم كطفل فرح كانما خرجت الابطال من كتب السيره وانتصبت امامه يتبارزون ..

ـ تعالى يا حج كريم افتح لك دكان هنا جنبى

ـ التجارة مش شغلتى .. انا شغلتى الزراعه .. احرت .. واروى .. الأرض السوده ـ اخضرها ..

وتغرق فى الضحك جرس ضحكتها ووسوسة الاساور ياما عشقت يا عايق ابدا ليس كهذه ، الحاج كريم فارس خيل وهذه فرسه المدلله .. النار العارمه فى قلب عبد العزيز لم تسقط عليه من السماء تسللت من هذا الاب لا يكلمها كما يكلم النساء فى البلد له معها لسان بندرى معوج ..

ـ هيا الفلاحين تتسكن يا حج كريم .. هنا الزينه والابهه

ـ تتسكن .. الفلاحين تتسكن .. البندر للزياره نزور ونرجعه لأرضنا ..

وجاء الولد خجولا يخبط صينيه بمعلقه الشاى جمع اكواب المشاريب الفارغة ومضى ..

ومشى الحاج كريم فى شارع السكة الجديدة ووراء أصحابه الثلاثة ثم انحرفوا جميعا الى شارع سيدى مرزوق ..

ـ نقول سلامو عليكم لحامولى يا رجاله

سكتو موافقين

من بعيد كان الحمولى يفرش الرده لكتاكيت خضراء على الأرض أمام باب الدكان والحاج كريم ينظر اليه مبتسما ويتقدم نحوه وئيدا أقام الحمولى قامته ، طويلا نحيلا متدلى الذراعيين ضخم الكفين يبربش عيونا محمره الجفون .. ابصر الحاج كريم

ــ أهلا .. اهلا .. اهلا

وقامته تهتز على ايقاع الترحيب

ــ دا نور ايه ده .. دا نور ايه ده

ــنورك يا حمولى .. السلام عليكم ورحمة الله

ويسلم على ضيوفه ويجرى يقلب صناديق زجاجات الكوكاكولا الخشبية ليهىء لهم مجلسا وتنهض امراة الحمامولى قصيرة سمينه بيضاء عيونها هى الأخرى محمره ملتهبة الجفون ربما من كثرة ركوب الحمولى فوقها .. كانت قد اعدت من قدمنها مجلسا لطفلها يخرء على الأرض فى استمتاع والآخر غير بعيد ــ يعجن التراب فى بوله ..

ــ يا تلتمت مرحبه .. رجالة السيد عليهم نور

اراح الحاج كريم ذقنه على عصاه .. وطفق يتامل الحمولى الجالس امامه يخبط ركبتيه بكفيه الكبيرتين ويحكى وهو ينصت له بكليته .. كان الحمولى فلاحا يعيش حياة الريف البائسه الكئيبه كم كوته الشمس الظهيره وكم تمزق باطن كفه من القبض على يد الفاس كم عاش اياما على الخبز الجاف وجبن الجرار القديم كم اخلفته السنين وساء المحصول ومر العام يجرجر الأيام ثقيلة فقيرة على صدره عاش حمولى حياة القرية حتى خنقه الضيق .. وذات يوم حمل امراته وعياله الى طنطا .. كيف اجترا هذا الريفى على اقتحام المدينة .. لكن ها هو ذا له دكان وعيال يخرءون على الأسفلت فى استمتاع عيونه هاتان البؤرتان المحمرتان كاستى حمامه قادران رغم هذا على أن تعكسا الاحساس بالانتصار امام هؤلاء الزائرين العابرين للمدينة ..

ــ القهوه يا بت

المراة تطرف فى رضى.. وعبد العزيز متوجس من محنة القهوه

القادمه .. ستكون شابا وسيكون الشاى طعمه جاز او لبان ذكر او شيء من محتويات هذا الدكان القذر ..

الحاج كريم الأنوف الذى تصنع قهوته بحذر كالعبادة .

ــ بابا هو دا شاى يتشرب .. ؟

ــ معمول باخلاص يا بنى .. تتلحس الكبايه كمان

ويلم بدكان الحامولى كلما تعب من الخدمة ومن الوقوف على قدميه طول النهار يطعم الناس ويستقبل القادمين ويودع العائدين يقلب له صندوق الكوكاكولا ويجلس قبالته حمولى يخبط ركبتية بكفيه الكبيرين ويحكى والحاج كريم ينصت باستمتاع والمراة جالسه على الأرض تطرف عيونها فى رضى ..

شارع سيدى مرزوق مرة اخرى ، الجماعات حول صانعات الشاى على الأرصفة، المقاهى والناس، أصوات المذياع وميكروفونات تحمل اصوات المغنيين المشروحه وتنثرها فى جو الشارع ، عشرات الريفيين ــ زحمو بالحياة الشارع الذى كان مواتا قبل يومين لقد بدأ المولد ..

الحاج كريم يتقدم عصاه تخبط الأرض فى وقع نشيط ..

ــ افراح السلطان يا ولاد

صعد الحاج كريم درجات السلم الحجرى وصعدوا وراءه ، وقف وسط الباحة التى تقوم البيوت القديمة العالية على أضلاعها الثلاثه مزدحمه بالطنطاويات ..

ــ نهاركو سعيد يا ستات

الزمن والغبار والوهن والتدانى خلقوا من هذه الواجهات العالية شيئا غاية فى التأثير ، جلاليب النسوة الزاهية الالوان ، الترابيع ذات الترتر المعصوبة على شعور سوداء مفروقة لامعة بالدهان

الوجوه المزدهية بالفرح مربعات الشبابيك الزاخرة بالحياةمتقاربة على اللوحه المعتمه الحاج كريم ينقل بصره بين الشبابيك بأناة والعايق قلق تستفزه فرحة تتوهج فى داخله وعبد العزيز يرقب النحور والفرجات بين الاثداء الصافية اللون فى شبق ، كم خلف هذه الوجهات من سراديب ، سلالم معتمة وغرف خلفية لا ترى الضوء وهو يتسلل كالقط ويصطاد الفتيلت ، وفى لحظات ضبابيه مرتجفه بالتوتر عميقة الى آخر كيانه خاطفه كالبرق يحظى بالقبل واللثمات ويخرج الى هذه الباخه الى مهرجان الزحام والدفوف والعرق والصياح ليفرق انفعاله فى الضجيج اللاغب ..

انهالت التحيات على الحاج كريم من الشبابيك

ـ أهلا ياخويا ·· والنبى ست أم طلعت مستنياكو مالصبح· يوه ·· هيء هيء ··

ـ والنبى ياختى عليهم نور .. ناس طيبين وبتوع ربنا ..

ويبتسم الحاج كريم فى رضى قرير

ـ كل سنه وأنتم طيبين

غارق فى هذا الاهتمام الناعم ·· ويستدير ليجد أم طلعت واقفة عند الباب ، الذراع اللحيم تهدل قليلا ، لكن العيون هى هى ، من يوم الفنجان المكسور وعبد العزيز لا ينسى ·· استجمع من غفلاتها صورا لاثدائها وبطنها وأووراكها ، يراها فى نومه يعجز عن انتزاعها من خياله ·· مشى الحاج كريم نحوها ، دمشه كأنثى ، دمشه فى كل ذرة من كيانها الناعم لينه فى عيونها لينه فى يدها التى تمدها للمصافحه ، لينه فى رأسها الذى يميل كأنما يثقل على رقبتها والحاج كريم روى الوجه بالابتسام تقبل يده ويقبل رأسها ، عبد العزيز ليس حزينا لكنه رقيق طيب الى حد البكاء ..

ـ طنطا نورت ياحج ··

ـ نوركم ياست ·· نوركم والله

وتسير امامه فى أرجاء البيت الخالى تنقل قدميها الخمريتين على البلاط المهشم وعصاه تنقر ارض الصالة هنا وهنا حيثما تسير ··

ـ خليت لكم البيت ·· لكن كل حاجه بتاعتكم ·· أى فرش ·· كنبه ·· مراتب أى حاجه بس أطلب ياحج ··

الرجل قائمون اطار من الابتسام حول لقاء أم طلعت والحاج كريم وينظر لهم ويضحك فى وجوههم ··

ـ السلام عليكم

ـ عليكم السلام ورحمة الله

ويحل الصمت لثانية مفعمة .. ثم تنفجر ضحكات تلقائية .. فيض من قلوب حافله بالرضى ·

ويخبط الحاج بعصاه على الأرض

ـ هيه

ويتنهد محمد كامل

ـ خلاص وصلنا

وتغمض عيون الحاج كريم يصبح وجهه شفيفا

ـ الحمد لله .. اللهم لاتقطع لنا عادة .. اللهم لاتحرمنا من الوقوف على بابك ·· يا سيدى أحمد يا بدوى ·· احنا فى رحابك يا سلطان

يقولون فى خفوت

ـ آمين

أم طلعت لا ترفع عيونها عن الحاج كريم ، تسأل فى خجل

ـ ما يلزمكوش حاجه .. أى حاجه

ويضحك لها الحاج كريم راضيا

ـ ربنا يجازيك خير .. ومايحرمناش منك

ثم لن يراها مرة أخرى الا يوم السفر يصافحها الحاج كريم وهو ماضى الى المحطه ..

فرش الحصير الأبيض على أرض الغرفة ، حيطان مبقعة حائلة اللون، مسامير معلق فيها آيات قرآنية على ورق رخيص ، رسوم اطفال وصور لناس يقفون فى بلاهة كأنهم محنطون .. خلع الرجال جلاليب السفر، بقى من بقىبالسروال الطويل حتىالكعب والصدار والطاقيه الصوفيه الحمراء وبقى من بقى ـ بجلبات خفيف ، خلع الحاجكريم عمامته، فرشوا لها جزءا من جريدة فى ارضيةالشباك، خلع جلبابه الكشميرى الكبير وقفطانه الشاهى وعلق الكل على مسمار فى الحائط لبس جلبابا كتانيا خفيفا كالطاووس اذا خلع عنه ريشه لكنه فى هذه الملابس بدأ بسطا طيبا اليفا تربع على الحصير وتربعوا حواليه خلع عبد العزيز بذلته وعلقها الى مسمار فى الحائط لبس جلبابا افرنكيا مخططا وضع كتبه بجوار عمامة أبيه وجلس معهم..

فى الغرفه الأخرى النساء ربما تخففن الأن من الطرح والثياب السوداء وبقين بالملابس التحتيه الملونه وربما العيال حولهن يضكن فى دهشه ومرح ولا بد أن سميرة جالسه بينهم تبتسم ستقضى أيام المولد هنا فى بيت الخدمه تكفى نفسها عناء السفر اليومى ومعاناة الزحام .. ستكون معه فى بيت واحد لمدة سبعة أيام .. لكنها لاتحرك فيه شيئا يحس ناحيتها بفتور غريب ، ليس فيها حرافة بنات طنطا وتأثيرهن ، تجلس ساكنة هكذا واسعة العيون والبرود يزحف على قبله الى درجة الكراهيه .

من غد سوف يأتى الشيخ ورهطه سيخرجون لاستقبالهم على المحطه ويكون العناق والأشواق .

وهنا فى هذا المكان ستفرش الحشية للشيخ ، وسوف يتخفف من عمامته الخضراء فتوضع فى الشباك بجوار عمامة الحاج كريم ، وسوف يكون الحديث ، منذ متى لم يلتقو ..؟ الضحك والحديث الطيب وفرحة اللقاء فى مدينة السلطان ..

وها هنا سيجلس المستكاوى وبجواره العايق ركبة لركبة وسوف يخرج من جيب صداره قطعة من الحشيش ويلقى بها فى حجر العايق الذى يضحك مبهورا يتلمظ .

ـ خد لف سيجارة ياوله ..

ويتلقف العايق قطعة الحشيش يقلبها بأصابعه الخبيرة ويكركع بالضحك ويقطع حسن أفندى وعلى خليل حديثهما الودود الهامس وينظران ناحية العايق ويقول حسن أفندى ..

لو تبطلوا الهباب ده .. ولو مدة المولد بس .. أكراما للسلطان

ويرد المستكاوى جهما

ـ أنا أكراما للسلطان مضيع فلوسى عالمدعوق .. لما يبقى مسطول بيتهيأ لى أنه أجدع ولى من أولياء الله

ويكركع العايق بالضحك حتى تكاد تبرز عيناه .. ثم يقول وهو يضحك ..

ـ اسألوا الشيخ عباس حتى .

ويمد الشيخ عباس رقبة كرقبة الزرافه ويقول

ـ ما سمعناش حد من المتقدمين ولا من المتأخرين حرم الحشيش الخمر حرام صحيح .. أنما الحشيش .. نبات .. زى أى نبات ..

ويموت المستكاوى والعايق من الضحك ويصفر وجه على خليل ويلوى حسن أفندى وجهه بعيد ويضحك أحمد بدوى كطفل ويبتسم الشيخ والحاج كريم فى سكون وينطلق المستكاوى يحلف بايمان مغلظه

— والله العظيم لو أنا الملك لا عملك مفتى الديار المصريه ... دانت ورده ياشيخ عباس

ويضيق العايق من ضحكه ويمد يده بسيجاره الحشيش للشيخ عباس

— خد يا شيخ خد .. وقول لنا شوية فى مناقب الحشاشيين

لكن الحاج كريم لا يدع المساله تفلت منه يصفق بيده جادا فيسكتون وبعد صلاة العشاء ستكون حضرة مباركه كل ليلة من ليالى المولد حضره وذكر .. القلب يتخفف بالضحك لكن العوده للجد محتومه ..

وأمام هذه الغرفه سيجلس صانع القهوه سيخلق لنفسه بقعة ساكنة وسط الضجيج ، فى الليلة الكبيرة حينما يضير البيت زحاما وطعاما وضجيجا يكون صانع القهوه ملجأ من يبحثون عن لحظة سكون ، حالما تجلس يمد لك يده بالقهوة باسما طيب الوجه .. وبجواره الشيخ سوف يجلس صـــانع الرقى ، تدخل المرأة على الشيخ بطفلها فتشير له فيكتب حجابا يأخذه الشيخ بباركة ويعلقه فى رقبة الطفل وعبد العزيز فى الركن يبتسم فى خبث ..

وسوف يكون للرجال فى بيتهم هذا مهمام توكل لكل واحد منهم دائما دون اخلال ، سيتولى على خليل نقود المصاريف وســوف تأتيه رشـــيدة .

— عاوزين بصل يابا على

— بايه .. بقرش

— لا مايكفيش .. بخمسة ساغ ..

— على مهلك شوية يا رشيده .. هجيب لك بقرشين .. آهو يبقى كفاية

ولا تعارضه رشيده ، عليها أن تطبخ بما هو متاح ، وهى تعرف أن الحاج كريم سيقول

— شوفى أبوكى على .. واللى يقوله اسمعيه

فتذهب الى المطبخ طائعه وهناك تتولى قيادة النساء تجلس فى المطبخ المعتم حازمه والحلل الكبار على البوابير الصخابه والجـو مخنوق بالدخان ورائحة الطبيخ ..

ويموت العايق لكن سيبقى فيه بعد الموت هوى التحرش بالنساء كل آن يمر على المطبخ ..

— البوابير حلوه يا جماعه

— حلوين يابا محمد .. تسلم ايدك

والا فمرسال البيت هو الى كل النساء

— يا عايق .. روح لحبيبه هات منها حصيرة ومخدتين

— على عينى ياعم

ثم يأتى يلقى حمله أحمر الوجه من المجهود

— بتسلم عليك كتير السلام .. هواها تشوفك وتطمن عليك

ويبتسم الحاج كريم فى حنان

— الله يجازيها خير

لكن الشركسى النجار سيجلب الماء صفيحة اثر صفيحة هذا العمل يبعده عن الاحتكاك بالآخرين فانه عصابى سريع الغضب أما

محمد كامل وأحمد بدوى فهم عند ذراعى الحاج كريم وسط الناس يبتسمون ويرحبون ويطعمون ويهيئون المجالس والمراقد .. الى أن تصلى العشاء جماعه بعدها تقام حضرة المساء ..

بدأ العايق يلف لنفسه سيجاره اصابعه الناصعة الرقيقة تسوى حبة الدخان فى ورقة البفره ثميلعق أطرافها بشفتيه ويحبكهـا بمهارة .. لكنه شارد اللب بعيدا عن الجالسين ..

ـ عاوز أقوم بقى ..

ويسأل أحمد بدوى مصطنعا براءة طفلية ..

ـ على فين ..؟

ويشوب صوت العـايق قلق ..

ـ أصلح البـوابير ..

يتلفت حواليه متشككا ويواصل حديثه ..

ـ أصلحهم الليله واحنا فاضين .. بكره مانضمنش ظروفنا

الرجال سارحون تطامنو فى مجلسهم يمدون أجسادا اتعبها المشوار لكن أحمد بدوى يبتسم فى مكر .. وعبد العزيز يبادله الابتسام يعلمان ويعلم سائر الرجال أن العايق ذاهب للقاء الجازيه، حالما يصل الى طنطا تكون قد سبقته واقامت عند أقارب لها ، ويظل يتحين كل فرصة للقائها .. يبتسم عبد العزيز فى نفسه غريب أمر هاتان المرأتان .. روايح والجازيه .. تتعاركان على العايق ذلك الطفل النزق المدلل كل واحده منهن تريد أن تملكه لنفسها وهو منقسم بينهما صباح اليوم أوصلته روايح الى المحطة وهنا تتلقفه الجازيه يتامل عبد العزيز وجهه المحمر بالأنفعال وتململه فى مجلس ويبتسم لنفسه تدور على وجوه الرجال ابتسامات عارفه ويكشر الشركسى النجار

ـ أقعد ياعايق ماتقباش ناقص ..

ويحمر وجه العـايق ..

ـ دا شغلى وأنا عارفه ..

وابتسامة الحاج كريم أكثر تعبا ..

ـ الصباح رباح ياعايق .. النهار له عينين ..

لكن رغبة العايق فى الانطلاق لا تقاوم كطفل ضاق بالقعود فى الدار ، أحمد بدوى يتدخل ضاحكا ..

ـ قلبه مش حيقعد فى بطنه الا اذا أصلح البواجير .. سيبوه

ويضحكون جميعا ويضك العراقى معهم بلا فهم وينفجر العايق

ـ البوابير مالهاش أمان وأن وقفت كلكو حتقولو يا عايق

ويطرق الباب وتسمع منه ضجه وهيصه وضحكات عيال وصوت طفله عابثه ..

ـ والنبى ياعم تدينى قرقوشتين وحبة دقة ..

ويجرى العايق ناحية الباب ويسمع صوته محاورا البنت الشقيه

ـ بالعجل جيتو تقولو دقه وقراقيش هو احنا لسه ارتاحنـا مالمشوار .. عالم نهـابة ..

ويهش الصغار بعيدا يفرون من وجهه متصنعين الذعر زائطين تاركين وراءهم الشتـائم ..

ـ يا فلاحين يا بهـــايم ..

ـ أمشى .. جك مشش فى ركبك صنف صايع ..

وتغيم الوجوه بسحابات معتمة من شتائم البنت ... صمت يقطعه أحمـد بدوى ..

ـ احنا بهايم ياعم محمد يا كامل

وينكس الرجل وجهه مستنكرا السؤال فى حياء

ـ ربنا بيقول « ولقد كرمنا بنى آدم ·· »

ويزداد وجه على خليل المرهف شحوبا

ـ لا حول ولا قوة الا بالله

ويغضب الشركسى النجار ·

ـ بهايم ازاى ياخى ·

ويكن احمد بدوى سارحا يتتبع حكاية فى دماغه ·

ـ مادام بنام مع البهايم فى حته .. ومن بدرى سوا فى الغيط فى الوحلة والتراب يبقى حكمنا حكم البهايم ·

ويبتسم الرجال أو يمصمصون الشفاه ·

ـ كنت نوبة راكب للقطار .. وقاعد قبالى واحد أفندى والست بتاعته .. اللفندى بيقول الفلاحين كلها خير ، قشطة وزبدة قلت ياعم دا كلام .. داحنا بنقضى السنة ناكل عيش وجبنة وسريس .. الست ميلت على اللفندى وقالت له « سريس ياحمدى .. دا اللى بنرميه للوز .. اللى بيطلعوه من برسيم البهايم ..؟ » قلت لها ايوه ياستى بناخده من قدام البهايم وناكله احنا .. حكمنا حكم البهايم .. !! ·

وكل الرجال ساكتون ، القهر يمشى فى عروق عبد العزيز ثقيلا كالزئبق ، هو يحب المدينة لماذا لاتحب المدينة آله ، القهر يكاد يخنقه هؤلاء ناسه رغم كل شىء ، ذلك الذى يتوهج فى عيونهم ولا ينطفىء يحمله فى روحه :

ـ احنا احسن ناس فى الدنيا

وتلمع ابتسامات فى العيون وترف على اطراف الشفاه ربما لانه يتكلم عنهم يضع نفسه بينهم ··

ـ أيوه احنا احسن ناس فى الدنيا ..

ويريحه قليلا هذا التباهى ·

هاهم قد اقاموا بيتا فى المدينة سيفرضون أنفسهم .. وانفاسهم سيفرضون جرجرة نعالهم على هذه المدينة اسبوعا ، استراح اذ يفكر هكذا وضحك على العايق ينفجر فى سيل من الكلام مقلدا سيدة القطار ..

ـ « سريس ياحمدى » ·· ؟ آى ياختى سريس ·· مرة قحبه ·· تلاقى اشداقها محروقه من أكل البصل ·· ومش عارفه السريس ·· فلاحه لب اللب ·· بس تلاقى ربنا رزقها بواحد افندى الشمس لطشاه .. خدها ورقاها ..

يتدخل النجار بطريقته العصبية ..

ـ بنى آدم لما ربنا بيكرمه .. بيبقى جبار ..

ويعود طرق الباب وضحكات العيال والشتائم المقذعة ، عنف الهجوم وقال العايق ..

ـ امشى يابت جك سلاية فى كوعك .. الله الواحد يجرجرهم عالبندر ..

ويتذكر عبد العزيز عساكر الشرطه عند المحطه ويبتسم فى مرارة ·· العايق يروح ويجىء فى الشقة حبيسا فجاه يجمع البوابير ويمضى خارجا ·· ويتبادل الرجال فيما بينهم تفاهما ويتنهد محمد كامل ..

ـ كل ميسر لما خلق له ..

ويقول احمد بدوى مغيرا الموضوع ..

ـ ما فيش فيلم حلو كده فى السينما يا سى عبد العزيز

ويدور احمد بدوى بعينيه فى وجوه الرجال كانما يرى أثر سؤاله عليهم أو كانما يرجو أن يتحسوا لاقتراحه ويتريث عند الحاج كريم .

ــ ولا ايه يا عم الحاج

هاش ياسم يهز رأسه هزات رتيبه كانه على الاريكه فى صالة الدوار يشرع فى حكاية وعبد العزيز يضحك فى نفسه تلك هى ليلة السينما منذ ماوعت الذاكره موللد السيد البدوى والسفر الى طنطا وتلك الليلة تكرس لمشاهدة رواية فى دار العرض الوحيده فى طنطا (سينما مصر) ومنذ ما وعى عبد العزيز والصور فى ذهنه متخالطه امراه جميله الوجه تغنى حركة شفتيها تسبق مخارج الحروف أو تتاخر عنهـا رجل قاسى له شوارب يصرخ ويهدد شاب نحيل الوجه طويل السوالف تعذبه الوحده وقسوة الناس ، والحاج كريم على مكانه من الأريكة يحكى والاخوان ساهمو الوجوه فى ضوء الفانوس ويكون عبد العزيز قد رأى الرواية مع ابيه لكنه يراها من جديد فى حكايته ينبهر ربما أكثر من انبهار الذين لم يشاهدوا الرواية اصلا ويعيش احداثها ويعايش شخصياتها من جديد وهكذا فى كل مرة حكاية فى كل زيارة لطنطا بعد قضاء الحاجات وزيارة السلطان يتطلع أحمد بدوى الى الحاج كريم ..

ــ الواحد نفسه هفاه عالسينما ياعم الحاج

وفى المساء فى مجتمع الاخوان يحكى الحاج كريم ويضحك احمد بدوى مراقبا الحكاية اما عبد العزيز فان شيئا ما غريب يحيزه ، هؤلاء الناس يرون من الأشياء غير ما يرى أو أبعد مما يرى ..

ــ لكن هيا حبته ياعم احمد يا بدوى

ــ لا يا سى عبد

ويتجاهم كاسيا وجهه قناع جد

ــ هيا ما حبتوش .. انما عاوز تاخده بعد ماصح وبقى كويس

ويحتار عبد العزيز ويتنهد محمد كامل

ــ بن خولى الزراعه خش البرلمان .. سبحان الله

ويقول الحاج كريم باسلوب فخم

ــ يوسف وهبى راجل عظيم .. رواياته فى الصميم

ويقول احمد بدوى شامتا

ــ وبن باشا طلع خايب

ويضحك الرجال ويلح عبد العزيز

ــ بس بنت الباشا حبته فعلا

ويعاند احمد بدوى

ــ دى بنت كلب طمعت فيهبعد ماصح .. لوكان بيعزق بالفاس كانت اتجوزته ..؟

وينجح منطق احمد بدوى فى مجلس الرجال ويدهش عبد العزيز بكيف يرون الأشياء هكذا .. انه يذهب الى طنطا كثيرا لكنه يجلس معهم فى المساء اذ يئوبون من زيارتها وينصت الى حكاياتهم دهشا ، كيف رأوا كل هذا كيف ملاتهم المدينة بكل هذا الانفعال ..

يبتسم عبد العزيز ..

ــ فيه رواية حلوة فعلا ..

ويفرح احمد بدوى ويبتسم على خليل فى رقة وعدوبه ويوجه له عبد العزيز الكلام

ــ رواية محزنة ..

وتتوجه الوجوه كلها الى الحاج كريم ويضحك الرجل لهم وهو يتهيأ للنهوض .

ــ مادام كلكم عاوزين .. ما اجتمعت امتى على ضلال .

وطرقات العيال على البـاب لا تؤرق سرورهم ، محمد كامل يقـول ..
ـ نفرج عن نفسنا شوية .. آهى عاده اتعودنا عليها .. ربنا ما يقطع لناش عادة .. مدد ياسيدى احمد يابدوى ..
وعاون احمد بدوى الحاج كريم على النهوض
ـ مش جاى معانا يا سى عبد
ـ لا والله ياعم احمد شفت الفيلم ده مع اصحابى امبارح
ويقول على خليل مخافتا
ـ ما تقطعش عادتك معانا ياسى عبد
ويخجل عبد العزيز لكنه لا يحب أن يرى فيلما راه بالامس .. تلفت العراقى حواليه دون أن يفهم شيئا اشار احمد بدوى لامراته فخرجت تدارى .نصف وجهها بطرحتها خجلا انه يدلل امراته ذلك الانسان الودود .. لكن صديقة الحزينة لا تأتى ..
خرج الحاج كريم وخرجوا وراءه ، سمع عبد العزيز وقـع اقدامهم على السلم الحجرى ، نظر العراقى الى وجهه متسائلا ، طفق يشير له شارحا تململ العراقى ودار فى البيت يهمهم بكلام غير مفهوم ، وأخيرا دخل الغرفة طوى جلباته تحت رأسه ونام ، نظر الشركسى النجار الى عبد العزيز ..
ـ ما تقعد ياسى عبد العزيز .. قلقان ليه
احسن عبد العزيز ان الشركسى النجار يريد أن يكلمه .. هذا الرجل الذى لا يجد ناسا كثيرين لذه فى الاستماع له .. لكنه يريد أن يتحدث الآن .. يريد أن يكلم عبد العزيز احس عبد العزيز بالرغبه فى أن يجلس وينصت اليه لكن طنطا كانت فى الخارج اضــواء النيون والبـنـات المقاهى ودكاكين الحلوى والمرطبـات الصغيره .. ربما بعد أن يسكن البيت تاتى سميرة تسـأله أن يشرح لها شيئا فيه حنين نحوها لكن عاديتها وسكونها يثيرانه ، يريد شيئا آخر أن يغرق فى اضواء المدينة ..

الليـــلة الكبيـــرة

أكداس من الأحذية والبلغ والشباشب والقباقيب ، شوهاء متقلصه الجلد متزاحمه متراكبه تتلوى ملامحها فى تعب متقوســه النعال ، اكداس بلا نظام وهو جالس القرفصـــاء ــ عبد العزيز ــ يحتضن ساقيه ويريح خده على ركبتيه ، البلاط ممتد تحت عشرات الاقدام التى تتحرك فى نشاط متحررةمن اى مداس، أو فى اشكال غريبه من النعال البلاط ممتد تحت هذه الاقدام مكســو بالتراب والدهن ، طراز أصيل من القذاره ، البلاطات متخلعه من الارضيه طافية تميد تحت دوس الاقدام ، ربما تحتها الان صراصير وخنافس تبرق عيونها فى الظلمه الحالكه وتتحرك شواربها فى تحسس خائف متربص ٠٠ متى تبدأ جولتها الليليه ٠٠ ؟ مملكتها تتعرض للغزو ٠٠ والاقدام تدوس ثقيله مصممه ٠٠ فى اقصى الصاله يقبع المرحاض بؤرة بلل ونتانه الريح تهب منه أرتال وئيده تفعم الرئه بالعفن يكاد يخنقه الريح العطن والانفاس والزحام والصياح ٠

الصاله مزدحمه كتف لكتف والحاج كريم وجهه لامع بالعرق وضوء الكلوب ، طاقيته الصوفيه الحمراء تقلصت حتى استقرت على مؤخرة رأسه طوق جلبابه متثنى الاطراف وســـخ عند اكتافه من العرق والغبار يخذب انفاسا من عقب سيجارة بين أصبعيه ، يتلفت هنا وهناك بسرعه ويصدر الاوامر ٠

ــ يا عايق ٠٠ الكلوبات نامت خالص يا عايق

وصيح العايق ملبيا ، خلع جلبابه وبقى بسروال قصير ينكشف ساقيه المشعرين الأبيضين الوسخين ، يقفـز فوق كرسى ويعـالج

الكلوبات بابرته وينزل من كلوب الى آخر ويدور فى الصالة يتلمص بين المتزاحمين غاضبا ..

ــ اسعوا كده وصلو عا النبى ٠٠ خلونا نشوف شغلنا

ويتأمل الكلوبات بجديه وقد تدفق منها الضوء والطنين وتفتحت عيونها فى السقف على الاخر ٠

نبتت اللحيه فى وجه محمد كامل الاسمر والعرق يسيل على وجهه المعروق ضاحك العيون يسير فى كل اتجاه متحررا من جلبابه، قميصه متسخ عند اكتافه وظهره مبلول بالعرق متحن ، فى يديه حلة كبيرة يغرف الماء من الزير ويدلقه فيها ثم يسير بها ناحية المطبخ .. وعلى خليل يرص الأطباق فى الشــباك يحص عـدد الملاعق ، معزول عن كل هذا الضجيج كأنما هو تحت ناقوس زجاجى حتى لا يفقـد واحـد منها .. جلبابه متســخ كانه يعمـل فى سرجة ، العايق يصيح به ..

ــ تسلمونى لصحن دى تمام زى ما سلمتها لكم تمام ٠٠ انــا شاحتها من كل ست صحن

صياح العايق لا يؤرق عكوفه على احصاء الاطباق الحاج كريم يصـــيح

ــ شوف شغلك يا عايق بلاش غلبه

احمد بدوى يضحك ويغرق فى الضحك

ــ خايف على زعل الستات

الشركسى النجار يدخل من الباب حاملا دلاء الماء ويصرخ غاضبا

ــ الزحمه على طرمبه الميه بضرب الخناق ٠٠ ينعل ابو دى بلد

يضحكون فى سرور ، حتى فى صياحهم الغاضب انما هـم يضحكون فى هذا الزحام الغريب يروحون ويجيئون بسهولة ..

العـــراقى يتلفت بسرعة يريد ان ينطلق زاعقا بالمــدد لكن الزحام والضجيج والانصراف التام عنه يخنقه يدور يتلفت متربصا منتظرا حزمة اهتمــام حتى ينطلق ..

فى المطبخ البوابير واقفه واحدا وراء الاخر يحملون على رؤوسهم حلل الطبيخ السوداء .. رائحة الطبيخ والدسامه ، يكاد عبد العزيز ان يقىء ، البوابير تئز فى صبر كانما يقرأون دلائل الخيرات لكن بلا حياة ولانغم .. البوابير تحمل الحلل على رؤسها كانما اخترعت على شاكلة النساء الســود فى القرية .. منحنيــات على الحلل يكشفنها ويدسسن وجوههن فى البخار ، وتولج المغارف فى الحلل وتخرج وفيها المرق وقطع اللحم السوداء فى أطرافها براويز من الدهن .. الغرفة المعتمة ، البوابير والسخونة وحركة النســوة الغامضة كانهن يتحركن فى رحم ، امراة محمد كامل التى طلقها فى العام الماضى تسبح فى بخار الطبيخ الدسم ودخان المصابيح والبوابير لقد التاث عقلها قليلا، تلقى بالكلام وتصلى على النبى دون مناسبة وتنادى السلطان ، وامراة أحمد بدوى تقلب الســائل فى الحلة وعينها على صديقة خائفة ورائية .. وامراة الشركسى انترشـت الأرض واكبت بسكينها على البصل ودموعها سائلة من رذاذه .. وبنات الحاج كريم تخفى ابتساماتهن كثافة الدخان والبخار والعتامة

نظر عبد العزيز الى وجه رشيده المطل على الحلـــه والمحوط بالبخار ، ألهذا جاءت من القرية لتبقى حبيسة المطبخ ثم الى القطار مباشرة اهكذا كل سرورها ..؟ التفتت ، همست له عيــونها الذابلة همسا حنونا دست المغرفة فى الحلة وخرجت بها عارضة عليــــه قطعة من اللحم مدهنة رفض مشمئزا اعادت القطعة الى الحلة بيد باكية .. النساء ينظرن اليها وهى لا تتكلم يتحرك جسمها وتتلفت فيفهمون ، حزم أشد من حزم أم عبد العزيز ، السخونة مفروشة

على أرض المطبخ ، سخونة مبلولة قذرة ، لا فسحة لسير أقــدام النساء الحافية ، تشوى على الأرضية وهى مفروشة عليهـــا فى صبر ، الدخان الأسود يصنع قبة فوق مشهد الحلل والنساء المضاء بضوء خافت وفى الحيطان مسامير معلق عليهـــا قفف وأقفاص ، وحزم بصــل وتوم ، الدخان يرتكز على الاشياء المعلقة بأقــدام غير مرئيـــة .

ظهر وجه الحاج كريم على باب المطبخ عرضت عليه رشيدة مغرفة طبيخ ..

ـ دوق كده يابا .

ـ حلو قوى يابنتى .

صوته يسمع ولو كان يكلم نفسه .. عبد العزيز يعرف كيف يسرى صوته فى الجمع الحاشد ، الجالسون على الحصر فى الغرف تحت أضواء الكلوبات التى تون فى بلاده ، كل الأشـــداق الآن تتحلب الخمائر فى جدران المعدات تنشط نشـــاطا مريبا ، أيام الشقاء على مدار العام ، العناء تحت الشمس المحـــرقة ، الطعام الخشن لأيام طوال ، المعدات تتلوى فى انتظار شىء دسم ناعم طرى.

ـ أفتت يابا .. ؟

ـ فتى وكترى يابنتى .. احنا لنا غير الفتة .. حطو الصوانى

تتفرع كلماته الى فروع تدق وتتكاثر حتى تملأ المطبخ تتحرك الأيدى تحت بصر رشيدة وتوضع الصوانى .. ولا تدرى كيف وجدوا لها مكانا .

وتزرع شبرا بعد شبر بأشكال من الأطباق وألوان من السوائل أحمر وأخضر وأبيض وعيون الدهن تسبح على وجه الأطباق .

الحـاج كريم يتحاشى النظـر الى عبد العزيز كذلك الاخوان الوجوه تبتسم ثم تقص الابتسامة قبل نهايتها .. الوجوه المدبوغة

الجلد من وقدة الشمس فى الحقول ، اذ ينتشرون على وجه الأرض يعملون فرادى متباعدين ، ها هم قد تسربوا من الطرق فى تصميم وجاءوا زحاما رهيبا الى المدينة .. ها هم ، ماذا أتى بهم أى معنى لما يفعلون ؟ .

ـ كل سنة وانت طيب يا عم .

أصوات ضحكات وعبد العزيز يريد لو توقفوا ثانية واحدة وقالوا له كلاما يفهمه لكنهم يتجاوزونه ابتسامات مجزوزة عند نهاياتها ، ويتجاوزنه ، وتتفجر ضحكات هنا وهناك كقطرات العرق على ظاهر اليد ساخنة ولزجة ، والأصداء تملأ المسافات البينية سرور ساخن لا فح .

ـ مدد يا سلطان .

متواصلون بأسلاك كهربائية هؤلاء ، وهو فى داخلهم قطعة عازلة ، لو يمسك أباه من ذراعيه ويوقفه ويسأله ..

ـ ما معنى هذا ..

لكن لا يوجد مكان خال على المسرح لمشهد كهذا الحركة الطاحنة تجرف كل شىء .

ـ من فاته اللحم يشرب مرق .

ـ كله فى حب السلطان .

عبد العزيز يبحث عن بقعة هادئة فى هذه الخلية ، صانع القهوة .. ؟ غارق فى وش الوابور الذى أمامه عبد العزيز يتأمل اناء القهوة ويتصور انه مثله تماما داخله ملىء بشى أسود مر ، وجه صانع القهوة مضاء بظلال غريبة جلس بجواره للحظة .

ـ فنجان قهوة .. ؟

ـ لا ..

الغرف المفروشة بالحصر مكدسة بناس جالسين لكنهم قائمون فى داخلهم مشرئبون متشدقون بلا قداسة ، المعدة محركة التاريخ، تاريخ هذه الكائنات التى ولدت فى الوحل كميات من الهلام لزجة رجراجة ظلت ترتجف وتستطيل وتلتهم وتنتفخ وتختمر بلايين بلايين من الأفواه الميكروسكوبية ، ملحمة التهام شره بشع ذلك هو تاريخ البشر المخلوقات الهلامية التى ظلت تتخلق على مدى الحقب حتى صارت ناسا يبتسمون لكنهم يحتفظون فى داخلهم بهذه المعدات الوجوه المدبوغة الجلد مرايا تظهر التواء الأمعاء المؤلم ، زحام من الجوع المرصوص والكلمات المبتورة نهاياتها يتزاحمون بالأفخاذ وعلى الأبواب أكداس من الأحذية كانها أطراف أجساد هؤلاء الجالسين بترت وألقيت فى اهمال ..

ـ الفتة رئيسة النصبة .

ـ والرز شاويش الطعام .

ـ مدد يا سلطان .

سقيم ثقيل فى داخله يتأمل وجوه غرفة الشيخ ، أكثر هرما وأكثر امتلاءا ، صانع الرقى يبيع الحروف المقلوبة فى وريقات هزيلة للمأفونين الذين يحملون على الأذرع أطفالا معلولين ، ناعس العين يتفزز كل حين ليرى هل وصلت صينية الطعام ، يود لو يخنقه ، يخنقه بشال عمامة الشيخ عباس الكذاب .

ـ أثردوا ففى الثريد بركة .. هكذا علمنا الأوائل رضوان الله عليهم .. الفتة مبروكة ..

والمستكاوى ممتلىء جحظت عيونه يسعل بلا انقطاع ويبصق بلا انقطاع وبين سعلاته يسأل الشيخ عباس .

ـ مافيش حديث كده عن اللحمة أم صلصة يا شيخ عباس ·

والشيخ بؤرة الزحام ، اله صغير ، الوسامة والطمأنينة والعبث الرتيب بحباب المسبحة ، الصفاء المتكىء على حشية ، سليل رسول الله ، يتفل فى أفواه الأطفال ويمسح جباههم ، أى مهزلة ··

الكلوبات أقمار ساخنة تمد شوارب ملتهبة كصراصير مضيئة تنوش الوجوه ، الصور المعلقة فى مسامير الحيطان عيون باهتة المقل تطل فى تساؤل أبله أخرس ·· يتصور أنهم سوف يدقونه بمسمار فى الحائط ويرقصون تحته هذه الرقصة رقصة المضغ الهمجية ··

فى غرفة قصية كدس العيال والبنات ، يتعابثون يضحكون يقرصون بعضهم بعضا ·· وهى هناك ، سميرة ، نفس العينين ، واسعة بنوع من السكون بارد مقيت ·· ها هو قلبى حطى فيه شيئا ما ، لكن سميرة تنظر له بعينين غير مدركتين كرهها بشدة ·· يود لو تذهب بعيدا بعيدا فانه يحس بالاختناق ·

الجوابون ، القطاط الجرباء الظهور الدائرة فى الريف ، اللحى والشعور المرسلة والعيون البراقة ، سرابيل الحديد ، المسابح الهائلة ، أشكال العمائم المزينة بكل شىء حتى بأحذية الأطفال الصغيرة صنوف الهراوات والسيوف الخشبية يملكون ضحكات كالخناجر ، سحن وأردية غريبة .. هذا هو الاجتماع العظيم للجوابين ، وجوه صنعت لتبث الخوف سفن خبيرة بشق الموج ملامح تشق لنفسها سبلا بين المشاعر .

هذا هو ·· رجل عبد العزيز السربل بالحديد الطائر بين صفى الذاكرين كمهرج يخرج عن نمه رغاءا مقرفا .

ـ يا أهل الخدمة ·· على باب الله ·· فى حب السلطان ·

ويقبل الحاج كريم عليه مرحبا باسطا ذراعيه ·

ـ أهلا أهلا أهلا يا عمى ·

ويحاول أن يأخذه الى الغرفة لكنه يرفض ويتخذ لنفسه مكانا فى الركن ·

ـ لقمتى وقهوتى وامشى .. ما أقدرش أقعد .. الدرج بتاعى مأسيبوش أبدا ··

وتوضع الصفحة أمامه يلوث فمه ولحيته وثيابه .. ثم فنجال القهوة المر ثم يمضى متجشأ .

الصوانى قادمه ، لتخلى الافواه من كل شىء حتى الدعوات الصالحات

ـ وسع يا جدع ·· اوعى يا خويا ·· حاسب ··

المعدات كائنات هلامية مقبلة من قاع التاريخ ، أميبات مصممة فاتكه مبيده لم تتطور منذ وجدت فقط نبت تحتها رجلان يحملانها وبدأن يناولانها الطعام أغمض عبد العزيز عينيه واحس بذات الرجفه التى أحسها فى ذلك الصباح المبكر حينما وقف حزينا وسط حقل القطن وبيده آلة الرش الهرمه يسمع قرض الديدان فى النوارات الفضه ·· تأمل ذلك البساط البشرى القارض ·

الديناصورات حكمت العالم مليون عام ، أجساد هائله بامخاخ صغيره وافواه قارضه يتزاحمون هكذا دون تدبير ، عبد العزيز يكاد يبكى حزينا انه ابن هؤلاء المنقضون على الطعام فى بهيميه غريبه يود أن يقف ويصرخ فيهم أن يكفوا وان يتعقلوا العالم يقسموه الى مربعات صغيره ويتأملوه ذلك التزاحم الرهيب ينفى الفكر ، ينبذه ويدوسه ··

بقايا السيجارة فى يد الحاج كريم ملوث بالدهن يقف وسط الصـالة يتـأمل المأكلة الرهيبـة فى فرح مبهم غريب ، نظر الى عبد العـزيز ..

ــ اقعد كل ..

ــ ماليش نفس ..

ــ كل مع النـاس ..

ــ لا ..

فهو ليس معهم أبدا بل يود لو وقف امامهم باسـطا ذراعيه ليمنعهم ..

فرغت الاطباق على الصوانى فتات الخبز وبقايا الطبيخ والعظام اللامعه بقايا الموقعه التلمظ والضحك وصحيات الانتصـار .. ثم مدت الايدى وأحاطت بحافة الصينيه قبضة بجوار قبضـة رفعت السواعد الصينيه لأعلى وانطلقت الحناجر معا فى كورس جماعى

اللهم هنى من اكل .. واخلف على من بـذل
بسـر النبى .. والفاتحـة

ثم تقرأ الفاتحـة بصـوت عال مدو شبع متجشىء .. وفى المطبخ السنة النار تلعق قيعان الحلل السوداء والنساء قابعات فى الأركان كأنهن راقدات تحت هذا الصوت الوحشى فى استسلام .

انطلق عبد العزيز خارجا من باب بيت الخدمه .. البيـوت القائمه على اضلاع الباحه منقطة بأضواء الشبابيك ضحكات النسوه وتناديهن فى العتمه هسهسه حليهن وذيول ضحكاتهن المغناجه .. لمح طرف رداء الفتاه الطنطاويه التى يعرفها يبرق تحت شرخة ضوء تشق عتامة بئر السلم فى المنزل المقابل ..

البنت تتنفس فى الركن ، تنفسها المسموع يشده بقوة ذراعاه يتقدمان جسده كقرنى استشعار ، ارتطم كفاه بالحائط الخشـن ضغط بجسده وسادة جسدها المركونة على الحائط ، دس فمه فى فمها المفتوح ، أسنانه تصطك بأسنانها ، شفتاها وسادتان من نار صغيرتان طريتان ترقصان فى فمه كأفعوين يمرغ وجهه فى وجهها وقد تلوثت الشفاه الاربع باللعاب يكاد يقتلع شعرها من رأسها وهو يشدها اليه يريد ان يحتوى جسدها الخاطىء الساخن بالاثم .. لكنها انفلتت من تحته هاربه .

تبرطشت جبهته بالدم كانت قد ارتطمت بالحائط حين انفلتت الفتاه مسح الدم بكفه ، كفاه ايضا دميتا من خشونة الحائط .. عيناه اعتادتا الرؤيه فى الظلام .. هناك تحت السلم رجل وامرأة يشد شعرها ويدفن وجهه فى رقبتها ، عبد العزيز يتأمل ذاهلا ، العايق والجازيه .. كتم صرخه كادت تخرج من صدره قام العايق يسوى هدومه ، جرى قبل ان يدركه العايق يمارسون الجنس فى جماعه كقطع الارانب .. انطلق يجـرى الى الباحه هسهسـات الغوايش وذيول الضحكات وتنادى الطنطاويات من الشـبابيك ، مربعات الضوء المعلقه على الحيطان فى العتمه ومن شباك بيت الخدمه يأتى ذلك الصـوت .

اللهم هنى من أكل
واخلف على من بذل
بسر النبى والفاتحه
بسم الله الرحمن الرحيم ...

أى زواج بين هسهسات الحلى المرتجفه والتنادى المغناج وهذا الزعيق .. قفز درجات السلم هاربا .. ومشى فى شارع سيدى مرزوق ، عشرات من بيوت الخدمة الشبابيك فى الأدوار الأرضية

مفتوحة على ردهات مزدحمة بالناس الوجوه والطواقى الأيـــدى والأكتاف طقطقات التمطق وصفق الملاعق فى الصحون وضحكات الأمعاء الفرحانة ..

مشى عبد العزيز مسرعا .. والأرصفة على الجانبين مزدحمة بحلقات الجالسين حول نوبات من نساء لحيمات ثقيـلات المعاصم بدمالج الذهب يضحكن عن اسنان ذهبية تاجرات الحشيش ، أمام المرأة الوابور وعدة الشاى ودلاء الماء مليئة بالجوز .

الناس نهر يسيريين دفتى الشارع الآف الأقدام تصك الأسفلت فى اضطراد ، حفيف مصمم عنيد يسير ثقيـل الوطء بلا تردد والوجوه مشقوقة بالضحكات .

— الى أين يا ناس .. ياقومى .. الى أين

كانما حيوان خرافى الحجم غريب الشكل يستطيل جسده فى شوارع المدينة ، يسـير لا يلوى على شىء ، واسع العيون بالبلاهة لايسأل ، خواره يصدر من أعماق مجهولة يهز الأرجاء فى رتابة وهو يمشى يسعى نحو هدف غير معروف ..

البيوت العالية على الجانبين واجهاتها معتمة تتقسمها مربعات الشبابيك المضاءة حيث تتكدس النساء .

الضحكات الناضجة بالجنس يود لو يعتصر الرقاب الناعمة حتى الاختناق المدينة الماكرة الناعمة بالغنج والزواق ..

الشارع مسقوف بقبة من الغبار المضاء ، مشى ضائعا فى غابة من الأجساد ، الرجال والنساء والعيال ، التجار على الجـانبين أذرعتهم ممدودة أمامهم على البنوك فى قنوط ، لا أحـد يشترى فقط يمشون فى الشوارع وينظرون اشتروا أمس مســاءا ، وقد يشترون غدا لكن تلك هى الليلة الكبيرة .. أسطع البضائع الملونة

اللامعة تناضل بآلاف العيون البراقة ضد ذرات التراب التى تتساقط عليها فى اصرار والجمع يسح فى الشوارع كرذاذ لا ينقطع حفيف الأقدام متصل بلا هواده .. وهو يمشى ..

دخل مع الجموع تحت قنطرة سمنود نفق طويل مظلم من فوقه تمر القطر كالزلازل أصبح المسار ضيقا فتكاثف الزحام ، أولاد طنطا يطلقون الصفافير .. فترن فى جنبات النفق تئز ازيزا ، العساكر على ظهور الخيل ينوشون أطراف الحشد بخيزرانات مذعوره .. زلازل القطر العابرة .. لكن خفيف الأقدام لا ينقطع ، الحشــد السائر يملك جلال النهر لا تعوقه خبطات تهز سطحه .. انتهى النفق ليبدأ مهرجان الضوء والغبار وضجيج الميكروفونات .. مساحات شاسعة من الأرض الزراعية كانت مزوعة قمحا ، أخليت من أجل المولد وامتلأ الامداد الشاسع خياما .. كل شيخ طريقة نصب خيمه لا تباعه وأقام على واجهتها لافتة كبير تحمل اسم الشيخ وطريقة ومن أى القرى جاء ، وفى كل خيمة مقرىء أو مطرب أو قارىء سيرة أو شاعر شعبى والميكروفونات المنصوبة على ظهور الخيام كأنها خطباء خرافيون .. يتصايحون بأصوات هائلة فى البرية ..

دخل عبد العزيز الخيمة .. البنت واقفة على نصب عال وجهها كقمر معتم ملفوف بطرحه بيضاء وأعضاء التخت جالســون عند أقدامها والآلات تئز فى أيديهم كذنابير حمـراء مسمومة ، شــيوخ يلعبون حواجبهم ووجوههم تضحك فى خبث ، عيونهم منفصـلة عن الأيدى التى تعبث بالآلات .. والبنت تغنى بصــوت مبحوح حزين .

— يا ظالمنى .

والحشود الواقفين أمامها يصرخون .

— آى والله .. يا ظالمنى .

الميكروفون يزعق يريد أن يمزق سحابة الغبار المضىء المحلقة فى السماء .

ـ لو جتنى فى منامى يوم يا ظالمنى .

وصدرت عن الخلق الواقفين صيحات اعجاب مدوية .. والبنت اغمضت عيونها فى استسلام ، ود عبد العـزيز لو ينتزع ثوبها ، يعرى نهودها يتشبث بخصلات شعرها وينظر فى عيونها بامعان ..

وقارىء السيرة مجنون على الدكة يرقص ويقفز يصارع خصما وهميا .

السيف يقـول للنبى ..
يازين ودينى ..
وبلحم كافر يا زين ..
هيــا غدينى ..

والحشود الجالسة أمامه على الأرض تتفزز من الجنون .

ـ آه يا نبى .. يا نبى ..

والمطرب الشعبى مفتون بذاته .. أمال طربوشه ووضع كفه فى طوق جلبابه وهو يهز أكتافه تيها ..

عيون حبيبى عسل والكحل ربانى

وآلاف الحناجر ..

ـ يا حبيبى .. الله يطول عمرك يا شيخ تانى ..

والرجل يميل راسه محييا فى كبرياء ..

وسط حقل الخيام الشاسع يمر طريق كبير على جانبيه نصبت السركات والمراقص والملاهى ، النصابون ولاعبى الثلاث ورقات والرجل العجيب الذى يدور بموتوسيكله الطائر داخل كرة هائلة

من الحديد ، العجل الذى له رأسان .. الرجل الذى بلا رأس على الاطلاق .. الفتاة الكهربائية .. الست صفية الاسكندرانية وفرقتها .. أحمد الكسار المنولوجست العجيب .. خيام هائلة من الخيش والخشب ودكك عالية منصوب أمام هذه الخيام يعرض عليها عينات مما يجرى فى الداخل الطبل والزمر والراقصات فى الفساتين الصارخة الألوان والوجوه الغارقة فى الطلاء .. والمعلمة السوداء اللحيمة جالسة الى بنك عال تصرف التذاكر وأمامها درج متخم بالنقود تنظر الى فتاة واقفة أمامها ترقص ..

ـ اطلعى يابت فوق .. خدى خمسة وعشرين قرش أهم .. جمعة مولد اكسبى لك قرشين .. اطلعى عالدكة هزى نفسك ساعتين وخالصين ..

والنداءات تنصب على الناس من الميكروفونات ..

ـ حود يا راجل شوف يا جدع .. هنا مروض الوحوش المرعب ..

الضجيج والمشاهد الصارخة تنجح فى اجتذاب أطراف الحشد السائر ، يقفون أمام الدكة الشاهقة ينظرون ويتجمعون ويتجمعون وتمتلىء بهم الخيام الضخمة وفى الداخل على خشبات هذه المسارح تتقافز أمامهم هؤلاء الناس فى ملابس من كل شكل حركات زرية ووجوه ممسوخة « وتخور » أسود جبانة كالبقر ويخرجون من هذه الخيام قانطين ليواصلوا السير ، السير الذى لا يكف ولا ينقطع والعساكر على ظهور جياد الحكومة أو راجلين يقفون على الجانبين وجوه ريفية فى حلل من الكاكى كانما يودون لو خلعوا هذه الثياب وساروا مع الحشد لكنهم مشدودون بخيوط لاترى كالدمى الى خيمة القيادة .. ضباط مسنون جاهمون ينظرون يائسين الى الكتل التى تستحيل السيطرة عليها ، قد تصدر الأوامر وتنهال

العصى ويصنع الذعر دوامات ، لكن الفتـوق التى احدثت فى ذلك الجسد الانسانى تلتحم ويبقى العساكر مهتاجى الوجوه حائرون .. كيف يمكن السيطرة على مارد خرافى ممدد على الأرض يتلوى فى حركة دودية ..

ومرة أخرى عبر النفق المظلم عائدا الى شارع السكة الجديدة ، موكب أبناء المحلة الكبيرة ، غابة من الكلوبات ، كلوبات هائلة الحجم يتفرع الواحد منها الى شعلتين أو ثلاث الرجال يحملون الكلوبات الضخمة ويسيرون لا يلوون شيئا ولا يهتزون بالأذكار فقط يحملون هذه الكلوبات ويسيرون ..

دخل وسطهم دون التفات ، وش الكلوبات والضوء الأبيض الباهر والأجساد النحيلة فى الجلاليب الحريرية اللامعة والرؤوس فى اللاسات التى تتدلى عذباتها وتسرح على الزهور .. عمال الغزل لا يخرجون بموكبهم فى النهار ، يعملون فى عنابر معتمة بغبار القطن ومضاءة ليلا ونهارا فهم لا يعرفون ضوء الشمس فى وجوههم الشاحبة شراسة وتصميم ، ينفثون سجائر الحشيش ويخبون فى الجلاليب وسط غابة الكلوبات والطنين زحمت رائحة الحشيش خيشوم عبد العزيز .. رجلاه ثقيلتان مشى مسلما نفسه للاشيء تجاوزه الموكب ومشى أمامه كحزمة اقمار ساخنة وهو ينظر غارقا فى الزحام حوله ..

لكنه غرق فى موكب آخر ، صفان من الراقصين فى يد كل طبلة صغيرة يجلدها بلسان جلدى ، أصوات حادة قاطعة على بحات صوت الراقصين المجنونة صفان من الفلاحين يرقصون بجنون صفان عرقانان والشيخ راكب على فرس هزيلة ماكر الوجه تحوطه البيارق الشاهقة الملونة فى أيدى الرجال .. الخبطات المسعورة فى رأس عبد العزيز، يكاد يقيء تعلقت ثمالات وعيه بذلك الشيخ المستعلى على الفرس المسكينة يا لله .. كأنما لكل كيان شامخ مطية ذليلة ،

هذه الفرس أو حمارة الواعظ العجوزة القميئة نفس العيون البهيمية الذليلة ، تكاد رأس عبد العزيز أن تنفجر ، وعيه يتخدر وينسحب مع هذا الصخب العارم السائر فى المدينة ..

غدا صباح الجمعة زفة الخليفة اجتماع كل الخلق وكل البيارق وكل الطبول تتدفق الجموع تحت الظهيرة وفى مقدمتها (الخليفة) يرتدى طيلسانة ويمسك عمامته بيده أن تطير ، يضيق شارع السكة الجديدة المسقوف بالظلل بهذا الحشد تكاد البيوت أن تميد على الجانبين من الزحام والشبابيك والشرفات مثقلة بالنساء المتفرجات تلقين حبات الفراولة وحصى الملح، الخلق كأنه يوم القيامة الجسد الخرافى الممدد فى المدينة يحرك عضلاته الهائلة ويمد خرطومه ليدسه فى مقام السلطان ..

فى الصدر، عند منتهى النهر البشرى المتدفق ـ مزروع الجنبات بمصابيح الكهرباء ـ وجه العروس الباهر الفارق فى الزواق، عروس هذه الرغبة العارمة الممددة فى شوارع المدينة .. دفقات من جسد الريف الأسمر تندفع أرتالا متساوقة الى هذا القلب المضيء، تستطيع عين المؤمن أن تراه على بعد آلاف الفراسخ بهذه الكمية من الأضواء .. الريف الغارق فى الظلام المشتاق لليل مضاء ، أى قلب ميكانيكى خرافى القوة يضع هذا البهاء على صدر المسجد الشامخ ..

انجذب بقوة خارقة الى مقام السلطان .. غارق فى الضوء الأبيض تحوطه الحشود جالسون حوله من كل جانب فى تراص لا يدع موقعا لقدم التصق بالنهر المتدفق ، اندفع مع الارادة الثائرة التى تصنعها آلاف الأجساد الماضية نحو مقام السلطان .. لكن تساؤلا قويا ملحاحا داخل عبد العزيز الى أين هو ذاهب ..؟ لماذا ..؟ أهى عيون الحاج كريم البنية المحلقة

بالشوق ...؟ أهى التى خلقت فيه التوق لأن يرى مقام السلطان ...؟ أهى التى خلقت فيه العجز عن أن يرفض رفضا تاما ويقف قائلا (لا) حقيقية قوية وينطلق بعيدا عن هذا الجموع ..

انحشر الناس فى باب المسجد ، أيدى خدم المسجد تعمل بالمقارع فى الناس .. الناس يتملصون وجوه متراصة ، وجوه ، وجوه ، تكاد تلتصق الخدود والأنفاس والتأوهات والصرخات لا يمكن أن يفلت ، الجمع يأخذه الى المقام .. الكتلة الزاخرة بالقوة المتريثة بفعل هذه القوة التى تحتويها وتكاد تنفجر بها لحد باب المقصورة .. ومقام السلطان ..

كيان نحاس هائل لامع ، آلاف انعكاسات الضوء الساقط من ثريات السقف تتحوى حول المقام كتلة الخلق ، آلاف القلوب آلاف العيون آلاف التنهدات والآهات وصرخات العذاب والهيام ، طاقات الزهور المشنوقة على شبك النحاس خنقت رئات وريقاتها بالأنفاس الزاحمة .. الناس متلاصقون تماما كأنهم كتلة لحم واحدة بالآلاف الرؤوس تلتف حول المقام من شبك النحاس اللامع ، جسد واحد يزخر بكل ما يزخر به الجسد من وسوسات غريبة يلتقطها جسد عبد العزيز المرهف .. فذلك الضوء الباهر عاجز عن الغوص بين الناس وخلق المسام بين كتل اللحم المتراصة .. هناك تقبع وتتحرك وتتململ كدودة وسوسات وهمسات لا يمكن السيطرة عليها .. تسعى وتتحسس وتلتحم وتغرق فى الابهام

ـ مدد يا سلطان ..

هنا البؤرة المحمومة بأشواق تمتد فى دائرة قطرها عشرات الأميال ، من هنا تخرج دفقات الوجد تتفرغ وتنقسم وتدق تسبح وتسرى وتمشى فى عروق الريف فى السكك والحارات ومن قيعان البيوت فى المنادر المضاءة بالفوانيس ، عبد العزيز فى ذلك الفرن الساخن دائخ يكاد يقىء .. جفونه ثقال الحاج كريم واقف فى ردهة

بيت الخدمة قرير السرور يشير فتتحرك الصوانى وينطلق طوفان الشبق والتمطق الملتذ ..

خرج الجمع بعبد العزيز محمول على أكتاف قوية متزاحمة ، طول عمره محمول على هذه الأكتاف تأخذه فى مسارها الذى تدقه فى الأيام بملايين الأقدام المتشققة والأحذية المتهرئة عاجز تماما عن المقاومة ..

أمام باب المقصورة نصب الذكر، صفان لا آخر لهما المسجد كله يهتز من جذوره من دق الأقدام وصوت بحات الحلوق ، وقع مدوى هادر ساحق لا يناقش ، لاتردد ازاءه ، يستلب كل رجع مخالف ، يطارد الهمسات والهسهسات بحات قلوب جاءت من أقطار الأرض وتجمعت فى شلال هادر من الأصوات الانسانية يجتاح الصخور ويحفر بيد فولاذية هائلة ..

الصفان يقفزان ويدقان الأرض بأقدامهما ، قلب طنطا ذبيح تحت هذه الأقدام العريانة ، جسدها المصنوع من آلاف المنازل القديمة والحارات الملتوية والشوارع المزوقة ينسحق تحت الكيان اللحمى المدمدم ، لا مهرب من هذا الرعد الذى يمد أذرعه فى كل الجنبات ويمشى فى أرجاء المسجد فى كل اتجاه .

بلاط الرخام مفروش بالناس جالسون جسد بجانب جسد تنتزع رجلك من بين جسدين لتحشرها بين جسدين آخرين وتظل تخوض رمال الناس متجمعين دوائر حول وابور جاز يوش واناء قهوه ضخم وقراقيش ودقه ورجال معممون بأشكال من العمائم حمراء وخضراء وبيضاء ، يبذل الطعام والقهوة بسخاء، ملايين الافواه تأكل وتشرب وتدخن بلا انقطاع أشكال عن الوجوه تحت العمائم الهائله سرابيل الحديد وسيوف الخشب والمسابح الكبيرة والصرخات

والتراتيل والادعية لكن بحة صوت صفى الذاكرين شاملة مسيطرة شامخة فوق الرؤوس ٠٠ وعبد العزيز يبذل كل ما فى طوق اراده انسانيه لكى ينفصل ويعلو ويقول (لا) لكن لا جدوى ٠٠

مقرعة خفيفة على كتفه ، ضربه هينه ، التفت ليجد ازاءه وجها مشرئب الأنف لامع العينين يضحك فى تحد ساخر شامخ حنون ويمد يده بحركة مسرحية ٠

ـ ولع لى

لم يكن معه سيجارة ليشعلها ناوله عبد العزيز سيجارته كالمنوم ضحك الرجل منتصرا ضحكه تدعو قلب عبد العزيز ليحلق

ـ الله يولع قلبك بمحبة السلطان

وانطلق ضحكه مجلجلا وهو يشق طريقه بين الجموع وعبد العزيز يتامل اكتافه التى تساوق حركة اقدامه الماهره الخفيفه حتى غاب ٠٠

تذكر سميرة بقوة رنت فى داخله ضحكتها الرائفه النقيه وثناياها اللامعه الصحيحه وعيونها المشرقة دائما . لكن قلبه ثقيل .. مشى خارجا من المسجد دلف الى الشارع من باب جانبى ٠

حتى فى الحوارى الضيقة المظلمة كان يرى اشباح الريفيين ، يسرحون فى دورة المدينة الدموية حتى الشعيرات الدقيقة وحلمات الأعصاب ، الريف آلاف لف الأزرع حول جسد المدينة واحتضنه وسرب انفاسه الى رئتيها فى لثم متواصل اكيد ٠٠ مشى ٠٠مشى ٠

فى الاركان المعتمة نصبت اخبية الخيش، صناديق يتفجر الضوء من خروقها ابيضا باهرا ، فى الداخل يتكدس الريفيون وينحبس ضوء الكلوبات الباهر والدفوف والطبول والسباسب اكواب الشاى السوداء عواصف دخان الجوز تنطلق من بين الشفاه ، عيون تجار

الحشيش تبرق فى الاركان ، زار نوى الضربات يذبح القلوب ، وعشرات القلوب تتقدم للذبح والبنت شاخبه تحت الطلاء الثقيل الصناجات تطير فى محبس صندوق الخيش كعصافير ، الترتر والبرق على جبينها يخطف البصر ، ثنيات جسدها فى ثوب الحرير الأصفر ٠٠

ـ مدد يا سلطان

خرج الى الحارات المعتمة الساكنة اطراف المدينة المظلمة التى تقصر عنها وقدة الكهرباء المتلالئة فى القلب ، الكلاب والمومسات ومخبرى البدليس ، امتلأ خياله بصورة الحاج كريم مشوق العينيين على الطريق الى المحطة ، تلك هى المدينة التى يطير نحوها قلب الحاج كريم وعيونه البنية الهائمة ٠

ـ أنت هناك

صيحة تسق الظلام كفرقعة السوط ، تساؤل صارم قاطع كالاتهام الحاسم الذى لا يدفع ، أحس ـ عبد العزيز بأحساس الفريسة يريد أن يهرب يلتئم بالجسد الهائل السائر باقدام ثقال ترج المدينة شوارب الصراصير المخبوءه تحت البلاطات رفعت رؤوسها من العفن واقبلت عليه تهاجمه يكاد يختنق ابله زجاجى العينين كالخروف الذى ذبح أمام باب الخدمة ٠٠ جرى باسرع ما يستطيع حتى لا تفترسه الخيزرانات المشرعة لأعلى جرى حتى انتفخ كبده وعميت عيناه بالمجهود ٠

بدأ يصعد درجات السلم الى الباحة أمام بيت الخدمة مهدما مسحوقا ، والحاج كريم واقف فى الصدر عباءته سابغة على جسده المكين ٠٠ يستند على عصاه وعيناه جليلتان بالصفاء والرضى وشفتاه تهينمان بالتراتيل المبهمة والرجال على الحصر مجهدون اثر جولات الذكر فى الليلة الكبيرة ، زحام هائل من الذاكرين المجهدين يمسحون

العرق فى المناديل وذيول الجلاليب صوت محمد كامل يجلجل يقترح الفواتح للاخوان والصحاب والشبابيك مزدحمة بالنساء المتفرجات وضحكاتهن الطائره ٠٠ وجاءت الصوانى محملة باكواب القرفــة الصغيرة ودارت على الناس ودار السرور والزياط ٠

والحاج كريم واقف فى مكانه شامخا يتأمل ما حوله فى سرور، عبد العزيز يتطلع الى أبيه لكنه لا يدرى لماذا يذكره مكان الحاج كريم بموقف عنترة العبسى فى كتب السيرة اذ نصب جثته الميت على فرسة قبالة الاعداء ، فظل هيكله المنصوب يلقى الرعب فى قلوبهم أياما ٠٠ حتى اسـتفزت الفرس وقفزت وانهـار الهيكـل الجليل ٠٠

رجال الخدمة كلهم يتكلمون فى نفس واحد ويضحكون الكل متكلم ومستمع وضاحك فى نفس واحد والشيخ جالس على حشيته يبتسم فى رضى صانع القهوة يسلم سمعه لوش الوابور العايق يكركع بالضـحك ويكشف من اسنان أهلكتهـا الكيوف والعراقى يتلفت حواليه ويضحك بلا معنى واحمد بدوى يسأله عما يضحكه ويشتمه ومحمد كامل يبتسم فى رضى ٠٠

والنسوه بجوار البوابير الهامدة والحلل الفارغة رشيده تبتسم وتحكى عن الطبيخ وكيف شرب هؤلاء الناس ترعة من الملوخية وامراة محمد كامل أو مطلقة محمد كامل واسعة العيون بنوع من البله لا تكف عن الثرثرة بالوان التسابيح والصلوات على النبى ٠

وفى الغرفة الأخرى العيال والبـنات و « سميره » بينهـم ضاحكة تعابث البنات الريفيات وتضحك من قلة معرفتهن ٠٠

والحاج كريم جالس على خشبة وسط الصالة وحوله الناس

ـ كل سنة وأنتم طيبين ياولاد

فرح طيب دمت وهم يحيطونه باطار الابتسام والوجوه القريرة ٠٠لكن كيف ينامون هذه الليلة ٠٠

ـ حصير الصيف واسع ياولاد .. كل واحد يميل مطرحه

هو أيضا سينام حيث ينتهى به المكان يطوى ذراعه تحت راسه وينام عبد العزيز يتأمله وهو يجذب آخر أنفاس سيجارته ٠

ودون مقدمات حى أحد الناس عبد العزيز من ركن قصى

ـ كل سنه وانت طيب يا سى عبد لعزيز

وعبد العزيز لا يعرف ما الذى فجر فى صدره سـخطا عارما مفاجئا ، ربما أرتال الرائحة النتنه من المرحـاض ربما جموع الحشرات وقد بدأت تشرئب شواربها من الشقوق بعد أن هدأت حركة الناس لم يكن يدرى سر سورته المفاجئه لكنه أحكم السيطرة على نفسه متصابرا وصوت الرجل يسرسب الكلام كالنعيق ٠٠

ـ كل سنه وانت طيب ياسى عبد العزيز ٠٠ المولد السنه دى كان ماشاء الله ٠٠ حاجه عمرها ما حصلت ٠٠ مدد يا سلطان ٠٠ والخلق ايه أمم ٠٠ أمم

لم يعرف عبد العزيز كيف انفجـر ، لكنه كان أعمى بغضب عارم ٠٠

ـ أمم من غير عقل ٠٠ من غير تفكير ٠٠ أمم بتدوس زى البهايم ٠٠ مش عارفين رايحين فين ٠٠ مش عارفين جايين منين ٠٠

كل كيانه يصرخ صرخات ترن فى بيت الخدمه شدهت الوجوه خرست كل الألسـنة تعلقت به الأبصـار والأفواه مفغوره وفى العيـون ذلك الذعر الذى تصنعه كلمات الواعظ حين يصرخ فى الناس ، انتابه الخوف وبردت اطرافه لكنه استمر فى الصراخ ..

ـ بتعملوا ايه ٠٠ رايحين فين ٠٠ جايين منين ٠٠ ياعباد الأصنام

ارتجف صوته لكن بقوه خارقه منع دموعه من الانهمار وجه الحاج كريم قاتم السمره ينظر اليه بثبات ويتكلم بقوة عارمة .

ـ ناسك ٠٠ أهلك ٠٠ بهايم يا عبد العزيز ٠٠ خلق الله اللى جايه من آخر الدنيا فرحانه ٠٠ خطوتهم ينهز لها العرش ٠٠ ياجاهل ٠٠ وسع من طريقنا ٠٠ ابعد عننا يا بولباس نجس ٠٠ ابعد لا تدوسك الرجلين وتسويك بالأرض يا كافر ٠٠

انتهى عبد العزيز تماما كانما هو راقد وملايين الأقدام تدوس صدره ووجهه وتسحق مخه واحشاءه وتخلطها بالتراب ، هو ميت قاعد ٠٠ وصوت الحاج كريم متهدج الى درجة البكاء ٠٠

ـ عباد اصنام ٠٠ ؟ !! الله يلعنك ٠٠ احنا قلوبنا مليانه بمحبة أولياء الله ٠٠

وانتشرت الهمهمات ومصمصات الشفاء فى الأركان

ـ لا حول ولا قوة الا بالله

ـ اسكت ياحج كريم ٠٠ اسكت

ـ استغفر الله يا راجل ٠٠ ما تلعنش ابنك

ـ لا اله الا الله ٠٠ لعنة الوالد وحشه ٠٠ غضب الوالدين من غضب الله ٠٠

ـ ساعة غضب ٠٠ اللهم لا تسمع

ـ ولد طيب ٠٠ لكن الشيطان شاطر

وعلى خليل فى الركن القصى أصفر كالموتى والعايق ذليل الوجه ككلب واحمد بدوى ينظر الى عبد العزيز دون تصديق ٠٠

وعيون محمد كامل تسح بالدموع ٠٠ يرفع يديه ومن خلال دموعه ٠٠

ـ الفاتحه يا رجاله ٠٠ الفاتحه ان ربنا يهدى عبد العزيز ابننا ويبعد عنه الشياطين ٠٠

اغمضت العيون وبدأت همسهمه القراءة ، الحاج كريم يقرأ رافعا يديه فى ابتهال ، انهمرت دموع عبد العزيز بلا حساب مشى يجرجر نفسه مبتعدا ٠٠

بدأوا يتساقطون يفرش كل واحد لفاعه ويطوى ساعده تحت راسه وينام رجال ونساء واطفال بلا تمييز وبدأت الضجة تخبو رويدا رويدا ٠٠ عيون قليلة ساهرة وثمالات احاديث متباعدة فى الأركان والحاج كريم يدور بسوى مراقد النائمين ويقضى الحاجات ويرشد السائل ثم يجلس متهالكا يمتص آخر انفاس سيجارته ٠٠

دخل عبد العزيز غرفة العيال، ابعد جسدين ونام بينهما ، طوى ساعده وأراح رأسه ٠٠ ثمالات الحديث فى أرجاء بيت الخدمه حزينه، لانوم .. دموعه تسح .. تساقطت الكلوبات واحدا وراء للأخر حتى ساد الظلام انفاس الخلق الرتيبه دبيب حشرات الليل .. وهولا ينام كأنما هذه الحشرات تمشى داخل دماغه لا نهايه لهذا العذاب لا نوم مع الوخزات فى داخله ، جسده مجهد لكن رأسه يقظه بشكل كامل .

بدأت الغرفه تستضىء بضوء باهت خابى ياتى من شقوق الشباك راى وجه سميرة بجوار وجهه ، تبتسم فى نومها . حلوة ، طفلية الوجه ، احبها من شفاف قلبه ، تحدرت دموعه ساخنة ، قلبها بشفتين مرتجفتين ، قبلها فى فمها ، أنفاسها رتيبه ساجيه ، تأمل صفاء وجهها ، .. لقد عرت نفسها من حرارة الغرفة أول مره يرى جسدها عاريا هكذا ، خمرى ساج اللون فى هذا الضوء

الكابى ، جســد متميز ممتلىء متناسـق رقيق ، ضـمها اليه طاوعه جسدها النائم ، وضع راسها على ذراعه وضمها اليه أكثر ، ملتصقة به تماما بشغف عميق مد كفه تحسس بطنها العــارى طرى ناعم دقات قلبه تسرع قرب وجهه من وجهها ليقبلها ، ثم فجأة فتح عينيه كانت تنظر اليه بثبات والدموع تنهمر من عيونها .. انتهى كل شيء .. سقطت يده ، تحول الى لوح ثلج ، قام متثاقلا ينقل رجليه بين الاجساد النائمة حتى خرج من باب بيت الخدمة ، رؤوس تفزع تنهض تنظر اليه بعيون مستفهمه يتجاهلها فتعود الى النوم .. الشارع ناعس مصابيح متباعدة مومسات يتسكعن فى الأركان مخبرو بوليس يسيرون بنشاط كنسمات فجائية عساكر الدرك يتمشون فى عناء ..

وفجأ اندفع سكير طويل متقوس يسير متخبطا ويصرخ بأعلى صوته

– يا داهيه دقى .. حوشونى ياخلق هوه

وخلفه بضعة عيال مشعثى الشعوى يلبســون اثمالا غريبة ، لصوص وجامعو اعقاب سجائر يطاردونه بالحجارة تتساقط عليه كالمطر .. وهو يصرخ مستغيثا بأعلى صوته فى لحظات انقض عليه المخبرون والعساكر بالعصى وكعوب البنادق حتى سقط فى مكانه .

الــــوداع

أصبح الشرود جزءا من طبيعة عبد العزيز ، ينعزل عما حوله يغرق فى تصوراته ، لـكنه يفيق كل آن على حديث أبيه مع ابنة خالته حبيبه ٠

ـ سوق اتنصب ٠٠ اللى كسب كسب ٠٠ واللى خسر خسر ٠٠ ربنا يطلعنا منها على خير ٠

ـ بدرى يا حج كريم

ـ جوار ربنا أحسن يا حبيبه

ـ بس الفراق صعب

الموت هو النتيجة النهائية للصراع بين عوامل البقاء وعوامل الفناء .. حقيقة صغيرة وثابتة واكيدة .. فلماذا الألم ؟ لازال فى صدر عبد العزيز قلب ذلك الطفل الصغير الخائف والعيال متكومون على ظهر الفرن حول اختهم الكبيرة والمصباح عين ساجية مرسومة على الحائط وكلاب القرية جميعها تقيم مناحة هائلة فى جوف الليل وتقول الأخت الكبيرة هامسة

ـ الكلاب ماسكة ٠٠ لازم حد حيموت الليله دى

فان عزرائيل اذا الم بالقرية لا يراه الآدميون وما تبصره الاعيون الحيوانات ٠٠ ويبتسم عبد العزيـزللذكريات القديمة

الحاج كريم يتأمل ما حوله بامعان شديد ، الكنبات التى بليت أكسيتها ، البسـاط الباهت ، الآية القرآنية .. ينظر للاشـياء فى الحجرة القديمة محدقا كأنما يراها للمرة الأخيرة ..

المادة لا تغنى ولا تخلق من عدم لكن اذا مات الحاج كريم فأنه سوف يفنى فانه ليس حالة من حالات المـادة انه جوهر فرد ، انه الحاج كريم . عبد العزيز يحبه كما لم يحببه أبدا .

لكنه يا للأسى ، الحقيقة العلمية خالية من الشعر ، بسـيطة وقاسية عرف عبد العزيز كثيرا ٠٠ تعذب أكثر ليؤمن بما يعرف لكنه لا يستطيع أن يجلس على الدكة فى ردهة الدوار وحوله الرجال منصتون ..وجوههم مضاءة بضوء الفانوس وهو يصفق باطن قدمه ببسطة كفه ، يحكى والرجال حوله مشدوهون .

فرغ الحاج كريم من فنجال القهوة وما عاد الا السلام والوداع

ـ ابقى تعالى يا حاج كريم ٠٠ كل ما تزور السلطان ميل على

ـ ان كان فى العمر بقية يا حبيبه

ـ لو كان بايدى كنت جيت لك كل يوم

ـ طول عمرك وداده ياحبيبه

كان الحاج كريم حكى لعبد العزيز كيف كان طفلا صغيرا يجلس خائفا على مصطبة الـكتاب يتلو قصار السور مع كورس الاطفال الخائفين من عصا الشيخ الطائرة فى الهواء الواقعة على أجسادهم تستحثهم على مزيد من الصراخ .. وحكى أن عينيه دائما كانت على باب الـكتاب تترقب مجىء حبيبه ابنة خالته ، تأتيه كل يوم فى جلبابها المورد وشالها الأزرق والصرة الصغـيرة فى يدها ، تستأذن الشيخ وتأخذ كريما فى ناحية ، تفرد صرة الطعام أمامه تطعمه وتذهب خوفه ، تحادثه قليلا ثم تتركه راجعة ..

كانت تأتيه كل يوم الى أن زوجوها ، ويوم زواجها راح الى هناك ، احتضنته الى صدرها وهى فى ثياب العـرس ، لازال يحس حريرها على وجهه ، بكت وضمته الى صدرها ، انفلت من ذراعيها مخنوقا بالدموع وعاد الى قريته ، الى دار أبيه دار كبيرة

مائجة بالعيال والنساء والبهائم لا يألف فيها أحدا ولا يأبه له فيها أحد .. ماتت أمه يوم ولادته .

هكذا تكون الزيارة ، قصيرة دائما لـكنها أبدا مشحونة ، نزلا على السلم المعتم المتآكل الدرجات يستندان على السياج ، لحبيبه هذا البيت القديم فى طنطا ، ولها أولاد كبار يطيفون بها أحيانا للزيارة والسلام ٠٠ عبد العزيز يسند الحاج كريم من تحت ابطه كم صعد هذا السلم جريا وهو بعد صبى وكم سار خلف ابيه مؤدبا والأب يدك الدرجات بخطوة المكين .

فى ضوء الشارع ابصر عبد العزيز وجه ابيه مذبوحا بخطين من الدموع خجل الرجل لما احس بنظرات عبد العزيز، مسح دموعه بكفه وشفتاه ترتجفان بما يشبه الابتسام ٠

ـ أنا بعيط يابنى زى العيال الصغيرة

أرضع كريم الصغير من اثداء نساء كثيرات لكن لبان الغريبات لا تبل حرقة الرضيع ربما كان يبكى حرقته التى لم تبل أبدا ٠٠ ربما كان يبكى العبرات التى كتمها يوم عرس حبيبه ٠٠ لكن عبد العزيز يحبه كما لم يحببه أبدا ..

مشيا يصعدان فى حارة رطبة ، يتجنبان الحفر التى تكونت أمام البيوت من القاء الماء القذر اصول الجدران متآكلة تماما حتى لتكاد البيوت ان تسقط من علوها ، لـكنها هكذا دائما ، تبهظ القلوب باحتمال انهيارها ولا تسقط أبدا ..

شارع سيدى مرزوق خال الا من بقايا ريفيين مسرعون بسلالهم وعيالهم ونسائهم الى المحطة وعلى ابواب الدكاكين التجار ينظرون ناحيتهم فى تعب وخوف والعيال يلاحقونهم بالشتائم ٠

ـ وسختوا البلد يا بهايم

جمل عمر فرهود الهائل بارك عند أسفل السلم الحجرى انفه الطويل الضخم المتكبر وعيناه الواسعتان وشفتاه المتهدلتان على فكه الأسفل فى لا مبالاة وازدراء ٠٠ وفى أعلى الشارع جمال أخرى حملت صحاحير أخرى ومشت تنقل كلاكلا ثقالا وتمضى راحلة .

عمر فرهود يدور حول الجمل البارك يعدل العدة على ظهره ويفرد الحبال ويستوثق من الاربطة واذ يرى الحاج كريم يشرق وجهه ويقبل مسلما ٠

ـ كل سنه وأنت طيب يافرهود ٠٠ تعود له بخير

ـ وأنت طيب ياعم الحاج

ويصعد الحاج كريم درجات السلم الحجرى وئيدا مستندا على عصاه فى الواجهات الثلاثة النسوه اللآتى بقين هنا سنين وسنين تهدلت الصدور تترجرج خلف شيت الثيـاب لم تعد الضـحكات مجلجلة مغناجه ٠

ـ نهاركو سعيد يا سات

ـ سعيد مبارك يا خويا ٠٠ النبى عليك نور يا حج ٠٠ مدد يا سيد ٠٠ البنات الصغيرات كبرت كثيرات منهن تزوجن وتفرقن والباقيات قلقات لم يعد لهن مكان هنا ٠٠ لم تعد هذه بيوتهن يردن أن يطرن يخلينها لزوجات الاخوه .. ريح الرحيل تهب على كل شيء الرحيل عن الأماكن العزيزه والحـاج كريم فى وجهه أسى الفراق يخالطه الأمل فى الرجوع مع دورة العام ٠

ـ العوده بخير يا أهل الله

ـ ألف عوده يا حج

وصعدت السلم فتاة سمراء فتيه تضرب على دف فى يدهـا أبوها العجوز ينفخ فى سبسب

العاده يا رسول الله
العاده زى عمنول

ويقف الحاج كريم هنيبه يتأمل فى المغنيه الصغيرة وأبيهـا العجوز منذ سنين وهذا الرجل يأتى فى هذا اليوم بالذات ليطلب العادة تأملهما الحاج كريم مبتسما متفائلا ونادى على العايق

— اديلهم يا عايق ٠٠ اديلهم ٠٠ ربنا ما يقطعناش

ويملأ العايق حجره كسرا وقراقيشـا ويعطى الرجل العجوز والأطفال من عيال الحارة يتقافزون ويطلبون الخبـز والقراقيش والحاج كريم يبتسم

— اديلهم يا عايق اديلهم

ويوزع العايق لقما صغارا فى الاكف الصغيرة وهو يسرسب الكلام

— خدوا ٠٠ خدوا كام مره ٠٠ مش نخلى حبه للناس اللى طول مدة المـولد مغلبينهم .. هاتى حلتك .. هاتى برادك .. هاتى وابورك ..

العايق يرتدى نظارة سوداء رخيصة بصرة يستلب رويدا رويدا ولا احد من الذين يدور عليهم يسألهم دواءا أو وصفه عرفو لذلك سببا عيونه تظلمان بعض الناس يقول : لموت الجازيه ٠٠ من يوم ماتت لم تقم له قائمة وبعض آخر يقول بما أكل من حرام ٠٠ لكن عبد العزيز يرقب فناء نور عينيه بحزن

— حملوا يا عمر ، حملوا يابنى .

وانطلق عمر فرهود داخلا الى بيت الخدمة ووقف الحاج كريم وسط الباحة مستندا على عصاه ضاما عباءته الى صدره وخرجت

أم طلعت من الباب تحمل كرسيا ناولته لعبد العزيز قدمه لابيه الذى نظر ناحيتها شاكرا دون أن يتكلم وجلس على الكرسى واضعـا عباءته على حجرة وكفيه على عقفة عصاه ناظرا الى الأمام وعبـد العزيز واقف خلفه ٠٠ وأم طلعت جالسة على درجة السلم الأولى فيما يلى باب البيت مباشرة والنساء فى الشـبابيك ٠٠ أصـوات تناد أو صرخات عيال لكن ثمة صمت جاثم خلف الاصوات المتقاطعة صمت مكين لا يناقش كارضية سوداء قاتمة تحمل نقوشا ملونة متباعدة ٠

خرج الرجال من باب الخدمة يحملون بينهم الصحارة الكبيرة مشوا بها وئيدين ثقيلى الاقدام على الأرض ونزلوا بها على السلم الحجرى ووضعوها على أرض الشارع بجوار الجمل البارك ، وعادوا صاعدين ساكتين ليأتوا بالصحارة الأخرى وعراقى الأطرش يتبعهم نازلين صاعدين لا يحمل معهم نقط وجهه غارق فى الاهتمام وشفتاه تتحركان بكلمات لا تسمع وعيناه تكادان تقفزان قلقا ٠

كدست اشياء بيت الخدمة حول الجمل ثم حملت عليه واوثق الحمل بالحبال وبعد الرجال متحلقين حـول الجمل العظيم أطلقه عمر فرهود من عقاله وصرخ فيه والرجال يهتفون باسم الله والسلطان ويدللون الجمل بألقاب الاعزاز والتمجيد والجمل لم يخيب رجاءهم الملهوف فى عيونهم فنهض بالحمل نهضتين ثم قام شامخا رافعا راسه الى الأماك وفرك الرجال أيديهم مبتسمين وسلم عمـر فرهود على الحاج كريم وقبله بين عينيه .. تندتا بدمعة صغيرة أجهش عمر فرهود بالبكاء ورفع ذراعاه داعيا .

— يارب انت الرب واحنا العباد .. الطف بنا

وابى عبد العزيز أن يسلم عليه من مكانه نزل معه السـلم الحجرى ومشى معه قليلا ..

ذلك الانسان الطيب امرأته مريضة من زمان على فراش صغير على مصطبة وسط الدار ناحلة المعصم تهش الذباب عن وجهها بحزمه من خوص النخيل وابنهما الوحيد ازهرى فاشل يرهقها بالعراك والمطالب .. الرجل يلزم جمله طوال النهار .. لو كان يتكلم لربما كان استغنى عن الناس أجمعين .

رجع عبد العزيز يصعد السلم الحجرى الرجال يخرجون من بيت الخدمة فى يد الرجل سلالة وطفلة وخلفه امرأته يسلمون على الحاج كريم ..

– كل سنة وانت طيب يا عم الحاج..ألف عوده

ويتأمل الحاج كريم وجوههم المتحلقه حوله ويتنهد

– أنا خلصت يا ولاد

وتغيم الوجوه بسحابات الحزن

– يا عم الحاج ما تقولش الـــكلام ده .. الدنيا من غيرك ماتتسكن

– يا عبيط طول ما فيها ناس .. فيها خير

يسلمون ويمضون يتحدرون على السلم الحجرى نازلين .

ها هم آيبون فى السلال بعض الحلوى ولعبة للطفل قلوبهم ثقيلة يتاملون على الجانبين وجوها معادية وفى أدمغتهم التساولات اترى خدعوا فيما اشتروا أم لا..؟ وسوف يظل التساؤل بلاجواب، لا شفاء لهذه المخاوف انها هذه المدينة الغريبة تتركهم دائرى الرؤوس منذ فجر غد سيكونون على رؤوس الغيطان اقدامهم غارقة فى الطين وايديهم ملتهبة بواطن اكفها من القبض على الفاس والعرق يندى الجبين من جديد دوامة الكدح والعناء لكن لبضعة أيام آتيه ستكون ثمة حكايات وضحكات، جلسات على اكوام التراب وعلى المصاطب أمام الدور وحديث عما جرى وكان فى أيام المولد ومنذ هذه الجلسات

ستولد بذرة الشوق الى سفر جديد .. بذرة تنميهـا أيام الكـد والشقاء تحت وطأة الظهيرة حتى يدور العام وينادى المنادى لمولـد السلطان ..

اتت رشيده ووقف كسيرة بين يدى والدها

– أنت مروحه يا بنتى

– كل سنه وأنت طيب يابا .. ألف عوده .. أطبخ لرجالتك ألف عام

– بنت أبوكى يا رشيده .. الله يبارك فيك

ويخرج من جيبه ورقة مالية

– هاتى حاجة من السـكة لولادك .. أبوكى محمد العايق هيوصلك انتى واخواتك لحد المحطة ... ركبها يا عايق .

–حاضر يا سيدى

العايق يحتاج من يقوده لكن تلك هى العادة .. العادة التى لا يريد احد ان يخل بناموسها ولو فى تفصيل دقيق. تسلم رشيده على أبيها وتقبل يده مرات كثيرة ويعرف عبد العزيز انها ستقضى الطريق سائحه الدموع ..

الحاج كريم ينظر ناحية المسافرين ساهما عيناه مسافرتان وراءهم لكنه التفت الى يمينه ونظر مليا حتى ادرك أخيرا أن هناك محمد كامل واقفا يحمل سلالة وفى يده طفلة صغيرة..ليس هو محمد كامل الذى طالما وقف بين صفى الذاكرين طائر الذراعين تتدلى أكمامه كنبى ليس هذا هو محمد كامل المنصت لحكايات الحاج كريم ووجهه غارق فى ضوء الفانوس شخص آخر ضائق حتى بمراسيم السلام يريد أن يخطف المصافحة ويجرى .. تأمله الحاج كريـم مذهولا هذه أول مرة يسافر فيها قبل الاخوان .. يســافر دون زيارة الوداع للسلطان ..

- حنودع السلطان الليله يا محمد يا كامل
- سألناكم الدعا .. ما ليش نصيب
- مستعجل ليه
- الميه جايه الليله .. عاوز أروى
- خليك لبكره .. كل تأخيره وفيها خيره
- ارادة ربنا

لا محالة مد له يدا يصافحها أقبل محمد كامل على اليد الممدودة وفى هذه اللحظة فجاة اصفر وجهه كوجه ميت وزاغت عيناه ثم اندفع ناحية السلم جاريا لا يلوى على شيء .. لا بد أن دموعه تجرى الآن على وجهه تفكر عبد العزيز ؛ ألم يكن من حق الحاج كريم ان يرى هذه الدموع ؟.. ثمن صغير لأيام العمر ، للسهرات والأسفار والكلام الطيب ...؟

وكأنهما مقبوض عليهمايدفعان منظهورهماتقدماالىالحاجكريم وخلفهما ابنهما الشحات ، الشركسى النجار عجوزا ناحلا كئيبا زيتونى الوجه يستند على عصاه وامرأته طويلة فحلة جهمة الوجه وجه الشحات وجه مجنون حاجبه الأيسر يميل على عينه حتى يطمسها فكه الأسفل هائل مندفع الى الأمام شفتاه رقيقتان مزمومتان وجلده مبقع غريب تذكر عبد العزيز كل ما يقال عنالشراكسةهذا الشاب بؤرة جمعت كل اشعاعات الخبال .. كلمة عبد العزيز .

- مستعجل ليه ياشحات
- كده
- طب سافر انت وخليهم
- لا

ثم استدار لعبد العزيز كفاه متقابضان خلف ظهره وفوق كتفه تجتمع عضلات عظيمة تكون مايشبه الحدبة .

مد الحاج كريم يده للمسافرين دون كلام ، كان وجهه قاتما نهض داخلا الى بيت الخدمه أسنده عبد العزيز من تحت ابطه احس انه مختنق لا يتنفس بسهوله مخلب مسموم عتصر قلب عبد العزيز منذ متى والرجل مريض لكنه لا يستشير لبيبا فقط يسال الاخوان والحكماء ..

- يابا روح للدكتور
- يابنى ما تشغلش بالك .. حاجه بسيطه

البيت خالمربعان كبيران من القذاره المتراكمه مكان الصحارتين اللتين كانتا مركز هذا البيت تخرج منهما ارغفة الخبز واحفنة القراقيش دون انقطاع للناس..

جدران الصاله وسخه متقاربة يسمع وقع أقدامهما فى السكون كأنما يمشيان فى فراغ سحيق .. قبالتهما احمد بدوى ووراءهامرأته،صاربها حفيافىالفترةالأخيرة بعد أن تركهما ابنهما الى القاهرة سيوصلها بنفسه الى المحطة ساكن الوجه يمر بالحاج كريم دون كلام يشير له الرجل براسه ويمضى .

بجوار الحائط يجلس على خليل عيناه بؤرتا حزن وجهه شاحب شحوب الموتى ، طول عمره يكابد العلة ، شيء فى داخله ينمو ليهدم هذا الكيان وربما كان ثمة ادراك غريزى وراء انطلاق كورس الدراويش عقب كل حضرة ..

« اللهم اكفنا السوء بما شئت وكيف شئت انك على ماتشاء قدير » ..

ادراك غريزى لهذه الكائنات الدقيقة التى هى جزء منحياتهم والتى تلتهم هذه الحياة يعزمون على حيواتهم العزائم لكن لا راد للمصير ..

- قاعد لوحدك ليه يا على ..؟

قام على متسندا مشيا معا الىغرفة الشيخ جلسا علىالحشية بجواره ، جلس عبد العزيز عن كثب ..

طول عمر الحاج كريم وسط هؤلاء الرجال وسط خشيش القماش الخشن .. هاهم حزانى بائسون المستكاوى يسعل حتى يكاد يلفظ روحه ..

– آه يانى .. رحمتك يارب .. جوارك احسن .

وعباس لا يفتى فى أمور الدين يخرج من جيوبه صنوف الزجاجات الصغيرة ويتأملها ويحدق فيها ثم يستخرج منها بلابيع صغيرة ويزدردها،اماصانع الرقىفهو تمثال شاحبلايريم،وصانع القهوة يخرج من جيبه منديلا محلاويا ويمسح عيونه التى تسح منها الدموع بلا انقطاع ..

– الحمد لله قضينا أيامنا على الأعتاب ..

وخط الشيب راس الشيخ متكىء على حشيته سارحا صوت حبات مسبحته يعمق الصمت ..

سمع صوت صديقه المخبول ..

– مالناش فى نفسنا حاجه .. نعمل ايه .. نعمل ايه ..

حل الصمت تلفتوا الى بعضهم صامتين أخرج صانع الرقى قلمه وورقة صغيرة وكتب رقيه مديد بها للشيخ باركها وناولها للحاج كريم ربما هذه أول رقية مجانية يصنعها هذا الرجل فى عمره .. أخذها على خليل الذى لا يكاد يقوى على القيام .. خذها من يد الحاج كريم وقام الى صديقه اخذها من معصمها ، وخرج بها ربما يطيف بها حول مقام السلطان ثم يركبها قطار الى البلد .. كانوا ساكنين ودموع حسن افندى تسح بلا حساب ..

اجتمعشملهم جميعا بعد ان أب احمد بدوىوعلىخليل،جلسوا جميعا ساكنين الثلة الحبيبة .. تطلع الحاج كريم بعيونه البنية المشتاقة ..

– آن الأوان يا عمى .. تقوم تودع السلطان .

– ايوه ياحج كريم .. انشاء الله ..

قام الشيخ سوى جلبابه واخذ عمامته الخضراء من الشباك وحبكها على جبينه ومشى وئيدا خارجا من الغرفة الى الردهة الى الباب وخلفه الحاج كريم وباقى الاخوان فى الباحه التى امام البيت .. وقف الجميع هنيهة وتبادلوا نظرات ساكنة ثم بدا الشيخ ينزل درجات السلم الحجرى والجميع وراءه .

لم يعرف عبد العزيز بعد لماذا تثقل هذه الساعة من النهار قلبه بالكآبة حينما تشحب الشمس وتمتد رقائقها الذهبية على الأشياء ، جماعة الرجالمتكسرة الظلالعلى أرض الشارع تذكره بظلال النخيل امام شرفة الدوار ساعة الاصيل .. يومها رآهم آتين بها من طنطا كان الكل يعرف ماعدا هى .. الكل يعرف ان اليوم ستزوج سميره من شاب من الفلاحين .. وفى المساء كانت تصرخ كلبؤة حبيسة بين جميع النساء فى غرفة دارهم رافضة أن تصرح لوكيل يزوجها لهذا الرجل الذى يريدون يومها بقى ينظر ناحيتها حينا ثم قال لها :

– وكلى ياسميره .. وكلى ماتوقفيش الرجاله .. بلاش فضيحه ..

لم يكن يدرى مايقول ، كان فاتر النفس ثقيلا نظرت اليه من خلال دموعها ..

– طيب وكلت خالى ..

ثم لم تبك بعد ذلك ابدا .. الى اليوم وعرف بعد ذلك انه كان بوسعها ان تقول طول عمرها لا .. من اجله ..

ظلال الرجال على أرض الشارع طويله متكسره كانهم يشيعون ميتا تقدم اليه أحمد بدوى محاذرا ..

— سرحانه الغزاله أوى ياسى عبد

— ..

— قلل لى ياسى عبد .. لو متنا .. تفتكر تقرا لنا الفاتحه

— كل يوم

— الله يرضى عليك

اختزنت الأرض حرارة اليوم والان تبوح بها انفاسا زخمه بالوساخه والماء المرشوش امام الدكاكين التجار قاعدون فى كسل أو متنادون عبر الشارع،جرسون المقهى يزعق بالمطاليب القليلة المتباعده امرأة تنادى من الشباك على بائع أو تنشر ثوبا مبلولا أو تدس يدها فى سلة تاخذ بصلا لطبيخ العشاء فتاة تسرح عيونها بعيدا لا تقعان على شىء واجهات لبيوت قديمه فقيرة بالحياة ..

ترى أسعيد محمد كامل الآن أم تعيس ، غارق السيقان فى الطين ملتهب الكف بالفاس وحيد دون الاخوان .. ظهر الفرن ملىء بالعيال بعد سنين من الصمت لكن عيون امراته خاليه من الحنان والمحبه مهمومه بالمعاش..هل يذكر صديقه..هل يحن الى مباهج الطريق التى يجافيها الان الانسان .. الدم واللحم والعظام واخلاط العصارات كيف تفرز كل هذه الحيره والألم هل بجهل كل شىء أم نعرف كل الأشياء أم أن علينا أن نكدح ايام الحياة كلها لكى نعرف اقل القليل ..

انحرفت الجماعه فى درب الحمام طويل معروش معتم

ملىء بصانعى الدفوف ، اكداس من اشلاء الجلد والخشب من هذه الأكوام تصنع الدفوف خالقة الحياة فى الليالى ، الصناع متكاسلون يتحادثون ويضحكون قليلا ..

من الدرب تتفرع سكه صغيره تقود الى باب الحمام الواجهه مزينه بتهاويل تمت الى العصر الفاطمى والباب كتله صلده من الخشب مزينة برؤوس غلاظ المسامير كم فتنت هذه الواجهة والباب عبد العزيز وحكايات النساء العواقر وزيارتهن للحمام بحثا عن الخصوبه وعن الرجال موجوعى الظهور وعن بركة الماء اللهاب السخونه ..

ثمة قبالة الباب الغربى لمسجد السيد البدوى بناء آخر،تحفة من الرخام يقولون كانت ساقيه تمد الجامع بالماء وكان تدور فيها ثيران النذور ليلا نهارا،المسجد والساقية والحمام،ماذا كانت جغرافية المكان فى الزمن القديم وكيف كان الناس والكلام والبيع ربما تلك الثلة من الرجال يمتون بأرواحهم الى العصر الفاطمى اكثر مما يمتون الى اليوم .. لكن هذه العمائر السخيفه زحمت الميدان وضيعت رواءه ..

انفتح الزقاق الضيق على رحابه الميدان ، المقام ، المصابيح فى صدره بدات تنبثق فى لمة الغسق ..

وجهه الحاج كريم طائر كحمامة برية سمراء مشتاقة الجمع يهتز بالهمهمات والتحية والدعاء .. وعبد العزيز حائر وحيد وهو معهم لا شىء يهز قلبه بارد هامد يتلفت مكسوفا .

أحس العايق انهم بازاء المقام هتف مولولا

— يا سيد .. طول عمرى أنور لياليك .. نور عينيا يابو فراج

الميدان هادىء خال تقريبا حجم المسجد المضاء الجوانب بمصابيح الكهرباء له جلال،وسيطرة ونفاذ شىء فى صلادة الجدران ولمة

الضوء على شبابيك النحاس الهائلة وهم يمشون ونيدين نحو المقام وجه العراقى منصب على الجامع .. مخبولا يهينهم بفتات حروف لا يكون معنى كانما لبست جسده روح مارده فهو يرتجف بعنف خارق رغبة خرافية فى الالتحام بهذا البناء الضخم المكهرب .. كان وراء الانسانية الخرساء رغبات كهذه جعلتها تمد المدائن على وجه الأرض .

كان عبد العزيز طفلا صغيرا حينما رأى لأول مرة فى حياته رجلا يطأ بساط الجامع لابساحذاءه، حينئذ اصابه الفزع وسأل أباه وعلمه الأب أنه طالما كان الحذاء نظيفا فلا بأس فى أن تداس به بسط المسجد يومها كان هذا الرد مسكتا لكن المسألة ظلت كما هى ثمة من يدوس بسط الجامع لابسا حذاء البللور الشفيف الذى صيغ منه عالم عبد العزيز شابه شرخ طفيف كبر واتسعت عيونه أصبح يرى عددا أكبر من التعلات تطرد صفاء روحه توقعه فى الشك والألم أصبح يستنكف من الدوس حافيا على بلاط مسجد السلطان الذى توسخ من عشرات الآلاف من الفلاحين .. لكنه استبقى حبه لهؤلاء ويقوا دائما هنا ينظرون بطيبة وحب الى كل الأشياء .

خلع حذاءه وحمله فى يده ومشى وراءهم صامتا يرفع قدما بعد أخرى من البلاط اللزج بالوساخة .

لعله سر الابهاء الشاسعة والعمد القائمة والسقف العالى انها تحيل الهمهمات واللفظ والتنادى والتشاحن والترتيل والصياح تحيل فوضى الأصوات هذه الى شيء آخر. تخلطه كله وتجعله له اصداءا وابعادا وترددا .. تخلق منه صوتا واحد جليلا مهيبا يصيب القلب .. ابهاء مسجد السيد البدوى أول ما يملك القلب بعد أن يخلص الداخل من المشى الصغير الذى يلى الباب .. والذى يصطف على جنبه حراس الاحذية وصناديقهم ذات الخانات .. مشوا جميعا

عبد العزيز يعرف مايهز هذه القلوب من الأعماق فلكم ذاب قلبه من جلال الاصداء فى المساجد الكبيرة .. شيء فى مؤخرة دماغه يبتسم فى حزن ، وداعا لمسرات الطفولة المسرات العميقة ..

هؤلاء الشيوخ على الجانبين بمقارعهم خدم المسجد حراس الابهاء الجليلة العالمون بما يحرسون يخبطون الناس بالمقارع خبطات هينة يقصدون القلوب يريدون تسليما تاما لا يريدون نظرة شاردة او زائفة أو فيها جسارة ..

— أذكر الله ياراجل ما تغفلش

ويضيق عبد العزيز بهم يراهم لزجين اكسبهم الطعام الكثير والظل سمانه مرضية مقززة ويراهم قلقين ويرى فى عيونهم شراهة وربما كراهية عميقة لهؤلاء المتدفقين على المقام الكهان ثمنهم هذه القروش التى تودع فى ايديهم فيسرعون بها الى جيوبهم ..

لكن الرجال لا يلتفتون ، لا يعانون ما يعانيه عبد العزيز يمضون الى أبهاء المسجد .. هؤلاء الذين عاشوا لآلاف السنين فى أكواخ الطين ممتلئين حنينا لروعة الابهاء وروائها .

بهذه اللهفة والاقبال والخلوص بهذه الأيدى الخشنة شيدت القباب والعمد والابهاء نحتت المعابد فى صميم الصخر ، خلق الظل الطرى فى حميم الصحراء .. وقفوا هنيهه ساكنين قلوبهم تهر هريرا بالتسابيح والدعوات تبادلو معا نظرات وابتسامات مسروره ..

— ما شاء الله العظيم

استخفت أحمد بدوى فرحة طفوليه

— الخورنق كان ميه وتلاتين طابق كلها من عمدان الرخام

نظروا له ساكتين الفرحة تزدهى فى وجهه كطفل لم يرد عباس أن تفوته المناسبة ..

ـ المساجد جنة الله على الأرض

وعاجله المستكاوى

ـ دا حديث ولا قرآن ده يا عباس

لكن الشيخ والحاج كريم مضيا فقطرا وراءهما باقى الرجال .

المصراعان مركونان على الجانبين والباب مفتوح على آخره عن هيكل النحاس البراق المتلالىء فى ضوء الثريات الهائلة المحملة بمئات العيون الباهرة الضوء وقفوا فى فتحة الباب هنيهة خاشعين ساروا دائرين حول المقام يمسكون بشبك النحاس ويمرغون الوجوه ويبتهلون بالدعوات كان عبد العزيز هنا فى الليلة الكبيرة كادت جموع الفلاحين أن تخلع المقصورة من مكانها أما الأن فان أشباحا قليلة تمر متكسرة حولها وهى فى الوسط شامخة مسيطرة متلالئة

مال أحمد بدوى على الركن ثمة صخرة عليها رسم قدمان هائلان هنا وقف النبى حافيا فلان الصخر له كرامة وقفزت الى ذهن عبد العزيز بشدة صور الاقدام الغليظة الخرافية للجوابين فى الريف هذه الاقدام التى تمثل تحد حى للمسافة وسخرية من العناء والمشقة هل يلين لها الطريق وتنسحق تحت وطئها الحصباء، أحمد بدوى يبحث عن عالمه فيما يرى حوله ذلك العالم الذى اصطنعه لنفسه من صحائف الكتب الصفراء وكلما وجد شيئا استخفه الفرح يلثم الحجر وينظر لعبد العزيز ، لا يدرى ماذا فى راسه لكن شيئا فيه يجذبه ويحيره

جلسو بجوار الحائط فالمغرب وشيك وهم عازمون على الصلاة فى المقام بهاء المقصورة مسيطر على الحاضرين تماما مصطفون بجوار

الحائط معلقى الابصار بها ، كل يرتل هامسا بالادعية والتسابيح لو كان محمد كامل هنا أكان يستطيع أن يجمع اراداتهم على رغبة واحدة يجهرون بها أمام المقام، أكان يقترح الفاتحة لعلة على خليل الأكيدة العاتية التى تبدو ضراوتها فى التماعة عينيه تمسكهما المستميت بالحياة .. أم بصر العايق السليب أم لمرض الحاج كريم أكان يجلس بجوار الحائط يهمهم وحده بالدعاء .

اصطفوا حول الأمام لصلاة المغرب تحت القبة الكبيرة وحينما مد جار عبد العزيز له يدا للمصافحة بعد انتهاء الصلاة كان سارحا ، خجل من شروده لكنه سلم على الرجل فى سكون وحينما بارحو المقام كانت روح الحاج كريم مازالت هناك وكانت عيناه نديتان بالدموع ..

جمعهم قليل يسيرون على أرض المسجد يتلفتون يحملون نعالهم فى ايديهم ويدبون واهنين عادت عيون الحاج كريم تحدق فيما حولها بامعان نظرة يعرفها الحكماء من أهل القرية فى عيون الرجل الميت اعتصر الألم قلب عبد العزيز .

خلصوا الى ممشى صغير معتم، طرقوا بابا فتح الباب شاب صغير أمرد يطل الأدب والرقة من عيونه ، غرفة شاشعة مفروشة بالحصير فى الصدر اريكة هائلة يجلس عليها رجل عار الرأس مرسل اللحية والشعر كأنما هو من أهل الكهف عليه جلباب وحيد فقير متسخ حالما رأى ضيوفه قام مرحبا

ـ أهلا بالافاضل

واصر على تقبيل يد الشيخ

ـ بضعه من رسول الله .. بضعه من السلطان

وكلما ذكر اسم السلطان قمص وتثنى كأنما برزعود من الحائط من ناحية المقام وغمزه فى جنبه، كان شيخا فى المعهد الدينى الثانوى

في طنطا ثم استغرقه حب السلطان وحرفه عن عمله وبيته وانتهى به لان يعتكف هنا ..يجرى عليه من اوقاف السيد رزق قليل ويخدمه فى عزلته هذا الشاب الأمرد الرقيق ..

فيه جلافة وخشونة وطلاقة آسره أقبل عبد العزيز على حديثه بشغف، شخصية خرافية انطلقت من جوف الكتب الصفراء، فصيح البيان واضح العبارة كنبى مسيطر ينبش ويهيل عليك تلالا من لون خاص من المعرفة يبهرك عمقه وذواقه وعاطفته وصفاؤه..أحمد بدوى يكاد يطير فرحا لكن عبد العزيز بدأ ينصرف من حديثه رويدا رويدا ويراقب هذه القمصة ينتظرها ويضحك منها فى نفسه لولا هؤلاء الرجال لكركع بالضحك لكن كيف وهم حول الرجل غارقين فى الانبهار ..

خرجوا الى الميدان مرة أخرى رحب قليل العابرين والمقاهى من حوله مشحونة من داخلها بالضوء وبعض الرواد مشوا ينظرون ساكتين .. ماذا صنعو بشارع السكة الجديدة .. هدموه ـ وانشاوا مكانه شارعا واسعا، بقروا بطن الرواء القديم ، لازال يذكر صفى الدكاكين القديمين وسقيفة الظلل المدوده من الجانبين على واجهات الدكاكين للشارع عتامه وانغلاق حميمين هدموا كل هذا أصبح مفضوحا للشمس بنيت على الجانب المهدوم عمائر صغيرة سخيفة قميئة .

كانوا يدرجون من المحطة الى المقام فى شارع مسقوف له عبير يرقق النفس .. الأن يتلفتون فى عراء غرباء عن الشارع تجار جدد أو بعض القدامى فى دكاكين جديد لم يالفوها..بعد يرتبون اشياءهم مرتبكين .

متى يعتاد الناس هذا الشارع الجديد ويألفوه ويحبوه واى ناس سيكونون ليس هؤلاء الرجال على أى

حال تلك الشله غريبة عن هذا الشارع انما هم عيون تبحث عن شىء كان لهم فيه مسره قديمة ..

ذاهبون لزيارة الصارى تحدروا ليجتازوا النفق تحت كوبرى سمنود فى عنفوان المولد يرتج هذا النفق بالأف الاقدام وصفير الشباب وصرخات العساكر والباعة اما الأن فان الظلام يسود وقلة من العابرين ومتسولون يرددون القرآن بآليه وترداد..وهم يسيرون صدى اصوات اقدامهم يرن رنينا كئيبا فى الجدران ..

انكشف النفق عن الخلا الشاسع الذى يكون فيه مهرجان المولد عملية هدم شاملة تثير الفزع الرجال يتقافزون كالقرود على النصب التى كانت شامخة يلمون احبال لمبات الكهرباء والمناديل والاعلام واللافتات التى كانت تحمل عبارات صارخة وصورا غريبة تجمع الأن وتكوم على الأرض اجزاء الخيام وخشب الاكشاك السركات تفك مفاصلها وتكدس اشلأها الرجال والنساء الراقصات المهرجين الذين كانوا مزركشون فى الحراير الملونه يلعبون على اراتك العرض .. الأن يرتدون أى شىء ويشتغلون كفعله خشنون كئيبون متوترون ساخطون يشتمون ضائقون بالعيون القليلة التى تتاملهم فى دهشه وفضول .

ـ سوق قام ثم انفض .. أمال يا عم .. زى الدنيا

يسمون هذا الشارع (شارع الفرجه) من هنا مر مئات الألوف (يتفرجون) والنصب الشامخة الصخابة على على الجانبين اين هؤلاء الأن ليروا الهدم الشامل هم الأن فى القرى على المصاطب أمام الدور أو على الكيمان فى ضوء القمر يحكون عن المولد فجأة ومرة وحده يرجعون يتركون المولد فى عنفوانه لا ينتظرون ليروا هذا الهدم ربما يريدون أن تبقى فى اذهانهم صورة وقده المولد فى أوج ونفعالها يظلون يحكون عنها على مدار العام وفى الشوارع

يتقابلون الذين لم يذهبوا فى عيونهم نظرة استطلاع واســـــتفهام والذين ذهبوا فى عيونهم فرحة من رأى وشاف وعلى الأرض المتربة فى قيعان الحارات تتناثر أوراق الحلوى الملونة وقشر الحمص وفى ايدى بعض العيال زمامير وشخاشيخ والأخرون ينظرون فى حسرة ..

أصبح الطريق سائرا فى مهمه من الظلام مصابيحمخذوله متباعده سقيفة النجوم متلالئة باهرة الخلأ الشاسع تتنفس فيه نسمات رهيفة لكنك تدرك انها عملاقية جبارة .. سائرون الى الصارى .

ربما الصارى هذا شيء من الزمن القديم حيث كان قائد الجيش يرشق حربته أمام خبائه أو عصا طويلة وسط المعسكر يعلق فيها رايته أما الآن فقد اختص الشيوخ بالصوارى لكل شيخ صار .. عود طويل من الخشب يرشق فى الرحبه من الأرض التى يقام عليها المولد ويختلف الصارى ضخامة وقماءة حسب مقـام الشيخ فى الأولياء ..

فكيف يكون صارى السلطان ..؟ عملاق هـــائل من الخشب مرشوق فى قاعدة مكينة من الأسمنت يصعد نحو السماء حوله حشد من الجالسين متحلقين حوله أو الطائفين به فى استمرار لا يشوبه كلال ..

كلوبات خافتة ، باعه ناعسون .. ثم حشد من الجوابين لا يقرلهم قرار يرقصون حول الصاوى رقصة غريبة تطير هراواتهم وصرخاتهم فى السماء ، الأهازيج والصيحات فرحة وغضبة وثورة دموع وألم الصارى عمود مولد السلطان وروح سره ..

وقفتثلة الرجال ساكنون يبسملون بالدعوات ويرفعون ايديهم وعيونهم نحو السماء حيث يشمخ الصارى بعيدا .. ها هنا فى قلب الليل فى عزلة عن الدنيا يقف هذا النصب وتلك الكلوبات القليلة والرقصات والأهازيج الغريبة .. انبثق الرجل المسربـل وطلع عليهم فى هيئة مرعبه شا خوجهه لكن عيونه فى الليل والاضواء

الشتيئه اكتسبت بريقا اخاذا .. العرق يسيل من وجهه خطوطا والحديد تحت ثيابه له صليل رائحة العرق تفوح منه نفاذه .. نظر فى وجوههم بشده ثم انطلق يرقص على قدم واحده ويلوح بهراوة ثقلية من الحديد ويصرخ

حت الجبال ينة الهادى وطاطت ليه

صاح النذير فى الفلا عدى البحور والتيه

دبح الحبيب قلب محبوبه بدمع العين

وعند كل مقطع كان ثمة كورس هائل من الجوابين يصرخ بقوة

حـــــى .. .. ..

ثم انخرط السربل فى بكاء حارق

ـ آه يا سلطان .. يا حبيبى

الطـــريق

من المحطة الى الدار ، سكة فى القلب كم قطعت ذهابا وأوبه فى زحام الرجال وخشيش الثياب المغسولة والضحك والوجوه المزدهية بالسرور ، وكم قطعت ذهابا وأوبه فى الوحدة والسكون ..

وحينما نزل عبد العزيز من باب القطار الى عتبة الرصـــيف اختنق قلبه واستدار ليرى القطار ينسحب متمهلا ، مربعات الضوء تجرجر على حصباء الأرض والقطار يمضى ، العربات مكنونه على الضوء وحديث الركاب وصمتهم اختنق قلب عبد العزيز حينما بعد القطار وماتت ضجته .. وبدأ يلقى بنفسه فى قلب الظلام ..

مهمه عميق من الظلام مرقط على البعد بنقط صفراء ، اللمبات ذات الشعل تتحرك متباعدة ، الظلام الثقيل يتنفس .. جرجرة النعال المتعبه نخرات أنوف البهائم الآيبة من الحقول شبعى .. نقيق ذكر من الضفادع مهجور أو جندب كسير الجناح ..

ألقى بنفسه فى قلب الظلام فهو لا يخافه ، يشرع وجهه للأمام ويفتح عيونه التى لا ترى ويمشى ، يعرف الطريق وقع أقدامه فيدق المسارب وينحى الحصباء وحينما يرتفع الطريق فوق تل صغير أو ينزل الى وهدة غير عميقة فانه يبصر ذلك فى قلبه وينزل أو يصعد عارفا مطمئنا .. ثقيل القلب .

انفرش له الطريق ، ازادا عرضا واستواء ! وأسرعت قدماه تنتقلان فى خطوة تكاد تكون ركضا وعلى جانب الطريق ازدادت الرقطات الصفراء فى الظلام تشق مساراتها وئيدة وبدت هياكل

الأكواخ وقمم النخيل والأشجار أكثر عتمة فى الليل الأدهم ، القرية الأخت .. توأم قريتهم رابضة فى الظلام تنضح ريحا دافئة منتنة تخالط ريح الليل البارد ..

نحن قليلون ويعرف بعضنا بعضا أو يحس بعضنا ببعض وحينما يتميز شبح القادم قليلا وتخلص حدوده من قلب الظلام فانت تعرف من القادم وهو يعرفك ..

ـ السلام عليكم

ـ عليكم السلام ورحمة الله

وبين السلامين تحكى الحكـاية ويتقلص القلبان .. ويختنق عبد العزيز مايستطيع استخلاص الهواء لرئتيه وتتفجر الدموع فى مآقيه ويسرع كأنما يهرب ومن ورائه مصمصة الشفاه تأتى وتخرز القلب كأبرة مسمومه مسلطه .. ابصر النجوم للمره الأولى بيضاء لامعه طائره فى جو رقيق من ضوء شفيف بالجمال وتحدرت الدموع نهر ساخن يغسل خدوده لم يمسحها .. تركها تسح تنزل على قلبه تواسيه ليس ما هو أكثر حنانا من الدموع ..

الدب الأكبر ترك ذنبه على الدار والنجم القطبى رائع البريق.. لقد مات الحاج كريم ، وتســمع .. الليل الأخرس ذو الأنفاس الرتيبه ألم يستحضروا ميكروفونا ومقرئا .. أعمامه السبعه ..؟ والرجال ؟ الأخوان والصحاب رفاق عمره .. اذن ماذا ؟

كان الوقت ضحى حينما جاءه ذلك الرجل ، دق جرس الباب ودخل صامتا يرتدى بذلة وقميصا متسخا دون ربطة عنق ، عليه صدار ريفى يضع على رأسه طاقية صوفية وعلى وجهه قنـاعا كثيفا من الحداد ، بين شفته السفلى وصف ثناياه فجوة مليئـة بدخان المضغة ..

ـ قوم سافر

ـ ليه

حاجباه كثيفان بارزان كقرد وعيونه مستديرة ، يعرفه ، طيب الى حد البله لا بد أن يقول له ماذا هناك

ـ ليه

ـ ما فيش

ـ أبويا مات

ـ لا .. بس تعبان شويه

لكنه لا يصدق .. أسرع يكاد يجرى ، ماذا ياربى ..

الشارع بين صفى البيوت مفتوح كذراعى أم عجوز نحيله عمياء، القى بنفسه فى العتمه البيبان مفتوحه ظلت مفتوحه ابدا فى تجاويف الأكواخ الضوء الشاحب للمبات ذات الشعل، فى الصدرالفرن هامد كرئه معطله وعلى المسطبه كومه العيال وفى السقف عند عريشه الحطب الحمائم فى البنانى راقده تبرق عيونها محاذره وعلى البيبان جماعات النساء ..

ـ مساء الخير

ـ مساء الخير يا خويا

يعرفنه فى الظلام

ـ يا عقلى يا خويا .. يا ضنايا يا بنى .. ياروحى .. شد حيلك .. يجعلك خلف خير .

ومصمصة الشفاه .. يجرى كالمطارد .. يوغل فى الطريق.
ماذا ؟ ماذا جرى ..؟

وفجأة ينتصب أمامه من العتمه رجل يمد له يده ويشد على كف بيد خشنه قوية ووجه صارم حانى العيون

ـ أنت جيت ، الحمد لله على سلامتك .. مين اللى قالك ..؟

ـ سليم

ـ ربنا كبير يا سى عبد

ـ الحمد لله

ويخلص جاريا .. ومن بعيد يحسها واقفه على باب دارهـــا وقبل أن ينحرف تجاهها يجيئه صوتها يشق طيات الظلام اليه

ـ عبد العزيز .. أخويا

ويأخذها الى صدره ، رأسها تحت ذقنه ويضمها اليه ، هذه الانسانه الدقيقه الحجم الراجفه بالحنان كالقلب يود لو يستوعبها داخل كيانه ويلجأ الى صدرها كطفل خائف ..

ـ أبو كى مات ..؟ ماله يا رشيده ..؟

ـ مافيش حاجه يا روحى .. ما فيش حاجه يا ضنايا .. أبوك جرى له أيه .. ؟ ولا حاجه أبدا .. حلو يا خويا .. حلو ... هيا الناس ما بتعياش .. ؟

وانهمرت دموعها وبدأ جسدها ينتفض بالنشيج وتضاما مرة أخرى وكلاهما ينشج بقوة ومن حولهما فى عتمة الليه المصمصات والتأوهات وكلمات الرثاء ..

خلص عبد العزيز من عناقها وانطلق جاريا

ـ على مهلك يا عبد العزيز .. حاسب .. أنا جايه وراك جرى

حناياالبيوت المضاءه بالضوء الشاحب النساء والرجال المصمصات وكلمات المؤاساه ، يمشى فى غابه من القلوب الحبيبة ودموع قلبه تجرى ويمد له عمر فرهود يده

ـ ألف حمد الله على السلامه يا سى عبد .. ألف حمد الله على السلامه

كسير صوت عمر فرهود مهدم القامه فى جلبابه القاتم ، قفل داخلا داره وعبد العزيز يجرى دكان على خليل مغلق ، لابد أن اللمبه نمرة ١٥ الآن باردة معلقه فى السقف كجثه المشنوق ، مات علي خليل ، الموت فى الزوايا المظلمه يطل بعيون عمياء على عبد العزيز

على البعد الدار ، الباب الكبير الاشباح داخله خارجه ومربع الضوء فى شباك الغرفه غرفة الحاج كريم ، دفع الباب داخلا وجوه أخواته الذابله الغارقه فى الظلال والضوء الشاحب تطل عليه من انحاء الدار ، أندفع الى الغرفه . مزدحمه بالرجال أفسحو له مكانا. الحاج كريم سجى على السرير النحاسى الكبير ، اللحاف محكم حول جسده ، لا يبدو سوى وجهه ساكنا مغمض يتنفس بصوت مسموع القى عبد العزيز بنفسه عليه وتدفق البكاء من كل كيانه من كل عمره نشيجا وولولة كالنساء .

ـ آه يابا ..

مسكت يد قوية بساعده ، رفعوه تأمل حواليه وهو يشرق بدموعه حلقة كثيفه من الوجوه الصلبه الذابله العيون غارقة فى الظلال لا يصيب ضوء اللمبه الشاحب سوى قمم الأنوف والوجنات والجباه .

اخوان الطريق شواهد العمر تحت عيونهم أشرقت شموس ايامه وغربت معهم ضحك وبينهم بكى اليوم هم حوله فى بلائه العظيم قلبه ذبيح

ـ ان كان عالعياط .. آهم الجماعه الحريم عيطو كتير

لانم يشير الى بكاء النساء .. من أين يأتى الصوت لا يعرف صاحبه ، عميق كأنه روح صنعت من حزنهم جميعا وتتكلم نيابة عنهم

ـ احنا مش باعتين لك عشان كده .. احنا بعتنا لك علشان تشوف حالك

وها هو الأن « يشوف حاله » .. أى حال .. ؟ كلما خلا الى نفسه من الهموم المتزاحمه تذكر ذلك المساء حينما خلاه القطار على الرصيف ومضى .. وخاض هو الظلام الى ذلك البيت حيث انهار كل شىء ، يمتلىء قلبه بظلام ذلك المساء واللمبات ذات الشعل تتحرك فى مساراتها وئيده وجماعات النساء على البيبان والرجال يبرزون من الظلام يشدون على يده ويؤ اسونه ..

وتذكر رشيده أصبح زوجها هرما عملاقا منحنيا هشا مصدورا يجلس طول النهار على المصطبه لا يتكلم يدخن ويمتص الحلوى وهى طول النهار تشتمه وتسب تبذيره وتستحثه وهو هامد جامد يبتسم فى بلاده وهى طول النهار تعمل فى الدار رثة الثياب على راسها خرقة باليه وشعرها الابيض ضائق بالعصبه الوسخه تعمل فى الدار طول النهار تسوى التراب تحت الجاموسه وتحمل روثها وتعلف حمارتها الهزيله وتطعم الافواه العديدة تخبز خبزا وطبيخا رديئا وتخرج بالبهائم لتسقيها وتعنى بابنها الكبير كريم الطويل النحيل المليء الأمعاء بالدود تنظر اليه بحنان وخوف دائرة طول النهار فى ساقيه العذاب وفى المساء تأتى الى الدار الكبيرة دار الأب تجلس الى جنب عبد العزيز ..

ـ ازيك يا روحى .. ا لبركه فيك يا حبيبى

ثم تئوب الى دارها لتنام على ظهر فرن عار وتلتحف حرام الصوف الخشن .. ربما تطيف أحلام الزمان الماضى ، إحلام كسيرة ، ايام طنطا والمولد والخبيز وامسيات السرور .

عبد العزيز يبتسم فى مرارة ففى ذلك المساء عانقته وقالت له

ـ أبوكِ حلو يا خويا

وفى قاع الكلمه كانت المأساة التى يعيش عبد العزيز تفاصيلها الآن .. كم ضحكت رشيده وكم ضحك معها عبد العزيز والآن كم يبكيان معا

ليلتها كان يجرى وهذا هو ما وجد فى الدار ، لن يهرب ، سيحمل النير على رقبته ويسير مثل بقرتهم القديمة السوداء كسير هو مثل فرهود لكنه يسير حاملا قلبه فى صدره .

ليلتها سلم عليه ، فرهود ثم استدار ودخل الدار .. أى دار .. فقد ماتت امراته الحاجه ، الموت قدر لا يرد يقطع من القلوب حباتها المرأة ذات الكيان الدقيق النظيفة اليدين الضيقة العيون المبتسمة دائما عن صف اسنان دقيق ابيض كان عبد العزيز وهو صغيرا يأتى الى دارهم وهى تنظر لعمر فرهود بحنان باسم

— الصبح تتكل على الله بالصحاحير يا عمر .. فى الصلاة البدريه .. ؟

ويهز محمد فرهود رأسه فى رضى

— ان شاء الله ..

ويقف عبد العزيز على حافة ودهما يتفرج ، صغير لكنه شاعر بهذين القلبين الحبيبين .

لقد كبر ابنهما .. فشل فى دراسته فتركها ..وهو الآن سمين أبيض له سنه ذهبيه وهو احمق متسرع قاسى تزوج بفتاة سمينه قاسيه العيون لها ارداف تمشى تدق الأرض وهو يجتاح الدار وأبيه بالصياح ..

وعمر فرهود مسكين فى ركن الدار جالس أمام جمله البارك يطعمه لا شىء سوى هذا الجمل ..

يشبك مقوده فى ذراعه ويسير وراءه ،عملاق طيب شامخ الراس

ذلك الجمل وفرهود متهدم الكيان ذليل العينين يتأمل مواقع اقدامه ..

عالم يهوى تتساقط لبناته كبناء قديم .. التراب زحف على المكان الذى كان نظيف أمام باب دكان على خليل .. وكنس الريح القش والقذاره وكدسها هناك حيث المصطبه ومجالس الرجال .. ثمة الآن رجال آخرون يجلسون فى أماكن أخرى ، باب الدكان مغلق كعين جثة مغمضه .. لقد مات على خليل ..

قالو هو فى الدار يقىء دما فى تلك الغرفه على السطوح ، والغرفه النظيفه والباحه أمامها والسلم الطينى الضيق والكانون من حيث صعدت الصوانى للدراويش محمله بالطعام حيث امتلات الغرفه بالرجال والسرور حتى لتكاد تقع .. هناك جلس يتلوى ويميل يدلق الدم على الجانبين وحوله الرجال .. قالو للحاج كريم أنه فى الدار يقىء دما ،العربة تأخذه الى طنطا وتأتى به والعربه تأتى بالطبيب من طنطا وتذهب به والرجال يسربون شاحبين حزانى الى صالة الدوار والفانوس مدلى من السقف على خليل يقىء ، وتعلق عينا الحاج كريم بالفانوس ولا ينبس ببنت شفه .

كان على عبد العزيز أن يعرف حينئذ ، شىء بدأ ولا شىء يستطيع أن يوقفه لكنه لم يدرك ذهب الى الاسكندرية الى كليته يدرس ويناقش ويضحك وينشر أحيانا اشعارا حزينه فى مجلة الحائط ويرسل الخطابات الى أبيه يطلب النقود .. لماذا لم يفهم لماذا لم يبق هنا معهم .. كان ثمة شىء يجب أن يعمل .. صرخة أو كلمة أو دمعه لكن أن ياتيه رجل صغير الحجم طويل الذراعين ويجلس أمامه ساكنا ثم يقول له

— قوم سافر

ثم يبدأ كل شىء ... لا ، لكن ذلك ما حدث ثم خاض الظلام

لا يرى الا الاشباح وقطرات الضوء الصفراء تسير لتعمق ابهامه وبهمته .

لا يزال الليل بهيما لا يدرك منه سوى حقائق شاحبة لا يستطيع الامساك بها ، ضرب على أم راسه حتى لا يكاد يرى ..

جلس الرجال حوله فى وسط الدار ، الكل صامت وعلى الرف الطينى فى الحائط مصباح يرسل من الظلال أكثر ما يرسل من الضوء وفى الخلفية تتحرك الأم وبنات الحاج كريم فى مسارات مبهمه وهمهمات غامضة تنوش هوامش وجدانه ، الحقيقية تزف الى وعيه مؤطره باطارات الحداد والغموض ..

اتى به من المحطة محمولا على اذرع الرجال ، سرق من جيبه حق العنبر ، كل هذا الطريق من المحطة الى الدار محمولا معروضا على العيون يدا مريبه تدس بين جلبابه الكشمير الكبير وصداره الشاهى لتفتش أشياءه ..

وينكش أحمد بدوى الأرض يعود فى يده وهو متربع على الأرض دون فرشه

ـ أنا كنت معاه

ذهب الى المركز ، الى بنك التسليف ليقترض مبلغا من المال لا أرض كانت قد بقت تقدم بحيازات اخوته للضمان صرخ فيه الموظف الشاب وقف ذليلا أمامه يستمع للشتائم ويقول أحمد بدوى

ـ قلت له يا فندى عيب ما يصحش .. دا راجل كبيرا له قيمته

وصرخ الأفندى

ـ أطلع بره

وسقط الحاج كريم ..

ربما يكون هذا ما قد حدث أو ربما غيره .. لم يعد عقله يبحث عن التفاصيل .. لقد غفل عن الحقيقة حينما بدات تتكون فعما يبحث الآن ، كان عليه ان يدرك من الأول أن عالم الحاج كريم بدأ ينهار .. حينما كان يجلس وحيداً لساعات طويلة فى شرفة الدوار والناس يمرون فى ظلام المساء يقرئون السلام فى همس ثم يواصلون السير .. حينما يجلس وحيدا .. صامتا لساعات طويله وهو الرجل الذى صناعته الكلام والموده .. كان على عبد العزيز ان يدرك وقتها ، لكنه غفل فاذا عما يبحث الآن .. أصبح كل شىء قليل الأهميه .

انعقدت مجالس الرجال بجوار الحيطان على الكيمان .. وعلى المصاطب فى طراوة العصر أو عذوبة الضحى أو طلاوة القمر .

ـ ابوك شطب قبل ما يقع .. ربنا معاك .

احضروا له الطبيب وصف له ادوية كثيرة وقال يأكل الفراريج الصغيرة والخضروات المسلوقة .. لكن لا شىء الآن فى الدار .. لا شىء ، كلهم يأكلون الخبز والجبن وهو يأكل الخبز مغموسا بالسكر .. لا شىء عندهم سوى هذا .

ليلتها اخذته أمه الى غرفة المعاش .

ـ عندنا كل حاجه يا خويا

قصيرة سمينه مكينه الجسد نشيطة عيناها باحثتان لا تنظران لاعلى ابدا ، تدور فى الدار لا تكل تنقل هذا وتشيل ذاك تكنس وتغسل تخبز وتعجن لا تقول لا ابدا دائما

ـ طبيب حاضر

نظر الى غرفة المعاش الاوعيه فارغه الا من بقايا هزيله تريد أن تخدعه لكنه يعرف .

— عندنا كل حاجه يا خويا

— طيب

وحلقات الرجال المحيطة به على المصاطب او الكيمان أو بجوار الحيطان

— بيع القيراطين اللى فاضلين .. مالهمش لزمه..ماينزرعوش .. كفاية فدانين الوقف دلوقتى .

والدائنون ، باعة جائلون واصحاب دكاكين وفلاحون كلمتهم لاترد .. يعرف عبد العزيز انهم لا يكذبون ، لايكذب احد فى حق الحاج كريم أبدا، كل لحظة يسدد دينا جديدا.. القناة تنضب باسرع مما يتصور وهو يعمل ذهنه لتدبير ذلك البيت الكبير .

لكن ما جدوى أن يسلم الانسان نفسه للهم ، هذا هو النهار يطلع ، نهار جديد ، مواجهة جديدة للكروب تمهل عبد العزيز وهو ينزل السلم الى وسط الدار ليس متسرعا لخوض العناء لماذا لم يخلق على شاكلة أمه .

انها لا تفكر أبدا طول عمرها هكذا حازمة جهمة تنهض من فراشها لتجد شيئا بجوارها تعمله وتبقى طول نهارها تعمل حتى تصمت الحياه من حولها وتسلمها للنوم .. الا تفكر .. ؟ الا تفترسها الهموم وتسلمها لان تفتح عيونها فى الظلام سحابة الليل .. ؟

نزل عبد العزيز درجات السلم متمهلا ، الدار شيء جديد يعرفه ويصحوا عليه كل يوم ، الأم والاخوات يدورون كالذنابير الحمراء .. الوجوه متعبه قانطه وغاضبه ومغمه بالخوف والمرارة والاب جالس على المصطبة كتف انحل من الآخر قليلا وأكثر ميلا ووجهه مغبر ربما من غبار الطريق الذى يقطعه كل يوم الى المحطه بلا كلال لكنه غبار لا يعالجه الغسل الدائب .

يداه متعانقان فى حجره وعصاه بجواره ، لم يعد يستغنى عنها وقد بقى له الشلل النصفى بعد صدمة المرض الأول.. وذلك الذهول فى عينيه ، عيناه البنيتان البارقتان بشوق لا يبل فيلتفت حواليه كطائر مطارد صرخ حينما راى عبد العزيز .

— افتحوا الباب .. افتحوا الباب .. سيبونى فى حالى .. عاوز اسافر ..

تمزق قلب عبد العزيز للمرة المليون اسرع الى ابيه ، لم يعد البنات يحتملنه اصبحن يشكين منه ومن عذابه لهن .. اثنان فقط الأم وعبد العزيز يترضيانه بلا كلال .. الام تسرع نحوه وتقف امامه كانما تفرد معه شال العمامه وتسأله عما يريد وتترضاه وعبد العزيز يجلس الى جواره ويحدثه عن الطريق والاخوان ومزارات الاولياء ويخرج به يمشيان على هذا الطريق طويلا ثم يعودان .. هكذا بلا كلال ..

لكن عبد العزيز فى هذا اليوم فرغ صبره توجه نحوه

— يابا ما يصحش كده

قالها صارخا بكل ما فى قلبه من الم ويداه مرتفعان فى شكاية مريرة ،لكن الاب المذهول تصور ان عبد العزيز يهم بضربه ذعر ورفع يده السليمة مدافعا عن وجهه ومال مرعوبا .. انقلب عبد العزيز منهارا طعين القلب وهو يعوى من الالم ولو عاش عبد العزيز بعد ذلك الف عام لما غفر لنفسه ان ترك الحاج كريم يتوهم ما توهمه ..

خرج ، جلس على المصطبة أمام باب الدار طلب من احدى اخواته ان تعد له الحماره السوداء الكبيرة ، لا تزال صابره ، عجوز وصابره،وضع على ظهرها عدة الساقية وركب عليها وناولوه حبل الجاموسة،كان داب الحاج كريم ان يقتنى كرائم البهائم

وتلك الجاموسة فريدة فى البلد ، لا يزالون يحتفظون بفدانين فى ارض الوقف واليوم موعد الرى .

ركب عبد العزيز الحماره السوداء وسحب الجاموسة وأمامه على الظهر الطويل عدة الساقية وسرح الى الغيط ، يرتدى جلبابا ريفيا وطاقية صوفية حمراء والطريق امامه يصعد بين الحقول وشمس الطباح طرية مغرية ..

قال الاطباء لقد ضاقت الشرايين والدم يعانى لكى يتدفق فى هذه المسارات الضيقه فتنضح الشعيرات الدموية عند منتهى الاورده ماءا يتجمع فى بحيرة صغيره فوق المخ فيعطله ويربك دوره .. ولابد من ان تحقن الاورده دائما بمحلول الجلوكوز ولابد من اتباع نظام تغذيه دقيق ولابد من عقاقير كثيرة لتعمل على توسيع الشرايين .. من اين .. لا يملكون شيئا .

اصبحت الحقائق عارية اصبح الحاج كريم شرايين واورده ومخا ترقد عليه بركه صغيره من الماء اصبح الحاج كريم مذهولا صائحا شبه مجنون ودارت الأيام حتى ذعر من تلويح عبد العزيزبيديه فىالفضاء،لن يغفرعبدالعزيز هذا لنفسه ابدا .. المعرفه والالم والعجز ، المخ والشرايين والاورده والمأساة ، اين العالم الماضى .. اين الكرامات والأولياء ودعوات الرجال والنساء سيبقى البيت مفتوحا .. ستبقىدارا للطعام والضيفان .. لاشىء ياكله الحاج كريم ، انهار العالم بلا رجعه تمزق بقسوه .. ما العمل .. لا شىء .. سواد وقهر لا يوصف ..

حمارة صديقه سمراء ، طيبة تعرف المكان ، قبالة الساقية وقفت .. نزل عبد العزيز عنها واطلق مقود الجاموسة وانزل عدة الساقية على الأرض تنهدت الحماره تنهدا عميقا .. مسح عبد العزيز على رقبتها وتامل كابة وجهها « **مخلوق آخر وحيد** » ركن

راسه على رقبتها واغمض عينيه ثم احتضن رقبتها وهى ساكنه تتنفس ببطء ، ربطها فى الشجرة ركب العدة فى الساقية علق الجاموسة وربط العصابة على عيتها وزعق فيها فانطلقت دائرة بالساقية وصوت التروس المحتاجة الى التشحيم وانهمار الماء فى المجرى يصنعان الحياه فى قلبه ، جاموسة رائعة مكتنزه سوداء لامعة الجلد متناسقة التكوين عامرة البطن بجنين .. ستلد بعد فترة وجيزه .. ضحك قلبه ربما ياتى الخير ويشفى الحاج كريم فالأطباء يقولون شفاءوه ممكن مجرد ضغط دم وهو سليم فيما عدا هذا ، غنى عبد العزيز وصوته غارق فى ضجيج الساقية ..

الحلو لما نعس صحوه بالقانون
والورد لما دبل رشو عليه لمون

ثم ضحك لخفة عقله وسار متتبعا مجرى الماء فى القناة مشمر الذيل والاكمام يطهر مجرى القناة امام تيار الماء .

تلك هى ارضهم – تملكها الأميرة فاطمة هانم – لكنها أرضهم صفراء كالذهب بجذور اعواد القمح المحصود ، منشققة واسعة ذات سمرة مذهلة الثراء .. رقد على بطنه مدد ذراعاه وساقاه على آخرها يريد أن يشتمل أرضهم فىحضنه فى بطنها آلاف العروق والقنوات الدقيقة كونتها المسافات بين ذرات الفرين الأسمر البراق ، رئة هائلة تتنفس وتخصبوتجدد .. ياربى .. هو ابن هذه الأرض وهؤلاء الرجال ..

جلس ضاما ركبتيه الى صدره من بعيد راى محمد كامل مقبلا فى سرواله وصداره متمنطقا بشمله من الصوف وجه مدبوغ بالشمس ..

– سلامو عليكم يا سى عبد
– اهلا ازيك يا عم محمد يا كامل

له عذوبة الصوت القديمة،العمق والرقة، الصوت الذى اسر عبد العزيز طول حياته وفى وجهه تلك الطيبة التى لا حدود لها .

لكن شيئا ما قد تغير شيئا مالا يستطيع عبد العزيز ان يمسك به .. ذلك الجار فى الأرض وفى الدوار رفيق مجالس الاخوان طول العمر ..

لقد طلق فاطمة منذ مده وتزوج امراة اخرى ، امراة ممتلئة كبيرة الأثداء .. ملأت داره بالعيال امراة لا تكل ، منذ الفجر على الأشجار كالغراب لا تمل الحفر بيديها فى الأرض ، شدت محمد كامل وراءها لم تعد تراه جالسا ابدا ، طول النهار فى الحقل بسرواله وصداره متمنطقا بشملته الصوفية ومنحنى يضرب بفأسه فى الأرض لا يتكلم كثيرا .. واذا تكلم فبنفس الصوت القديم لكن عيناه لم تعودا تحلمان ينظر الى الأرض فى انكسار ويحمل فأسه ويسرح الى الحقل قلقا قليلا واحيانا ملهوجا قليلا ثم خجلا وضاحكا فى تردد هذا الوجه ليس من صنع الفانوس فى صالة الدوار بل من صنع شمس الحقل القائظة فى وقدة الظهيرة لم يسأل عن الحاج كريم وانما كلم عبد العزيز .

— حاتروى النهاردة ياسى عبد

— انشاء الله

— ربنا يعينك يابنى

— هقف على الحد اللى بينا وبينك .. مافيش ولا نقطة ميه هتيجى عندك .. انت خضرت بدرى ياعم محمد .. ميتنب مش حتعدى عندك

استدار ومشى وهو يقول

— كل شىء بيد الله .. ماتتعبش نفسك .. ادينى هنا .. وربنا المعين

عبد العزيز يتأمل الماء يبرق فى الشقوق كعيون مختفية .. سار على شاطئ القناة حتى الساقية ، الحمارة ساكنة بجوار الشجرة والجاموسة دائرة فى ضجة الساقية مكتنزه عارفة زعق بها فتسمعت عمياء العينين ثم اندفعت تدور

لكنها قفزت الى أعلى ثم سقطت على اربع ثم وقفت ساكنة رافعة يدها اليسرى عن الأرض ..

وقف صرير التروس وبدا الماء يتمهل فى تدفقه .. ثم بدأ يئز ضعيفا كالدموع وقف عبد العزيز مذهولا مفغور الفم ثم جرى الى الجاموسة فحل عصابة عينها .. وفك خناق رقبتها وأزاح النير عن كتفها وقفت فى مكانها لا تريم سحبها من مقودها عجزت عن الحركة تحسس كتفها عند اتصال ذراعها بجسمها تململت من الألم انشقت الأرض عن فلاح شاب لم يعرفه عبد العزيز ساعتها فقد كان أعمى لا يرى ..

— اوعى انت

وبيد خبيرة قصد موطن الداء

— الجاموسة انكسرت

سحق عبد العزيز .. سحب الشاب الجاموسة من عقودها مشت على ثلاث تكاد تقع ، خطوتان ثم وقفت تماما ..

— لازم عربية عشان نروحها البلد

لم ينظر عبد العزيز ناحيته ، حل وثاق الحمارة ركبها عارية الظهر وسار بها ناحية القرية ظهرها طويل وهو فى وسطه تماما ساقاه متدليان كهندى احمر ، والحمارة الحكيمة تمشى متراخية ربما تعرف الا جدوى من العجلة ..

لم يكن ثمة شىء فى راس عبد العزيز ولا فى قلبه خفيف الراس لا يعى ثم فجاة تدفق من كيانه الغناء

كنا بنعمة وكان السعد خادمنا

صبحنا نقول يامين يتاوى الغرايب

غريب ياولدى .. .. ..

.. .. آه

ثم ضحك بأعلى صوته ، وحيد هو والناس علىشطئان الترع ومن المسارب الصغيرة بين الحقول يجرون نحو الجاموسة المكسورة لا تدرى كيف عرفوا الخبر لكنهم بالمئات ذيول ثيابهم فى اسنانهم وسيقانهم تسابق الريح والحمارة تسير به رخية الخطوة مدلاة الرأس وهو على ظهرها يخضه سيرها الوئيد ويترنح كأنه مصنوع من هلام ..

وقت طويل بلا نهاية حتى وصل الى مشارف القرية وامام باب دار احد أعمامه جلس هذا العم وحوله الرجال ، تجاوزتهم الحمارة حاملة عبد العزيز دون وعى ترجل وتركها تمشى الى الدار وانشقت الأرض عن امرأة نحيلة دقيقة معروقة حولاء مشعثة الشعر اندلعت فى وجهه ، يداها مشرعتان مفرودة الأصابع كأنما ستخنقه وصرخت فى وجهه

ـ ماتخافش يا خويا .. فداك .. فى دهية يا خويا .. لونك مخطوف ليه كده يا خويا

فى هذه اللحظة افاق عبد العزيز وادرك كل شىء وسالت دموعه على خدوده مسحها بباطن كفه الملوث بالطين .

اطل من باب الدار ، دائرون كالذنابير الحمراء المسمومة ، ثمة شىء غير عادى وجوههم منفعلة كل واحد على وشك الصراخ رجع والقى بجسده على المصطبة .. هنا كان يشرب قهوة العصر وكان يأتيه ابراهيم الجمل بالجريدة حاملا له خبر المولد تركابراهيم

الجمل القرية دون سلام ترك فى النفوس شيئا لكنه مشى دون سلام .. ، اللعنة على كل الأشياء .. اين الحاج كريم

خرجت اليه احدى اخواته

ـ أبوك طلع المحطة

طيب .. ثم ماذا .. اقتلونى ..

ـ ومرات ابوك سابت الدار ومشيت .. عند اختك .

احد ابناء اعمامه مشى وئيدا متجها اليه وساعته فى يده يملأها ببطء وينظر فيها ثم يضعها فى جيبه

ـ هيه .. يا عم عبده .. زهقت ؟ ..

وابتسم له

ـ انا بس .. هيه .. على راى المداح

لو كنت يابين تداديني .. تتداديني

الا انت يا بين بتكيل وتديني .. وتديني

ـ قوم شوف ابوك .. زمن المداحين راح

نعم راح زمان المداحين .. وراحت أشياء كثيرة ، دون سلام، كما راح ابراهيم الجمل ، مشى على الطريق الى المحطة ، الناس مشغولين ، لكنهم يلقون عليه نظرات عاطفة ويمصمصون شفاههم ويمضون ..

فى دكان على خليل يقف ابنه الصغير .. نسخة صغيرة خضراء من على خليل يزن فى تردد ويعد النقود فى حرص وخلفه امه تنظر اليه فى قلق وحنان كما كانت تنظر الى على خليل .. ابتسم عبد العزيز ..

وهنا دار عمر فرهود ، هو جالس أمام الجمل يطعمه بلا كلل والجمل يمضغ واسع العيون مستطيل الأنف كابله صغير ..

وهذا زوج رشيدة اين هى ربما يشغلها امر من امور الدار انتهت صفوف المنازل وانبسط الفضاء والطريق ماش فى اعتدال الى المحطة وهناك يمشى الحاج كريم فى وقدة الشمس يتسند على عصاه صغير الحجم مائل الكتف وذراعه المريضة جامدة فى جنبه متعثرا على الطريق الطويل الذى يمتد وراءه وامامه يمضى لا ينحرف وراسه مشرعة الى اعلى دق قلب عبد العزيز اسرعت خطاه حتى ادرك اباه مد يده وسنده من تحت ابطه جسده هش متهالك ووجهه مغبر لكن ملامحه هادئة رقيقة وعيونه البنية مليئة بشوق يقطع القلب ..

ــ رايح فين يابا

وتكلم الحاج كريم بصوت رقيق هادىء النبرات كأنه موشك على البكاء

ــ مسافر يا بنى أروح الشرقية .. أشوف الناس .. بقى لى مدة ماشفتهمش يا عبد العزيز .

حاول عبد العزيز برقة شديدة أن يغير مسار ابيه ويعيده راجعا على الطريق ، الناس فى الحقول يتركون فئوسهم وينظرون، على الطريق وبضعة عيال يلعبون يتركون لعبهم لحظة ثم يفرقون فى الضحك ويفرون هاربين ..

ــ سبنى يا عبد العزيز .. سبنى اسافر يا بنى .. حرام عليك

ــ لسة بادرى عالقطر يابا

ــ استناه .. استناه يابنى

ــ طيب .. مش تغير هدومك .. هتسافر كدهه .. فى الهدوم دى ؟ ..

ــ أيوه .. زى مانا كدهه .. هيجرى ايه ..

ويعود به .. تهدم الرجل تهدم الكيان كله وبقت العيون المشتاقة عبد العزيز يسير به كأنه طفل يحتاج الى رعاية ويستريحون قليلا على مصطبة رشيدة وتنظر الى ابيها وقد عجزت عن كبح دموعها فتبكى وجسدها يرتجف بالدموع .

ــ ايه اللى جرالك يابا .. يا حسرت قلبى يابا ماتغسلهاش مية النيل ..

وينظر اليها الأب ..

ــ بتعيطى ليه يا رشيدة .. هو انا جرى لى ايه انا عاوزاسافر سيبونى اسافر .. حرام عليكم ..

ويأخذه عبد العزيز من تحت ابطه ويسنده عائدا الى الدار ويتجاوزان دكان على خليل وفجأة من حارة جانبية تبرز روايح ساحبة العايق الذى عميت عيناه ، تسرع به وهو يتعثر ويتخبط ويتحسس ماحوله بعصاه .. تصرخ روايح :

ــ حبيبك اهه .. الحاج كريم اهه يا عايق

وتدور يدا العايق فى الهواء بحثا عن يد الحاج كريم ويأخذ عبد العزيز يده الى يد الحاج كريم ، عيناه بعيدتان لا تنظران الى العايق تتجاوز انه الى بعيد والعايق رث الثياب يربط راسه بخرقة متسخة ويستر عيونه بفضلتها .. يصرخ ويجهش فى البكاء ..

ــ انا عميت يا حج كريم .. انا عميت يا حج كريم

وتولول روايح فى نفس الوقت

ــ طول عمركم حبايب .. كنتم منورين البلد

ويقبل العايق يد الحاج كريم والحاج كريم يتكلم بصوت خافت

— متعيطش يا عايق .. عاوزين نسافر .. عاوزين نسافر
يا عايق البس هدومك وتعالى

وتسحب روايح العايق وتمضى به ويأخذ عبد العزيز الحاج كريم ليعود الى الدار

كانوا يحلمون بموت روايح وبالريش ينبت فى وجهها جزاء ما سرقت من دجاج وها هى تسحب العايق الأعمى وتدور طائرة اللب صارخة فى الشوارع والحارات .

ترك عبد العزيز الحاج كريم يدخل الدار وانهار جالسا على المصطبة ليس فى كيانه ذرة واحدة قادرة على المقاومة ركن رأسه على الحائط واغمض عينيه لكنه فتحها مرة اخرى على صوت يناديه

— قوم كلم عمك

نظر الى الولد فى سكون الولد يبادله النظرات فى خوف ثم مضى وقام هو يجرجر اقدامه نجو مجلس الرجال

على كوم التراب أمام باب دار عمه جلس الرجال ، لا يتركون الكارثة تذهلهم فهم رجال يقظون غارقون فى التفكير ينكشون التراب أمامهم ويرسمون عليه الأشكال ، افسحوا لهمكانا فجلس، الجاموسة غير بعيده راقدة تجتر حملت من الحقل على عربة يجرها بغلان فكت عجلتى العربة من جانب ودحرجت الجاموسة على الارض وها هى الآن راقدة تجتر ..

هؤلاء رجال غير رجال ابيه ، صارمون يضحكون بقوة، يجلسون فى العصارى لكن ليس حول حديث طيب وودود بل حول المذياع يستمعون للنشرات ويعلقون ويتكلمون بحماس مليئون بالمرارة ومتعجلون وصارمون

على اطراف المكان ابصر عبد العزيز وجه الشركسى النجار اصفر صفرة الموتى وذابل العيون ناحل وجهه جلد على عظم يعانى من الكبد منذ سنين والآن مع كل نفس ربما تخرج روحه . . ورأى أحمد بدوى ، وجهه مبتسم ابتسامة تنطوى على القنوط والازدراء لكنها بسمة حنونه فيها روح الأيام الماضية طاف عبد العزيز بوجوههم وبادلوه نظرات مؤاسية ..

اقبل الرجل على الجالسين راكبا ثم نزل عن حماره وسلم وسلموا عليه

— اهلا .. ازيك يا معلم محمد

قام هادئا ونظر الى الجاموسة ثم طلب من الرجال أن يقيموها هجمت جموعهم عليها دسو العصى الطويلة تحت بطنها ورفعوها حتى قامت تحسس الرجل مكان الداء .. سهم قليلا ثم نفض يديه ببعضها واستدار للرجال .

— مافيهاش رجا .. الفتيلة اللى رابطة لوح الكتف انقطعت لا كى ولا حزام .. ممكن تعيش كدة .. تقوم وترقد بالرجالةتحلب وتعشر بس ماتقفش ..

وتكلم العم بحزم

— ماعدتش تلزمنا

ورد الرجل

— عوضكم على الله

كان عبد العزيز يتفرج على مسرحية غريبة دس العم يدة فى جيبه واخرجها مطبقة ..

— حق الدخان يا معلم

— عافينى ياسيدى ..الحاجة اللي مافيهاشرجا ..ماتخدش من وراها حاجة ..

اتجه الى حماره

ـ استنى ناكل لقمة

ـ بالهنا لكم

ثم ركب حماره ومشى كأنه الطيف وتكلم احمد بدوى

ـ الجاموسة دى تندبح وتتفرق علينا وكل واحد يدفع اللى يجى عليه نجمد حق جاموسة سليمة .. يتفرق علينا حقها وهى سليمة ..

ورد العم بحزم

ـ استنى ياأحمد

وكأنما خجل احمد بدوى من رايه

ـ الحاج كريم كان بيعمل كده .. كان بيدبح بايده ويفرق ويلم الفلوس ويشترى جموسه احسن من اللى وقعت

ورد العم متنهدا

ـ مفيش داعى

ـ نشوف الخراب ونتفرج

ـ ربنا كبير

والتفت الى الجزارين الجالسون ينتظرون

ـ صلى على النبى فى الجاموسة ياسعودى

وتململ الرجل وبادل زملاؤه النظر

ـ الحاج كريم خيره علينا

ـ انا ماقلتلكش اصل الحاج كريم

وتجاسر الرجل اكثر ومرت سحابات بوجوه بعيد

ـ الجاموسة عشار .. العشر بيخسر اللحم

ـ حتخلط ؟ .. الجاموسة لحمها ذى الذهب الأبيض

واغمض عبد العزيز عينيه وسرح وافاق على يد عمه تضع فى يده النقود

ـ مبروك عليك فلوسك .. وانت يا سعداوى مبروك عليك جاموستك ..

نظر عبد العزيز الى الجاموسة لا تزال تجتر راقد لم تعد لهم كانت امه تهمس خائفة وهى تراها عائدة من الحقل شبعى فحلة مكتنزه حافلة الضرع

ـ بسم الله ماشاء الله

وكانت تهمس وهى تنظر اليها سارحة تخور ملهوفة على السروح

ـ بسم الله الرحمن الرحيم .. بسم النبى يحرسك

وكانت تجلس تحتها القرفصاء والشلية على ركبتها واللبن يشخب من الضرع حتى تمتلىء الشلية واللبن مختوم بالرغوة الفائرة وعبد العزيز جالس فى المزود امامها يداعب راسها واذنيها ما عادت لهم .. ولا لانسان غدا تعلق لحما فى خطاطيف الحديد

كان عبد العزيز سارحا يبتسم فى أسى يشغله احيانا وجه الشركسى النجار كم كان ذى رواء تحبك عليه اللبدة البيضاء فى اناقة ، الآن هو نصف ميت .. لكنه ينحدر فى الشارع متسنداعلى عصاه حتى يلحق بمجتمع الناس على كوم التراب لا أحد يحس به يجلس فى منتهى المجلس نصف نائم لا يستطيع طرد ذبابات ملحاحة شرهة تنوش وجهه .. الناس ضائقون به ربما .. أو ربما هم ضائقون بعبد العزيز ذاته ..

الشمس اصفرت للمغيب وقد آن أوان الرواية المسلسلة فى المذياع وربما صاحب المقهى قد فرش دكتيه بالحصير ورش الأرض بالماء وتصب براد الشاى على الوابور وجهز القوالح للجوز ، لابد أن الشوق فى قلوبهم الآن للقيام هناك سيتكدسون فى تلك الغرفة والمذياع هائج بالصراخ وأوراق الكوتشينة تصفق على الطبـــالى المرصوصة على الأرض والنــــار تتوهج فى قمم الجوز والحديث الذى لا ينتهى لأنك لا تعرف كيف بدأ ليس حديثا ولكن سوق كلام وزياط وهيصة ..

ربما هم ضائقون به الآن ويجاملونه بالجلوس قليلا معه فى كارتته حسمها العم فى كلمات والآن هذا موعد مقهاه .. كـــان الناس فى الماضى يتحدثون بتؤدة ويحيون دونما جلبـــة اما هؤلاء فانهم ضاجون ضائقون .. السياسة الجمعيات التعاونيـــة .. الاقطاع . . الظلم .. كينــــدى . . خرشوف يجب أن يقوم عبدالعزيز ..

لكنه يتباطأ .. فان جلستهم تروقه .. وانه ليود ان يزول ذلك الحرج الذى يستشعرونه وينطلقون بمرارتهم وسخريتهم .. لكنهم متحرجون .. نهض عبد العزيز .. وتلفت حواليه وهو نصف قائم فوجد أحمد بدوى ينهض أيضا ..

بعد انتهاء البيوت يفرش الفضاء واسعا يصعد متدرجابالحقول البنية وخطوط الأشجار الذهبية حتى يلتحم بالسماء عند الأفق الشمس لينة الظلال تمتد طويلة متعثرة فى الحصباء ، تنهـــد أحمد بدوى .

ـ ليه ياسى عبد .. الدنيا بتعزل

القامة القصيرة الوجه الطفولى ذى العيـــون الضيقـــة انزاحت الطاقية عن بياض يكتسح سواد الشعر كل شيء يسقط

من حول هذا الرجل وهو لا زال يبتسم ، حتى ابنه الكبير أخـذ امرأته وترك القرية الى القاهرة لا يرسل خطابا يتأمل الحياة حوله مذهولا لكنه يبتسم ابتسامته الطفولية دهشا ..

ـ هو ايه اللى جرى ؟ .. الله ! شيء عجيب

ولازال يرتاد مجالس هؤلاء الناس يجلس فى الذيل ، وحينما يدار الكلام ينصت دهشا مبتسما وحينما تبلغ دهشته منتهاها يتكلم ، يتكلم كأنه جالس فى الدوار فى ضوء الفانوس الكبير .. لـكنهم يرفضون كلامه .. فيسكت مغلوبا .. يبتسم دائما .

تساءل عبد العزيز

ـ الشركسى النجار .. باين عليه تعبان خالص

ويبسم احمد بدوى قليلا ثم يقول

ـ بعد موت الولية .. من نهارها ماقامتش له قامة

كان يوما غريبا ضحكت القرية فى أوله حتى التوت الأمعاء ، كل قادم من السوق كان يحكى كيف راى الشحات الشركسى تقتاد اخته العانس كبيرة السن امامه وكيف يلاحقها بالرفس واللـكمات وكل قادم من السوق حكى عن ولولة البسية وشكوها الضحك ، وعن شتائم الشحات المخبولة وقسوته الحيوانية ، وكنت تسمع الحكاية على عشرات الاوجه .. لـــكنك فى النهاية تعلم ان أم الشحات رات ان تبيع دجاجة رومية وتشترى بثمنها خبا تطحنه فقد اصبحت وليس فى الدار كسرة خبز ، لكن الدجاجة ملك زوجة الشحات اهديت اليها من اهلها فى احد المواسم يحكون ويبالغون فى الحكى عن ولولة مراة الشحات حينما افتقــدت روميتها فلم تجدها وعن ثورة الشحات وهرولته الى السوق باحثا عن الدجاجة والاخت وعودته بها على ذلك الطريق مضروبة مشتومة مهانة تحمل على رأسها دجاجة مذعور تصيح ..

ضحكت القرية على هذه الحكاية في الصباح وفى العصر انطلق الصراخ معلنا عن موت امرأة الشركسى النجار أقبلت تدفع الشحات عن ابنتها فرفسها فى بطنها تقيأت دما وقالت لناس وهى تلفظ نفسها الا يؤذوا الشحات قاتلها .

وفى المساء أقيمت المعزى وجلس الشحات بين المعزين جهما حاجبه ساقط على عينه يطمسها فكه هائل مندفع للأمام شفتاه رقيقتان مزمومتان وجه مبقع الجلد وعلى كتفه تجتمع عضلات عظمية تشبه الحدبة

ـ ياسى عبد انا مانيش فاهم حاجة .. كان متهيألى انى ناصح

جاء الشركسى النجار الى الطريق مشتاقا للوبد ولبست إمراته طوق الحديد حتى يعيش الشحات ها هو جالس فى المعزى ينظر .

لم ياكل عبد العزيز شيئا طول النهار اكتشف ان بطنه خاويه لكن نفسه لا تطلب الزاد .. نودى عليه استأذن من رفيقه وكر عائدا ..

فى دار أخته كانت زوجة أبيه متربعة على المصطبة مرتدية ملابس سفرها السوداء الحريرية وطرحتها محبوكه حول وجهها وتسند ذقنها على يدها وابنتها واقفهبجوارها صامته كسيفه جلس على المصطبة دون كلام ..

ـ أمك يا عبد العزيز شتمتنى وهزأتنى

وبكت أجهشت فى بكاء مر عرف انها تبكى اباد ظلت سنين طويلة جالسة فى ركن الدار ترقبه فى سكون عله مرة يكلمها أو يعرف الطريق الى غرفتها التى تفرش باعتناء يوما بعد يوم وتنام فيها وحيدة دون رجل .

ـ أنا مسافرة يا عبد العزيز .. لى أهل .. الدار ماعادتش مطرحى

دموعها تغسل وجهها ذابل متغضن هرم لم يعد ثمة ما يدعو لغسيله بالصابون النفاش .. ابتسم عبد العزيز ابتسامة مرة فى داخله تدخلت اخته بنبرة هامسة

ـ تسافر يومين .. تروق شوية .. وتبقى تيجى

وعرف عبد العزيز انها لن تعود عيونها مهاجرة كالطيور الغريبة خرج هو واخته يودعانها ، وحينما ضمته الى صدرها فى حنان عرف ان هذا هو الوداع الأخير ثم لم يرها بعد ذلك أبدا ، ماتت عند أهلها ..

كان نهارا غريبا تفكر فيه عبد العزيز وهو جالس على السطوح يتأمل صفاء الليل النجوم تتلالا فى سكون ، نسمة شمالية رقراقة ؛ حزم الحطب تتكدس على السطح فى الدور .. قمم أشجار الصفصاف . وهامات الجميز القديمة .. الغرفة الوحيدة القديمة خزائن اللبن والمعاش مخازن الحبوب الطينية مئذنة المسجد الجامع القصيرة الغليظة القبيحة ، قبة زوجة جده فى مقبرة القرية البعيدة

كان نهارا غريبا ماتت الجاموسة ، الآن زريبتهم خالية ما عدا الحمارة السمراء الكبيرة لعلها الآن فى جوف العتمة مدلاة الراس تتنهد فى حزن ..

مدد رجليه واستراح فى كرسيه فرشوا للحاج كريم مرتبة نام عليها ودثروه باللحاف انفاسه رتيبة تحدث صوتا وهم حوله صامتين

ام عبد العزيز متكومة على نفسها وغارقة فى النوم اذا لم تجد ما تشغل به يديها اغرقت فى النوم لم يراها إبدا سارحة

تفكر .. أو جالسة تحادث الناس وتستمتع بالحديث لولا تحرجها لتركتهم ونزلت الى غرفتها ونامت ..

رشيدة والبنات جالسات ساكنات لكنهن يقظـات الرؤوس كالبوم القابع على الأشجار فى العتمة .. ماذا يفعل عبـد العزيز ثمة شيء يجب عمله ، هل يترك دراسته ويبحث عن وظيفة ثم يحملهم جميعا الى المدينة .. أيقوى على ان ينشيء دارا فى أرض جديدة ؟ .. هل يرحل وحده ويراسلهم بالنقود والرأى ؟ ..

مجلس تكون فيه رشيدة والحاجة شوق لهو أبهج المجالس ابتسم عبد العزيز فى مرارة وهو يرى شبحها قادما .. الحاجة شوق

ـ مسا الخير ياولاد

وردوا عليها هامسين انتبهت أم عبد العزيز تماما كأنما هى متوفرة للعراك وجلست الحاجة شوق على الحصير ساكتة ، نظرت ناحية الحاج كريم مدثر باللحاف ساكن .. سلام على الأيام الطيبات والكلمات الودودة والنظرات الطافحة بالشوق والخدود المزدهية ولت الأيام ..

ـ آدى حال الدنيا

... التى كانت يوما .. هى الآن مغرمة بضروب العطارة وصنوف النباتات والأعشاب الغريبة والأشياء السحرية الصغيرة .. لكن لا شفاء لصداع راسها ولا لسوء مزاجها وكآبة نفسها تعلق سمكه ذهبية فى منديل راسها وحجابا فى طرف غدائرها وتربط ورق نبات خاص على أصداغها .. اشياء تغليها وتشرب ماءها على الريق اشياء تدلك بها نفسها شبكة من الوصفات والتمائم والمعقدة حناء للمقاصيص البيضاء المتدلية على الأصداغ ، لا تريد أن تشيب ابدا مدت يدها بشيء الى ام عبد العزيز

ـ خدى يا ست ام عبد العزيز .. تغليه وتدعكى به ايده اللى بتوجعه

ـ طيب ياختى

اخذت منها اللفافة ووضعتها باهمال بجوارها باهمال وعدائية قامت لم يرد أن يستبقها ربما تكون اقل كآبة بين اشيائها واحفادها

ـ افوتكم بعافية

واللفافة ملقاة على الحصيرة ، كانت هذه الأشياء ذات جدوى ربما فى الزمن القديم .. ابتسم عبد العزيز فى داخله .

ذات ليلة جاء العراقى يعود الحاج كريم فى وعكة الم به .

ـ مالك يابا الحاج

ويشير الحاج كريم الى رأسه الموجوعة ويصيح العراقى

ـ راسك مفتوحة يابا الحاج

ثم يطلب مفتاحا خشبيا ومنديلا كبيرا وبخورا وشمعا وزيتا يتقافز ويجرى طقوسا وقراءات بلسانه المهشم تميت الجالسين من الضحك واخيرا اطلق البخور ودلك بالزيت المسخن على الشمع وعقد المنديل وادخله حول راس الحاج كريم ثم أولج المفتاح فى العصابة وبدأ يديره والعصابة تضيق على الراس حتى صرخ الرجل الما فصرخ العراقى فرحة وانتصارا لاعادة غلق الراس ومات الحاضرون ضحكا ..

الآن لا شيء من هذا يجدى ، المطلوب ادوية غالية ونظام تغذية وزيارات طبية متوالية .. ولا شيء فى الدار ، لا شيء يجدى وصفات شوق أو طب العراقى حتى حياة العراقى اصبحت دورا هزليا لا يثير احدا يطير على عجلته ذاهبا لعمله .. ويطير راجعا لا يلتفت ناحية الدوار ، الارائك عليها التراب لا احد يجلس هناك

كان نهارا غريبا يتأمل النجوم الحائرة الدب الكبير يدور حول النجمة اللامعة الوحيدة الصاعدة نحو الشمال كعيون ابيه هداة الليل ثم الفجر ثم نهار جديد بعنائه وشاكله ..

سمع خفق شبشب على السلم ، وبدت سميرة طويلة القامة مليئة تحمل ابنها على كتفها ويعلق بها بصر عبد العزيز ، ساهما شاردا ، ليس فى راسه فكرة واحدة ..

ـ مساء الخير

وتاتى الردود هامسة مترددة

ـ مساء النور ياختى اهلا وسهلا

ثم تبصر عبد العزيز وتهتف ..

ـ عبد العزيز

وتسرع ناحيته ثم تلقى بنفسها على ركبتيها امامه واضعه يديها على ركبتيه ..

ـ عبد العزيز وحشتنى اوى يا عبد العزيز .. يا سلام نفسى اشوفك بشكل

تتكلم وتضحك صوتها طلق رائق وسط السكون من حوله ، باهر كالنجمة الزاهية الوحيدة فى بحر الظلام ، شىء سقط فى روح عبد العزيز ثم بدا ينتشر ويسرى فى كيانه دمعه رائقة لم يعرفها منذ وقت طويل بدا تشمله وتهزه وضع يديه على يديها المستريحتان على ركبته ..

ـ اهلا سميرة .. اهلا

وهى تواصل اندفاعها المنفرد فى صمت الوجوه من حولها لكنها تلتفت فجاة وتكتشف وتحس . انها تصيح فى جبانة ساكنة

الشواهد تسكت مكسوفة وتدور تبحث عن شبشبها حولها تلبسه وتستدير نازلة ويتأمل عبد العزيز ظهرها وهى ماضية ويحس بأن سروره الذى غمر روحه يستلب منه ويغرب عنه وهى تمضى رويدا ، هتف متشبثا

ـ مستعجله ليه يا سميرة

ـ معلش

نهض من مكانه لم ينظر الى الجالسين متحلقين كآبى صامتين وانما كان كل احساسه بها وبها وحدها ..

ـ استنى جاى معاك اوصلك

ظلال الدور على ارض الشارع حالكه السواد وضوء القمر أخضر زاهى على الحيطان ، حطب العرائش رطب بالندى يشدلى اهدابا من السقوف المساء عذب وروح عبد العزيز مشوقه للانطلاق

ـ ازيك يا سميره ..

ـ حلوه ازيك انت

طويله تكاد كتفها تصل الى كتفه مشيا فى هذا الشارع فى البكور ليلحقا قطار الصباح الى المدرسة ، كبرت لكن قلبها لايزال ابتسامتها واسنانها اللامعة المصفوفة طلاقتها وصفاء روحها أزداد حنينا لأن تذوب الأثقال الجاثمة على صدره .

ـ زى ما انت شايفه ياسميره .

ازدحم صدره بالضحك ..

ـ اول امبارح كنت فايت .. شفتك فى الشارع عماله تجرى .. قلت يا ترى ايه ..

وضحكت من قلبها ..

— والنبى شفتنى صحيح .. يادى الكسوف .. دا انا كنت حافيه وراسى عريانه ..

وضحك من كل قلبه ..

— آدينى شفتك .. كنت بتعملى ايه ..

— كنت ياخويا بجرى ورا المعزة .. جتها داهيه .. مغلبانى .. فى رجليها ستين عفريت ..

وتغرق فى الضحك ..

— بتاكل ياخويا حاجة الناس والناس فاضحانى .

ثم تهدأ قليلا وتعروها جدية طفلية ..

— والنبى يا عبد العزيز انا فى غلب .. معيز وخرفان وبهايم وعجول .. وانا طول النهار دايبه تحت رجليهم ..

وفجأة تغرق فى الضحك ويضحك عبد العزيز معها ويغرق دون ان يعرف لماذا ؟

— اسكت على اللى جرى أول امبارح .. دخلت الزريبه .. لقيت البقره راقده وممدده رجليها على الأخر وعينيها مغمضه .. قلت يا نصيبتى البقره ماتت ورحت راقعه بالصوت .. ساعت ما صوت راحت البقره ناطه وقايمه واقفه .. يا حوستى .. اتارى البقره كانت نايمه .. الناس اتلمت عليه .. اقولهم ايه ؟ بقيت فطسانة على روحى من الضحك .. والناس عمالين يضربوا كف على كف .. ويقولوا البت اتهبلت ولا ايه ..

ومات عبد العزيز ضحكا لم يضحك هكذا من زمان ، لو يعانقها ويضم ضحكها الى صدره ويدخله فى قلبه ..

— قولى لى يا سميرة .. لسه فاكره حاجه من العلوم بتاعت زمان ..

— والنبى يا خويا .. اسكت .. راسى انقلبت والواد ابنى آجى اقوله يا واد ورينى كتبك .. وان ما كنتش عارف حاجه افهمك .. يقوللى يا امه اسكتى .. حاجات زمان بتاعتكم ما تنفعش معانا ..

— بقى كبير يا سميرة .. سيبيه لوحده

— سايباه يا خويا

— ولابسه الطوق الحديد عشان يعيش .. بتصدقى فى الخرافات يا سميرة ..

— يا خويا الناس بتقول كده .. بخاف عليهم يا عبد العزيز .. والنبى عيالى حلوين أوى بس لما تقعد معاهم كده وتجاريهم فى الكلام ..

اوصلها عبد العزيز وكر راجعا فى الشارع الظلال اكثر حلكه وضوء القمر أكثر بهاءا صوت وقع اقدامه واضحا فوق قلب الصمت يمشى خفيفا ، يتامل وجه القمر يفرس عيونه فى صدره كانما يهم بان يرفع عقيرته مغنيا لم يرد ان يعود الى الدار لا يريد أن يدفن فرحته فى غرفة العذاب على السطوح .

انحرف فى زقاق جانبى طويل مظلم تماما لايرى طريقه ولكنه يسير ، حتى أحس بأن الزقاق انتهى ، مال ، عتبة الباب منخفضة جدا عن أرض الزقاق تحدر نازلا استند على سقف الباب بيده دخل وسط الدار ، مظلم تماما لايرى شيئا تخبط فى الظلام ، باب فيه شروخ تتقصد بضوء أبيض باهر .. دخل الى المقهى ، غرفة صغيرة وقده من ضوء الكلوب والصياح والزياط والهياج ، حزمة من الحياة الصخابة مدفونة تحت صمت القرية لكنها قوية انفسح له مكان بين رجلين دون أن تتردد الضجة المندفعة المذياع على آخره وصوت المطربة المسرسع يندفع فى خط مواز لهيصة الجالسين

الارائك بجوار الحيطان مزدحمة بالجالسين والأرض المفــروشة بالحصر والزكائب لامكان فيها لقدم .

الطبالى وحولها لاعبى الكوتشينة ورشفات الشـــاى وكركرة الجوز ، الجو ساخن خانق .. ومن الكلوب ووش الوابور القهوجى واقف امام المنصة يصب الشاى ويرص النار على الجوزة ومع كل كوبة يناولها لرجل يصحبها بشتمة بشعة عارية .

نحيل وسخ الثوب ذابل العينين لكن وجههالشاحب دافقبالحياة اسنانه سوداء وابتســامته وقحه قويه ناول عبد العزيز كوبة الشاى دون تعليق .. ساخنه قويه زائدة السكر، رشـف عبد العزيز منها ، قبضت فمه ، لكن طعمها عبقرى مرارتها تذوب فى سكرها وتسرح فىكيانه كالسرور ذابت وحدته فى الضجه السائده عمه يصفق اوراق الكوتشينه فى الطبليه ويشتم رفيقه ويهدده يتكلمون فى كل شىء وفى نفس واحـد وبمرارة وقوة واستياء وغضب ..

ـ ضير المحطه ياوله خلينا نسمع النشرة ، سد حنك المره اللى بتغنى دى .

ويمد القهوجى يده الى الراديو ليدير مفتاحه ولكنه لا ينسى أن يـرد .

ـ النشرة .. سياسى اوى زى اللى جابك .. ملعون ابوك

ـ عاوزين نفهم يا بجم .. هنتنى طول عمرنا حمير

وقورا صوت المذيع والضجه كما هى كانما لا احد يسمع ولكنك بعد حين تسمع تعليقات من هنا ومن هناك على ما يقول وتعرف انهم يتابعون .

« وصل السير ...

ـ جاى يعمل ايه ابن الجزمه .

ـ انا لو هناك كنت تفيت فى وشه ورجعته ..

ووجد عبد العزيز نفسه يتكلم .. هادئا ثم منفعلا صارخا .

المذيع يتكلم وهو ينفعل والضجه هادره والكل يتكلمون ويعلق واحد على كلامه ويرد والآخرون مشتبكون فى كلام او عراك او ضحك وشتائم .

انغمس فيهم فى قلبه مثل ما فى قلوبهم من المرارة والغضب والألم تندى جبينه بالعرق وهو لايكف عن الهدير بالكلام امتـدت يد بالجوزة اليه جذب منها نفسا عميقا كثيفة ثرية صعدت الىراسه بقوة داخ وسعل لكنه لم يتوقف عن الكلام وعاد اليها مرة ومـرة طعمها رائع كانما مائة سيجارة فى نفس واحد .. تدفق الدخـان من فمه ازرقا كثيفا وتدفق الكلام حادا صارخا .

فهــــرس

رقم الإيداع ٩٦/٧٥٦٨
I. S. B. N 977-01-4879-2